

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مِيقَاتُ الْحَجِّ

العدد: ٥٨

محرم الحرام ١٤٤٤ هـ

السنة: ٣٠

Issn : 2538 - 1733

مجلة علمية تخصصية نصف سنوية تعنى بالشؤون
الثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحج



هَيْئَةُ التَّحْرِيرِ:

الشيخ محمد جواد الفاضل اللنكراني

الشيخ محمد القايني

الشيخ محمدهادي اليوسفي الغروي

الشيخ رضا المختاري

المُدِيرُ المَسْئُولُ:

السيد عبدالفتاح نواب

مُدِيرُ التَّحْرِيرِ:

الشيخ محمدعلي المقدادي



الفهرس:

٥	كيفية السعي بين الصفا و المروة الشيخ محمد القايني
١١	﴿...وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا...﴾ (١) محسن الأسدي
٥٥	شخصيات من الحرمين الشريفين (٤٧) عقيل بن أبي طالب الهاشمي (١) محمد سليمان
٩٣	«تعريف بكتاب» طريق الحجّ الأحسائي (٣) إدارة التحرير
١٥٩	مكة في رحلة الشعر و الشعراء حسن محمد
١٨٧	ملخصات البحوث بالانجليزية



ملاحظات:

يرجى من العلماء والمحققين الأفاضل الراغبين في التعاون مع المجلة مراعاة النقاط التالية:

١. ذكر المصادر والهوامش بدقّة.
٢. أن تكون المقالة مكتوبة على الآلة الكاتبة إن أمكن أو أن تكتب بخط اليد على وجه واحد من كلّ ورقة.
٣. أن تكون المادّة المرسلّة للنشر في المجلة غير منشورة سابقاً وغير مرسلّة للنشر إلى مجلة أخرى.
٤. تقوم المجلة بدراسة وتقييم البحوث والدراسات المقدمة إليها، ولها الحقّ في صياغتها وتعديلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنى.
٥. يعتمد ترتيب البحوث والمقالات في المجلة على أسس فنيّة.
٦. تعتذر المجلة عن إعادة المقالات إلى أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.
٧. المقالات والبحوث التي تنشر على صفحات المجلة تمثّل وجهات نظر كتّابها وآرائهم.
٨. ترسل جميع البحوث والمقالات على عنوان المجلة.
٩. ترحب إدارة التحرير في مجلة «مِيقَاتُ الْحَجِّ» بملاحظات القراء الكرام ومقترحاتهم.

كيفية السعي بين الصفا والمروة

الشيخ محمد القايني

ملخص البحث:

بحثنا في هذه الوجيزة عن كيفية السعي بعد البناء على وجوب استيعاب ما بين الصفا والمروة بالسعي والمشي، وحكيما عن المعروف تدقيقاً في الأداء، حكماً بعدم وجوبه جزماً، بل ولا مطلوبة الاحتياط بمثله قطعاً، ثم تعرضنا لحكم فرض الشك في صدق مفهوم السعي المستوعب وأن الحكم فيه البرائة لا الاحتياط والاشتغال بعد ردّ بعض ما يتصور في المسألة من التفصيل.

الذي يظهر من بعض الكلمات ومن جملتها كلام صاحب الجواهر^١ في حدّ السعي بين الصفا والمروة هو التدقيق في الاستيعاب حتى أنهم صرّحوا بلزوم لصق عقب القدم عند البدء بالصفا والأصابع بالمروة، بل قد يظهر من بعضهم لزوم لصق العقبين بالصفا بل لزوم العود إلى نقطة البدء؛ فيلصق أصابع رجله بموضع لصق عقب القدم عند البدء قال في الجواهر.

١. جواهر الكلام، الشيخ الجاهري ١٩: ٤١٩ .



قد عرفت سابقاً عدم وجوب الصعود على الصفا فيكفي حينئذ أن يجعل عقبه ملاصقاً له، لوجوب استيعاب المسافة التي بينه وبين المروة؛ نعم قد يحتمل الإكتفاء بأحد القدمين ولكن الأحوط جمعها. ثم إذا عاد ألصق أصابعه بموضع العقب حتى يحصل الاستيعاب المزبور الذي عليه المدار في الظاهر وإلا فلا دليل على وجوب السعي منحياً خصوص قدم الإبتدائي بل لعل إطلاق الأدلة يقضي بخلافه، فإنه ليس فيها إلا السعي بينهما الذي يتحقق بذلك، وبالانتهاء إلى ما يجازي الابتداء. بل مقتضى الإطلاق المزبور نصاً وفتوى عدم وجوب كون السعي بالخط المستقيم ضرورة صدق السعي بينهما به وبغيره.

بل نصوص السعي راكباً في الرجال والنساء كالصريحة بخلافه، ولكن مع ذلك لا يسعى بترك الفرد المتيقن الذي عليه العمل. بل فيما حضرني من بعض الكتب نسبة الكيفية المزبورة أولاً إليهم عليهم السلام، بل فيه أنه قيل الظاهر اتفاق الأصحاب عليه وإن كنا لم نتحقق شيئاً من ذلك.

نعم في الرياض: لولا اتفاق الأصحاب في الظاهر على وجوب الصاق العقب بالصفا والأصابع بالمروة لكان القول بعدم لزوم هذه الدقة والإكتفاء بأقل من ذلك بما يصدق معه السعي بين الصفا والمروة عرفاً وعادة لا يخلو من قوة؛ كما اختاره بعض المعاصرين لما ذكره من أن المفهوم من الأخبار أن الأمر أوسع من ذلك بل السعي على الإبل الذي دلّت عليه الأخبار وأن النبي صلى الله عليه وآله كان يسعى على ناقته لا يتفق فيه هذا التضييق... بل يكفي فيه الأمر العرفي ولكن الأحوط ما ذكره فقد عرفت أن مقتضى إطلاق الأدلة السعي بينهما ويمكن فهم الاستيعاب منها... لكن كونه على الوجه المزبور محلّ نظر بل منع، وليس في كلامهم ظهور في ذلك وإنما ذكره بعض متأخر المتأخرين بل لعل إطلاق الفتاوى بخلافه.

أقول: والمتحصّل من كلامه أن المشهور أو المدعى عليه الإجماع أمور: أحدها:



إصاق عقب القدم بل العقبين بالصفاء في البدء. ثانيها: إصاق أصابع الرجل بالمروة عند الوصول إليها. ثالثها: إصاق أصابع الرجل بالصفاء عند العود. رابعها: إصاق أصابع الرجل عند الرجوع إلى الصفاء بنفس موضع إصاق عقب القدم عند البدء منه. خامسها: كون السعي في خط مستقيم

ثم استشكل هو في ذلك كله بحسب النصّ بل الفتوى وأنّ المعيار هو السعي بين الجبلين عرفاً ومع ذلك احتاط في المسألة.

الذي يخطر بالبال والله العالم أنّ الحكم بلزوم لصق عقب القدم إلى الصفاء ونحو ذلك من التدقيق والوسوسة نشأ من بعض كلمات السابقين كالعلامة حيث ذكروا في مقام الردّ على الحكم بلزوم الصعود على الصفاء والمروة قياساً على وجوب غسل جزء زائد على الواجب في الوضوء من باب المقدمة بالفرق بين المقامين وذلك بإمكان استيعاب السعي الواجب بدون ضم جزء زائد وهو الصعود على الصفاء والمروة حيث يمكن تحقيق الإستيعاب بلصق عقب القدم بالصفاء والأصابع بالمروة فكان الحكم بذلك تحقيقاً للإستيعاب وعدم توقف احراز الواجب في مثله على إدخال زائد على الواجب ولا أظن وجود إجماع تعدي في المقام ولا تلقى ذلك من الأئمة عليهم السلام، بل لا ينبغي توهم وجود رواية بمضمون ذلك غير واصل إلينا، كيف وإنّ حجّ النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام كان بمرأى من الناس بتفاصيل أجزائه ولم يعهد من أحد منهم أمثال هذه الوسواس ولا نبه على ذلك في شيء من النصوص ولو كان الواجب هو مثل ذلك والمعصوم بمرصد الناس ورؤاهم لنقل ذلك إلينا بل تكرر ذكره في النصوص.

ولعمري أنّ أمثال هذه التدقيقات في السعي وكذا في الطواف مما يقطع بعدم كونها مطلوبة في الشريعة بل هي ناشئة من الوسواس وتخيّل الصناعة واقتضائه الإحتياط بمثل ذلك في كلمات المتأخرين ولا أظن في كلمات القدماء ما يوهم مثل ذلك كما أشار إليه في الجواهر لخلو النصوص من الفريقين عن أمثال ذلك، بل التقيّد بهذه التدقيقات



من الصوارف عن حضور القلب والشواغل عن التوجه والتقرب والعبادة. ولعمري إنه كان ينبغي لمن يراعي أمثال هذه التدقيقات أن يلصق أنفه أو وجهه أو مؤخر رأسه بالمقصد والمبدأ أعاذنا الله من الشذوذ والإعوجاج في الفهم والعمل. بل يخطر بالبال بعد فرض وجوب الاستيعاب في السعي بين الجبلين أن الاستيعاب الحقيقي مما يحصل بغير ما ذكر من التدقيقات، حيث إن الواجب في السعي هو البدء من الصفا والختم بالمروة ويحصل ذلك كله بالحضور عند الجبلين بلا حاجة إلى إصاق عقب القدم أو أصابعه.

ألا ترى أن من جاء إلى باب دار يصدق مجيئه إلى باب الدار وإن لم يلصق بالباب إصبعاً أو عقباً؛ وليس السعي بين الجبلين سوى السير بينهما على وجه يحضر عندهما لا أن يلتصق بهما بمؤخر البدن أو مقاديمة.

وقد صرح في بعض النصوص في السعي بالعندية، أفتظن أن من جاء من عند زيد إلى عمرو وأنه ألصق عقبه بزيد أو أصابع رجله بعمرو فضلاً عما أشار إليه في الجواهر بإصاق الرجلين.

والذي حملني على تعقيب البحث هذا، هو ما نقل لنا ونحن بمدينة الرسول ﷺ في حجنا لسنة ١٤٤٣ هـ.ق. أن إدارة الحرم بمكة جعلت على فاصل من جبل الصفا حواجز تمنع الناس من اللصوق إلى جبل الصفا.

والمحكي عن بعض الفقهاء حل المشكلة عن طريق دعوى كون جبل الصفا سابقاً أو سع مما عليه الآن، وأنه حذف بعضه؛ وقد بينا أنه لا حاجة إلى مثل هذه التوجيهات حتى أنه لو فرض جبل الصفا قديماً بحدّه الموجود هذا اليوم، كان الحضور عنده بغير اتصال وإصاق كافياً في صدق السعي منه وإليه.

ثم إنه لو شك في صدق السعي المستوعب على السعي على الوجه الذي ذكرناه فهذه شبهة مفهومية ولا مجال في مثلها للاستصحاب ولا لقاعدة الإشتغال، بل المرجع



هو أصل البرائة لأن المسألة من دوران الأمر بين الأقل والأكثر الإرتباطين حيث نشك في جزئية الزائد على القدر المتيقن.

وقد فصلنا الكلام في أمثال المقام من السعي والطواف ونحوهما فيما حققناه سابقاً في مسائل الحج المستحدثة بمناسبة حكم الطواف في الطابق العلوي والوقوف فيما نشك دخوله في عنوان عرفات ومشعر ونحو ذلك مما يشك في صدق العناوين بشبهة مفهومية. غير أنه ربما يفصل في الشبهات المفهومية للحكم بالبرائة بين الموارد بدعوى أن مورد الشك قد يكون تعيين الوظيفة والموقف فيه بيد الشارع حيث إن التكليف وحدوده من شؤون الشارع، فحيث لا يتحقق من الشارع موقف خاص كان المورد مجرى البرائة كالشك في صدق الصلاة على الفاقد لجزء أو شرط بناءً على الوضع للصحيح، فإن تعيين حدود الصلاة من شؤون الشارع وليس بيد غيره.

وقد يكون المشكوك مما نسبته إلى الشارع من حيث كونه مشرعاً وإلى غيره من العرف سيان، كتعيين حدود منى وعرفات والمشعر بل وصدق الطواف في بعض المواقع؛ ومن جملة ذلك صدق عنوان الصفا والسعي منه وإليه وما شاكل ذلك، فإن صدق المفاهيم ليس من شؤون الشارع، وإنما هو تابع للوضع وأمره بيد العرف جعلاً وتشخيصاً ودخل الشارع فيه لا يختلف عن دخل العرف، فإذا شك في صدق عناوين من هذا القبيل كان المورد مجرى للإحتياط للشك في الخروج عن عهدة التكليف المعلوم، والذي لا يكون تحديد الموقف فيه من صلاحيات الشارع بها هو شارع، ولئن تدخل فيه فباعتبار كونه من أهل العرف لا من حيث كونه مشرعاً.

ويردّ أنا لانرى فرقاً فارقاً بين هذه الموارد، فإنه في القسم الثاني أمر الحكم والتشريع بيد الشارع كالقسم الأول، حيث إن الحكم يشرّع لواقع المفاهيم لا لعناوينها وإنما العناوين وسائط في ترتب الحكم على المعنونات.

فكما أنّ الصلاة التي هي متعلق الحكم هي واقع الصلاة لا عناونها، ومع الشك في



تقومّ العنوان بجزء أو شرط يحكم بالبرائة، ولا يكون من الشك في المحصّل؛ كذلك في فرض الشك في صدق عرفات أو مشعر على نقطة للشك في سعة المفهوم وضيقة فإذا شك في كون جبل عرفات من جملة الموقف وكذا بعض الأمكنة المشكوك في صدق مشعر عليها وكذا حيث يشك في كون سفح جبال منى، أو بعض المواقع المنحوتة، أو أعالي جبال منى، لإحتمال كون منى هي الوادي ولا يدري صدقها على أعالي جبال منى ونحو ذلك ففي كل ذلك أمر الحكم بيد الشارع من حيث العنوان ومن حيث الشك فيه.

مثلاً إذا شك في صدق الإكرام والإحترام على نزع العمامة للقادم، كان ثبوت التكليف بالنسبة إلى الزائد عن ذلك مشكوكاً لا محالة، فجرى فيه البرائة؛ ولا يقال إنّ وجوب الإحترام معلوم والخروج عن عهده بالمشكوك مشكوك، فيجب الإحتياط لأنه من الشك في سقوط التكليف بعد العلم بثبوته؛ والسّر في ذلك أنّ متعلق التكليف إذا كان معلوماً وكان الشك في محصّله، لا فيما ينطبق عليه، فال مورد مجرى للإحتياط عند الشك، كما لو شك في تحقق الطبخ بحرارة أو بزيادة عنها، فإنّ الإيقاد وإيجاد الحرارة ليس هو متعلق التكليف، وإن كان إمتثال التكليف منوطاً به، بخلاف ما إذا كان المشكوك مما يحتمل انطباق متعلق التكليف عليه، فإنّ ثبوت التكليف في الأزيد تضييق زائد يرفع بالبرائة.

وظني أنّ المسألة لا إبهام فيها وإنما تعرّضنا لها ببعض التفصيل دفعاً للشبهة الطارئة على بعض الأذهان والله العاصم والهادي إلى السداد.

هذا ما تيسر لي ضبطه بجوار سيدي ومولاي رسول الله ﷺ ومجاورتي لآله الطاهرين سادتي وأئمتي المدفونين بالبقيع أثناء زيارتي لبيت الله الحرام للحج إن شاء الله تعالى، حامداً مصلياً على محمد وآله الأطيبين سنة ١٤٤٣ هـ. ق. وذلك بطلب من بعض الإخوان أيده الله تعالى.

﴿...وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا...﴾

(١)

محسن الأسدي^١.

لعلنا في هذه المقالة، نوفق في دراسة آيات قرآنية، ذكرت فيها مفردة النسك ومشتقاته، وبيان مدى علاقتها بالحج والعمرة أحكاماً ومفاهيم وأدباً وتاريخاً...، بل تطلق في الأعم الأغلب على ما يتضمنه الحج من شعائر وعبادات ومواقع، إن لم نقل قد اختصت بها... وهو ما نريد الوقوف عنده في هذه المقالة بأكثر من حلقة إن شاء الله تعالى.

والآيات التي توفرت فيها مفردة النسك والمنسك ..

في سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن دُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ﴾ ٢: ١٢٨ .

﴿وَأْتِمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ

١ . محقق و باحث ديني .



فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَن تَمَتَّع بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢: ١٩٦﴾ .

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ﴿٢: ٢٠٠﴾ .

في سورة الأنعام: ١٦٢ ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

في سورة الحج: ٣٤ ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْهُكْمُ لِلَّهِ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ .

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾: ٦٧ .

ولم يكن هناك في التنزيل العزيز إلا هذه الآيات ذكرت هذه المفردات: مَنَاسِكَنَا، نُسُكٍ، مَنَاسِكِكُمْ، وَنُسُكِي، مَنَسَكًا، مَنَسَكًا، نَاسِكُوهُ .

والتي جاءت سبع مرّات في ستّة مواضع من آيات قرآنيّة مباركة، لعلّ أغلبها إن لم يكن جميعها تشير إلى الحجّ والعمرة أعمالاً كالإحرام والطواف والسعي... ومواضع أو مواقف؛ عرفّة؛ والمشعر ومنى... وفي رأي أنّ هذه المواضع أو المعالم وتلك الأعمال، والتي تكفّلت الكتب والرسائل الفقهيّة تفصيل أحكامها الشرعيّة... سمّيت مناسك؛ إمّا لأنها الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شرّ، أو لأنها الأماكن التي يتردّد إليها في الحجّ والعمرة، أو لأنها جمع «منسك»، وهو الموضع الذي ينسك لله فيه، ويتقرّب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح إمّا بذبح ذبيحة له، وإمّا بصلاة أو طواف أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة ولذلك قيل - والكلام للطبري - لمشاعر الحجّ: مناسكه؛ لأنها أمارات وعلامات



يعتادها الناس، ويتردّدون إليها. أو أنّ النسك هو العبادة وأنّ الناسك هو العابد، وقد اختصّ بأعمال الحجّ، أو أنه شاع بأعمال الحجّ، أو هي كما يقول قتادة: الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة عن عرفات والإفاضة من جمع ورمي الجمار حتى أكمل الله الدين.

ووصف الشيخ الطوسي قول قتادة هذا بعد أن ذكره أيضاً مع أقوال في تبيانه بقوله: فهذا القول أقوى؛ لأنّ العرف في معنى المناسك.

ولعلّ هناك غير هذا نجد في أقوالهم. فهذا الشيخ الطبري في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا...﴾ سورة الحجّ: ٣٤، ٦٧.

بعد أن يذكر:.. أن أصل المنسك في كلام العرب الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه لخير أو شرّ، يقال: إنّ لفلان منسكاً يعتاده: يراد مكاناً يغشاه ويألفه لخير أو شرّ.

يقول: وإنما سمّيت مناسك الحجّ بذلك، لتردّد الناس إلى الأماكن التي تعمل فيها أعمال الحجّ والعمرة.

أو... ولذلك قيل لمشاعر الحجّ: مناسكه؛ لأنها أمارات وعلامات يعتادها الناس، ويتردّدون إليها. هذا ما خلاص إليه الطبري.

وكذا قالها الفراء: «وَبِهِ سُمِّيَتِ الْمَنَاسِكُ»، ولكن بعد أن ذكر: الْمَنَسُكُ وَالْمَنَسِكُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ؛ الْمَوْضِعُ الْمَعْتَادُ الَّذِي تَعْتَادُهُ. وَيُقَالُ: إِنَّ لِفُلَانٍ مَنَسِكًا يَعْتَادُهُ فِي خَيْرٍ كَانَ أَوْ غَيْرِهِ،...

مضيفاً قول الشاعر ذي الرمة:

وربّ القلاص الخوص تدمى أنوفها بنخلة والساعين حول المناسك ...

فيما ابن الأثير بعد أن يذكر:.. وَمَنَسِكٌ، بفتح السين وكسر هاء، وهو المتعبّد ويقع على المصدر والزمان والمكان، يقولها واضحة صريحة: ثُمَّ سُمِّيَتْ أُمُورُ الْحَجِّ كُلُّهَا مَنَاسِكًا.



وعن قتادة؛ المناسك: معالم الحجّ. أو هي جميع أفعال الحجّ كما عن غيره...
أما الراغب فيذهب إلى اختصاصه بأعمال الحجّ؛ حيث يقول: نسك: النسك العبادة
والناسك العابد، «واختصّ بأعمال الحجّ».
وكذلك يقول البيضاوي: والنُّسْكُ في الأصل غاية العبادة، وشاع في الحجّ؛ لما فيه
من الكلفة والبعد عن العادة...
والكلام نفسه رده بعده كلُّ من ابن عجيبة والفيض الكاشاني في تفسيريهما وكذا
الألوسي.

فيما القرطبي ذكر الاختلاف دون ترجيح لرأي، مكتفياً بقوله: وهو في الشرع اسم
للعبادة يقال: رجل ناسك إذا كان عابداً.
وهذا كلامه: إنّ أصل النُّسْكُ في اللغة الغسل يقال منه: نسك ثوبه إذا غسله.
وهو في الشرع اسم للعبادة يقال: رجل ناسك إذا كان عابداً. واختلف العلماء في
المراد بالمناسك هنا فقليل: مناسك الحجّ ومعالمه قاله قتادة والسُّدي... وقيل: جميع
المتعبّات. وكلّ ما يُتعبَّد به إلى الله تعالى يقال له: مَنْسِكٌ وَمَنْسِكٌ. والناسك: العابد.
قال النحاس: يقال نَسَكَ يَنْسِكُ، فكان يجب أن يقال على هذا: مَنْسِكٌ، إلا أنه
ليس في كلام العرب مَفْعُلٌ.

محمد رشيد رضا: والمنسك... معناه غاية العبادة، وغلب استعمال النسك في عبادة
الحجّ خاصّة، والمناسك في معاملة أو أعماله.
إذن فالمناسك وهي جمع منسك بفتح السين وكسرهما، ويقع على المصدر والزمان
والمكان، هو: المتعبّد؛ وسميت أمور الحجّ كلّها مناسك.
والمنسك: المذبح، وقد نسك ينسك نسكاً إذا ذبح، والنسيكة: الذبيحة.
قال مجاهد وعطاء وابن جرير عن القرطبي: المناسك المذابح أي مواضع الذبح...
ومن كلامهم: النسك: الطاعة والعبادة، وكلّ ما تُقرب به إلى الله عزَّ وجلَّ.



والنسك: ما أمرت به الشريعة، والورع ما نهت عنه، والنسك: العبادة، الناسك: العابد. والمناسك: مواقف النسك وأعمالها. واختصّ بأعمال الحجّ والذبيحة واحدة منها ولها أهمية كبرى.

وحتى جاء في تفسير الآية، البقرة: ١٢٤ ﴿وَإِذْ أُنبِئَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...﴾.

أقوال منها: ما ذهب إليه كلُّ من الربيع وقتادة؛ أن الكلمات الواردة في الآية الكريمة هي: «منسك الحجّ». وفي تفسير الكشاف؛ قيل: هي مناسك الحجّ، كالطواف والسعي والرمي والإحرام والتعريف وغيرهنّ.

فيما قال جماعة: تلك الكلمات مناسك الحجّ خاصة. وقال بعضهم: بل الكلمات التي ابتلي بهن عشر خلال... وبعضهنّ في مناسك الحجّ. وفي قول: ... وأربعة في المشاعر: الطواف، والسعي بين الصفا والمروة، ورمي الجمار، والإفاضة. عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أُنبِئَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ...﴾. قال: منهن مناسك الحجّ. وعنه: ابتلاه بالمناسك. وقال آخرون في قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. إماماً في مناسك الحجّ.

وعن مجاهد في قوله: ﴿وَإِذْ أُنبِئَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ...﴾. قال الله لإبراهيم: إني مبتليك بأمر، فما هو؟ قال: تجعلني للناس إماماً. قال: نعم. قال: ومن ذريتي؟ قال: لا ينال عهدي الظالمين. قال: تجعل البيت مثابة للناس. قال: نعم. وأمناً قال: نعم. وتجعلنا مسلمين لك، ومن ذريتنا أمة مسلمة لك قال: نعم. وترينا مناسكنا وتتوب علينا. قال: نعم. قال: وتجعل هذا البلد آمناً قال: نعم. قال: وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم قال: نعم.^١

أقول: وقد ذكرتها آيات قرآنيّة، ويبدو أنّ مجاهداً لم يجهد نفسه سوى اقتباسها من التنزيل العزيز.



وهناك ردُّ لهذا ولغيره، كما ذكر صاحب تفسير المنار قال: وقال شيخنا في الدرس: جعل التكليف بالكلمات؛ لأنها تدل عليها، وتعرف بها عادةً، ولم يذكر الكلمات ما هي ولا الإتمام كيف كان؛ لأنَّ العرب تفهم المراد بهذا الإبهام والإجمال، وأنَّ المقام مقام إثبات أنَّ الله تعالى عامل إبراهيم معاملة المبتلي، أي المختبر له؛ لتظهر حقيقة حاله، ويترتب عليها ما هو أثرها، فظهر بهذا الابتلاء والاختبار فضله بإتمامه ما كلفه الله تعالى إياه وإتيانه به على وجه الكمال. هذا هو المبادر.

وبعد كلامه هذا يقول: ولكنَّ المفسرين لم يألوا في تفسير الكلمات والخطب في تعيينها، فقال بعضهم: إنَّها مناسك الحجّ،...

ومع هذه الإشارة، نذكر التلخيص التالي عن المراد من النسك أو معانيه: فمما لا ريب فيه عندهم أنَّ النسك يتضمن العبادة والطاعة، بل حقيقته العبادة، ومنه يسمى العابد الناسك، مع توفّر نية التقرب إلى الله تعالى، والآية ١٦٢ من سورة الأنعام في هذا واضحة إذ تقول: وسيأتي الكلام عنها. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ومع ذلك، فإنَّ النسك وجمعه مناسك، كما تحدّثوا، جاءت بمعانٍ عديدة، فهي تأتي بمعنى: الدين.. العبادة مطلقاً.. المتعبّد.. تعبداتنا.. الذبائح التي يُتقرب بها إلى الله تعالى، أو الموضع الذي تقدّم فيه الذبائح قربةً إلى الله تعالى.. شعائر الحجّ، ومنها: الأماكن التي تؤدّى فيها شعائر الحجّ. كالصفا والمروة، وهما من شعائر الله بنصّ القرآن: سورة البقرة: ١٥٨ ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^١.

١. انظر في هذا كلّهُ الطبري (ت ٣١٠هـ) في جامع البيان في تفسير القرآن؛ وابن الأثير في تاج العروس للزبيدي ١٣: ٦٥٨؛ لسان العرب لابن منظور ١٠: ٤٩٩؛ ومفردات القرآن للراغب: ٤٩٠-٤٩١؛ تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) الآية ١٢٨ البقرة؛ تفسير القرآن، ابن عبد السلام (ت ٦٦٠هـ)؛ الصافي في تفسير كلام الله الوافي للفيض الكاشاني



وهذه الخلاصة تدعو إلى تتبع مفردة النسك ومشتقاتها في مصادرها اللغوية والتفسيرية والحديثية، وما ورد عن أهل اللغة لا يتعد كثيراً عما ذكره أهل التفسير والحديث.

النسك لغةً وأنواعه:

نَسَكَ فلانٌ يَنْسِكُ نِسْكَاً وَنُسْكَاً وَنُسْكَاً؛ وَنَسَكَةً، وَنَسِكَاً وَمَنْسُكاً وَمَنْسُكاً: تَزَهَّدَ وَتَعَبَّدَ.
(نَسَكَ) نُسْكَاً، وَنَسَاكَةً: صَارَ نَاسِكاً. (انْتَسَكَ): تَزَهَّدَ وَتَعَبَّدَ. (تَنْسَكَ): انْتَسَكَ.
(النَّاسِكُ): الْمُتَعَبِّدُ الْمُتَزَهِّدُ. (ج) نُسَاكٌ.. (النَّاسِكَةُ): الْمُتَعَبِّدَةُ..

(الْمَنْسِكُ): طَرِيقَةُ الزُّهْدِ وَالتَّعَبُّدِ. يُقَالُ: إِنَّ لَهُ مَنْسِكاً وَمَنْسِكاً يَنْسِكُهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: سُورَةُ الْحَجِّ؛ الْآيَاتَانِ: ٦٧، ٣٤ وَسَنَقَفَ عِنْدَهُمَا.

وَالْمَنْسِكُ وَالْمَنْسِكُ، «مَنْسُكاً» مَرَّةً تَأْتِي بِفَتْحِ السِّينِ عَلَى أَنَّهَا مَصْدَرٌ مِيمِي. وَأُخْرَى تَأْتِي بِكَسْرِ السِّينِ عَلَى أَنَّهَا اسْمُ مَكَانٍ، فَهُوَ عَلَى هَذَا مَوْضِعٌ تُذْبِحُ فِيهِ النَّسِيكَةُ. (ج) مَنَاسِكٌ.

و(مَنَاسِكُ الْحَجِّ): عِبَادَتُهُ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَادْخُلُوا اللَّهَ...﴾. سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ٢٠٠.

(النُّسُكُ): كُلُّ حَقٍّ لِلَّهِ تَعَالَى. وَالدَّيْبِيحَةُ يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ. وَالنَّسِكُ بضمين: اسمٌ مِنْهُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾. وَذَبْحُ ذَبِيحَةٍ تَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ.

(ج) نُسُكٌ، وَنَسَائِكٌ. وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. سُورَةُ الْبَقَرَةِ: ١٩٦.

ابن منظور: نَسَكَ: النُّسُكُ وَالنُّسُكُ: الْعِبَادَةُ وَالطَّاعَةُ، وَكُلُّ مَا تُقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ

(ت ١٠٩٠ هـ)؛ تفسير البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجبية (ت ١٢٢٤ هـ)؛ تفسير روح المعاني، الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ)؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي؛ الكشاف للزمخشري؛ الآية: ١٢٤ البقرة؛ تفسير مكِّي، مكِّي بن أبي طالب (٤٣٧ هـ)؛ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤ هـ)...



تَعَالَى، وَقِيلَ لِثَعْلَبٍ: هَلْ يُسَمَّى الصَّوْمُ نُسْكَاً؟ فَقَالَ: كُلُّ حَقٍّ لَهِ عَزَّ وَجَلَّ يُسَمَّى نُسْكَاً .

نَسَكَ لَهِ تَعَالَى يُنْسِكُ نُسْكَاً وَنُسْكَاً وَنُسْكَ، الصَّمُّ عَنِ اللِّحْيَانِيّ، ...

وَرَجُلٌ نَاسِكٌ: عَابِدٌ. وَقَدْ نَسَكَ وَتَنَسَكَ أَي تَعَبَّدَ. وَنُسْكَ، بِالضَّمِّ، نَسَاكَةٌ أَي صَارَ نَاسِكًا، وَالْجَمْعُ نَسَاكٌ.

وَالْمَنَسَكَ وَالْمَنَسِكَ: الْمَذْبُوحُ. وَقَدْ نَسَكَ يُنْسِكُ نُسْكَاً إِذَا ذَبَحَ ... وَالنُّسْكَ وَالنَّسِيكَةَ: الذَّبِيحَةَ، وَقِيلَ: النُّسْكَ: الدَّمُ، وَالنَّسِيكَةُ: الذَّبِيحَةُ، تَقُولُ: مَنْ فَعَلَ كَذَا وَكَذَا، فَعَلِيهِ نُسْكَ أَي دَمٌ يَهْرِيْقُهُ بِمَكَّةَ، شَرَّفَهَا اللهُ تَعَالَى، وَأَسْمُ تِلْكَ الذَّبِيحَةِ النَّسِيكَةَ، وَالْجَمْعُ نُسْكَ وَنَسَائِكٌ. وَالنُّسْكَ: مَا أَمَرْتَ بِهِ الشَّرِيعَةُ، وَالْوَرَعُ: مَا نَهَتْ عَنْهُ.

وَقِيلَ: الْمَنَسَكَ النَّسْكَ نَفْسُهُ. وَالْمَنَسِكَ: الْمَوْضِعُ الَّذِي تُذْبَحُ فِيهِ النَّسِيكَةُ وَالنَّسَائِكُ. النَّصْرُ: نَسَكَ الرَّجُلُ إِلَى طَرِيقَةٍ جَمِيلَةٍ أَي دَاوَمَ عَلَيْهَا. وَيُنْسِكُونَ الْبَيْتَ: يَأْتُونَهُ.

وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: قَرَأَ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾. وَمَنْسِكًا، قَالَ: وَالنَّسْكَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَدُلُّ عَلَى مَعْنَى النَّحْرِ؛ كَأَنَّهُ قَالَ: جَعَلْنَا لِكُلِّ أُمَّةٍ أَنْ تَقْرَبَ بِأَنْ تَذْبَحَ الذَّبَائِحَ لَهِ، فَمَنْ قَالَ: مَنْسِكَ فَمَعْنَاهُ مَكَانُ نُسْكَ مِثْلَ مَجْلِسِ مَكَانٍ جُلُوسٍ، وَمَنْ قَالَ: مَنْسِكَ فَمَعْنَاهُ الْمَصْدَرُ نَحْوَ النَّسْكَ وَالنُّسُوكِ.

غَيْرُهُ: وَالْمَنَسَكَ وَالْمَنَسِكَ الْمَوْضِعُ الَّذِي تُذْبَحُ فِيهِ النَّسْكَ، وَقَرَأَ بِهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

وَقَالَ الْفَرَّاءُ: الْمَنَسَكَ وَالْمَنَسِكَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ: الْمَوْضِعُ الْمَعْتَادُ الَّذِي تَعْتَادُهُ. وَيُقَالُ: إِنَّ لِفُلَانٍ مَنْسِكًا يَعْتَادُهُ فِي خَيْرٍ كَانَ أَوْ غَيْرِهِ، وَبِهِ سُمِّيَتْ الْمَنَاسِكُ.

ابْنُ الْأَثِيرِ: قَدْ تَكَرَّرَ ذِكْرُ الْمَنَاسِكِ وَالنُّسْكَ وَالنَّسِيكَةِ فِي الْحَدِيثِ، فَالْمَنَاسِكُ جَمْعُ مَنْسِكَ وَمَنْسِكَ، بَقَعَتِ السُّنِينُ وَكَسَرَهَا، وَهُوَ الْمَتَعَبَّدُ وَيَقَعُ عَلَى الْمَصْدَرِ وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، ثُمَّ سُمِّيَتْ أُمُورُ الْحَجِّ كُلُّهَا مَنَاسِكًا.



الراغب: نسك: النسك العبادة والناسك العابد، واختصّ بأعمال الحجّ، والمناسك
مواقف النسك وأعمالها، والنسيكة مختصة بالذبيحة، قال: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ
صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكِ﴾. سورة البقرة: ١٩٦ .

- ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ...﴾. سورة البقرة: ٢٠٠ .

- ﴿مَنَسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾.

والمَنَسَكُ والمَنَسِكُ: شُرْعَةُ النَّسْكِ. وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...﴾. أي
مُتَعَبِّدَاتِنَا... وَقِيلَ: المَنَسَكُ النَّسْكِ نَفْسُهُ.

والمَنَسِكُ: مَا أَمَرَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ، وَالْوَرَعُ: مَا نَهَتْ عَنْهُ.

ولعلها كناية ما أجملها للناسك!

تلك التي نجدها في كلام ذكره بعض أهل اللغة في معاني هذه المفردة (نسك،
النسك، المناسك) والتي لا تخلو من جمال وجلال، تصلح أن تكون كناية عن تخلص
النفس مما لحق بها من أدران وتصفيتها وتطهيرها، وهو قولهم: إِنَّ أَصْلَ النَّسْكِ فِي اللَّعَةِ
الْعَسَلُ يُقَالُ مِنْهُ نَسَكَ ثَوْبُهُ إِذَا عَسَلَهُ، وَالثَّوْبَ وَنَحْوَهُ نَسَكًا: غَسَلَهُ بِالْمَاءِ فَطَهَّرَهُ.
وَالأَرْضُ: طَيَّبَهَا وَسَمَّدهَا. وَالْبَيْتُ: أَتَاهُ، نَسَكَ الرَّجُلُ إِلَى طَرِيقَةٍ جَمِيلَةٍ أَي دَاوَمَ عَلَيْهَا،
وَأَجْمَلَهَا أَنَّهُمْ يَنْسُكُونَ الْبَيْتَ أَي يَأْتُونَهُ...

وَنَسَكَ الثَّوْبَ: غَسَلَهُ بِالْمَاءِ وَطَهَّرَهُ، فَهُوَ مَنَسُوكٌ؛ وَقَدْ أُنشِدَ فِيهِ بَيْتٌ شِعْرٌ:

وَلَا يَنْبُتُ الْمَرْعَى سِبَاخُ عُرَاعِرٍ وَلَوْ نُسِكتَ بِالْمَاءِ سِتَّةَ أَشْهُرٍ

وَأَرْضُ نَاسِكَةٍ: خَضْرَاءٌ حَدِيثَةُ الْمَطَرِ، فَاعِلَةٌ بِمَعْنَى مُفْعُولَةٍ.

ابْنُ الأَعْرَابِيِّ: النَّسْكِ سَبَائِكُ الْفِضَّةِ؛ كُلُّ سَبِيكَةٍ مِنْهَا نَسِيكَةٌ، وَقِيلَ لِلْمُتَعَبِّدِ نَاسِكٌ؛
لأنه خَلَصَ نَفْسَهُ وَصَفَّاهَا لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ دَنَسِ الأَثَامِ كَالسَّبِيكَةِ الْمُخَلَّصَةِ مِنَ الْحَبْثِ.

وكذا قال ثعلب لما سُئِلَ عَنِ النَّسْكِ، أَوْ عَنِ النَّاسِكِ مَا هُوَ؟



فَقَالَ: هُوَ مَاخُودٌ مِنَ النَّسِيكَةِ، وَهُوَ سَبِيكَةُ الْفِضَّةِ الْمَصْفَاةِ كَأَنَّهُ خَلَّصَ نَفْسَهُ
وَصَفَّاهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

وفي قول عنه: النَّسِيكُ: الذَّهَبُ، وَالنَّسِيكُ: الْفِضَّةُ. وَالنَّسِيكَةُ: الْقِطْعَةُ الْغَلِيظَةُ مِنْهُ.
وبما أنَّ النِّسْكَ هو أصلُ العبادة، وبأنَّ المتعبِّد ناسِكٌ؛ لأنَّه خَلَّصَ نَفْسَهُ وَصَفَّاهَا
لِلَّهِ تَعَالَى مِنْ دَنْسِ الْأَثَامِ كَالسَّبِيكَةِ الْمُخَلَّصَةِ مِنَ الْحَبْثِ. وَأَنَّ أصلَ النِّسْكَ هو الغسل
والتطهير والتطيب... كما صرَّح به من قِبَلِ أَهْلِ اللُّغَةِ وَالتَّفْسِيرِ، يُمْكِنُ أَنْ يَتَضَحَّ أَنَّ
تسمية أعمال الحجِّ وشعائره بالمناسك، له هذه المناقبة الرائعة والصفات الجميلة والتي
تتضمن منافع هذه الفريضة المباركة سواء أكانت روحية أو أخلاقية أو مادية... وكما
ذكر النَّصْرِيُّ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ: نَسَكَ الرَّجُلُ إِلَى طَرِيقَةٍ جَمِيلَةٍ أَي دَاوَمَ عَلَيْهَا...

فما أجملها طريقةً؛ مناسك الحجِّ وشعائره، ورؤية الحجاجِ مُحْرَمِينَ مَلْبِينِ يَتَبَوَّغُونَ
فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَتَطْهِيرًا وَمَغْفِرَةً وَرِضْوَانًا!

ولعلَّ لهذا والله أعلم، سميت بالمناسك، وهي مفردة جميلة وصفت بها في الأعم
الأغلب منظومة الحجِّ والعمرة دون غيرها من العبادات الأخرى؛ واجبة ومستحبة
وهي كثيرة..!

ونختم هذا بما نُسب إلى أبي العلاء المعري من أنَّ النِّسْكَ عنده هو الدين، وأنَّ الحَقَّ
منه ما كان عن يسر في صحة واقتدار، يقول:

الدين هجر الفتى اللذات عن يسر في صحة واقتدار منه ما عمرا
وله أيضاً:

ففوزوا بنسك في الحياة وثبتوا لأقدامكم في الأرض قبل انهيارها
ويأمر بالارتياح إلى النسك وأصحابه، فيقول:

إلى النسك ارتح وأصحابه إذا فاتك القوم لم يرتح



ويرى أنَّ النسك والمرء في شبابه، أما بعد الأربعين فالتنسك ضرورة، يقول من الطويل:

تَسَّكَتَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ ضُرُورَةً وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ تَقُومَ الصَّوَارِخُ
فَكَيْفَ تُرَجِّي أَنْ تُثَابَ وَإِنَّمَا يَرَى النَّاسُ فَضْلَ النَّسْكِ وَالْمَرْءُ شَارِحُ^١

مع التفسير:

لنقف عند الآيات التي توفرت على مفردة النسك والتي جاءت كما ذكرنا سبع مرّات في ستّ آيات قرآنية مباركة، وحسب الترتيب القرآني للسور إعراباً ولغةً وقراءةً وبياناً.. بدءاً بالآيتين:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْنَهُمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *﴾. سورة البقرة: ١٢٨-١٢٩.

بدءاً نقول: يشكّل الدعاء في المشروع الإبراهيمي الركيزة الأعظم في إظهار جوهر العلاقة بين العبد وربّه، وفي انشداد الإنسان لمبدعه؛ وفي بيان الصلة الوثيقة بين الخالق والمخلوق؛ وفي انكشاف قوة الأول وضعف الثاني، غناء الأول وفقر الثاني، اكتفاء الأول وحاجة الثاني... والدعاء شكّل المنهج القويم الثابت والنافع والمثمر لدعوة الأنبياء وحركتهم وبالذات لإبراهيم عليه السلام؛ هداية الناس إلى خالقهم، وإبعادهم عن

١. المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وجماعته: ٩١٩؛ القاموس الفقهي لغةً واصطلاحاً، سعدي أبو الجيب: ٣٥٢، نَسَكَ؛ لسان العرب لابن منظور ١٠: ٤٩٨-٤٩٠؛ النهاية لابن الأثير ٥: ٤٥؛ أنيس الفقهاء: ١٤٤؛ تاج العروس، الزبيدي نَسَكَ ١٣: ٦٥٨؛ مفردات الراغب: نَسَكَ؛ معجم ألفاظ الفقه الجعفري، الدكتور أحمد فتح الله: ٤٢٥؛ النسك؛ ديوان أبي العلاء المعري: الشارح: الشباب؛ رأي في أبي العلاء؛ الرجل الذي وجد نفسه، أمين الخولي: ٣٤.



سبل الضلال وتيه الانحراف عن الصراط المستقيم... كما أن أدعية إبراهيم تحمل أهداف دعوته، والمنهج الذي سلكه في مشروعه التوحيدي المبارك، وبالذات في فريضة الحج وكذا العمرة بناءً للبيت وتعريفًا بمناسك زيارته والتي لم تخلو من الاستعانة بالله تعالى على تحقيقها... لقد كان نبيُّ الله وخليله إبراهيم عليه السلام دائم الدعاء والتضرع لربه، وكان لابنه نبيِّ الله إسماعيل عليه السلام حصة مهمّة، يشارك فيها أباه في بعض ذلك، فكانا معاً في دعائهما وفي ابتهاهما وتضرعهما، كما في الآيتين المذكورتين، وقد جاءتا ضمن مقطع قرآني متوفّر على بعض الأدعية الإبراهيمية، بعد الذكر المبارك للبيت الحرام:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾.

ولعلّ الجمع في الكلام بينهما؛ لما تحكياه من أهميّة للمناسك، ودور كلّ من إبراهيم عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله في إراءتها للناس (إبراهيم عليه السلام في الآية الأولى ورسول الله صلى الله عليه وآله في الثانية، كما يأتينا).

ولأنّ ما توفّرنا عليه من الدعاء مع انضمامه إلى باقي الأدعية في آيات أخر، تشكّل بمجموعها ذكراً جليلاً للحركة التوحيدية لنبيِّ الله إبراهيم عليه السلام، ولاستعانتها الدائمة بالله تعالى على مقارعة الشرك واجتثاث معالمه وآثاره، تمهيداً لبناء المشروع التوحيدي الإيماني والعملي في الناس... فضلاً عن أنها قد واكبت سيرته العطرة، وراحت تحكي لنا مناقبه وجهوده التي لا تنفك عن قدرة السماء وإرادتها في أربع آيات وهي:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

والمعطوف عليه هو ذلك الدعاء المشترك بين إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ



السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

وفيها إسماعيل معطوف على إبراهيم، لاشتراكهما في الدعاء، بعد أن كانا مشتركين في رفع القواعد؛ فإبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة أو أنهما رفعوا القواعد معاً... وكأنهما يقولان: لقد أمرتنا يارب أن نرفع القواعد من البيت، وهما نحن قد فعلنا ما أمرتنا، وأنجزنا هذه الخطوة من مشروع السماء المبارك، فتقبل منا! ولم يكتفيا بهذا، بل راحا سوية يدعو الله تعالى؛ يطلبان أربعة أمور تضمنتها الآية الأولى:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. سورة البقرة: ١٢٨.

كان المطلب الثالث هو: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾.

هذه الآية تُعدُّ واحدةً من آيات في مقطع قرآني مبارك يتوفَّر على أدعيةٍ لنبين؛ الأب إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام، تسبقها أدعية مباركة وتلحقها، ولا غرابة في هذا فالدعاء هنا يمثل طلبها الخامس فقد تجسَّد عظيمًا وواضحاً حين لم يتوقفا بدعائهما ذلك ولم يكتفيا به، بل عقباه بالدعاء لهذه الأمة المسلمة المنبثقة من ذريتهما بالهداية وعلى يدي رسول منها لا من غيرها؛ ليكون خاتم الحركة التوحيدية لإبراهيم ولجميع الأنبياء والرسل عليهم السلام من قبل إبراهيم عليه السلام ومن بعده، قائلين: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وقد تتضح المناسبة بين هاتين الآيتين، حين نعرف أن إبراهيم وإسماعيل تعلمنا مناسك الحج مباشرةً، فيما تعلمتها ذريتهما من بعدهما بواسطة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. ولعلَّ هذه خلاصة ما ذكره البقاعي في تفسيره:

... ولما كان المسلم مضطراً إلى العلم قال: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ وفي ذلك ظهور



حيث لا واسطة هناك بين الربّ والعباد...

ثمّ يقول: ولما طلب ما هو له في منصب النبوة من تعليم الله له المناسك بغير واسطة، طلب لذريته مثل ذلك بواسطة من جرت العادة به لأمثالهم، فقال: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ﴾. أي الأمة المسلمة التي من ذريتي وذرية ابني إسماعيل ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ ليكون أرفق بهم وأشفق عليهم، ويكونوا هم أجدر باتباعه والترامي في نصره، وذلك الرسول هو محمد ﷺ، فإنه لم يبعث من ذريتهما بالكتاب غيره، فهو دعوة إبراهيم عليه السلام أبي العرب وأكرم ذريته...

فهذه أدعية ثلاثة في المقطع المذكور، اشترك فيها كل من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهي:

﴿...رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ...﴾.

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ...﴾.

وهما يكرران نداء هما الخالي من أداة البعد أي حرف النداء (يا) واكتفا بقولهما ﴿رَبَّنَا﴾ وعن فائدة تكرير النداء في هذه الآيات، يقول ابن عاشور: إظهار الضراعة إلى الله تعالى، وإظهار أن كل دعوى من هاته الدعوات مقصودة بالذات، ولذلك لم يكرر النداء إلا عند الانتقال من دعوة إلى أخرى، فإن الدعوة الأولى لطلب تقبل العمل، والثانية لطلب الاهتداء، فجملة النداء معترضة بين المعطوف هنا والمعطوف عليه في قوله الآتي:

﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً...﴾. سورة البقرة: ١٢٩.

يقول الرازي: اعلم أن هذا هو النوع الرابع من الأمور التي حكاها الله تعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهو أنهما عند بناء البيت ذكرا ثلاثة من الدعاء...^١

١. تفسير نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي (ت ٨٨٥ هـ): الآيتان؛ التحرير والتنوير

لابن عاشور؛ مفاتيح الغيب للرازي، الآيات.



ولعلَّ بين هذه الأدعية أيضاً ترابطاً وفوائد... منها أن المناسك التي أردا من الله تعالى أن يُريها لهما تتعلّق بالبيت المبارك الذي قاما برفع قواعده فتهيئته، فكانا شريكين في بناء البيت وفي الدعاء... ثمَّ في تطهيره كما في الآيتين: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. سورة الحج: ٢٦. ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. سورة البقرة: ١٢٥.

من أن تلوثه أيدي الشرك وعبادة الأوثان؛ تمهيداً لأداء هذه المناسك، وإعداداً لمشاعر الحجِّ والعمرة، فهو ميدانها الأصيل لكلِّ من يريد أن يكون في دائرة أولئك الذين لبَّوا نداء إبراهيم عليه السلام المتمثل في سورة الحج: ٢٧. ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾.

ليكون من قاصدي البيت حاجاً أو معتمراً فيطوف به، ويسعى بين الصفا والمروة... وبالتالي يلج في دائرة الطائفين والقائمين والعاكفين والركع السجود...

ثمَّ إنهما بعد أن دعوا الله سبحانه: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ...﴾. دَعَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ...﴾، وسيأتي الكلام عنها.

هذا، ولا بدَّ من الإشارة إلى أن هذه الآية المباركة في سورة البقرة جاءت ضمن مقطع قرآني كريم (الآيات: ١٢٤-١٢٩)، بدءاً بتأسيس الإمامة الإبراهيمية، بعد أن اجتاز نبيَّ الله إبراهيم عليه السلام جميع الابتلاءات، وحقق فوزاً عظيماً يُرضي السماء، فما أعظمه من برهان على منزلته عند ربِّه، ورضا الله عزَّ وجلَّ عنه! حتى منحه هذا الوسام الكبير، والفضل الجليل، ألا وهو الإمامة كما جاءت بذلك هذه الآية المباركة: ١٢٤ ﴿وَإِذْ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ!﴾



إِلَّا أَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ولمعرفته بجلالة هذه الدرجة التي منحتها له السماء، ولعظمتها في عينه، تمنى أن لا تبقى عليه فقط، وأن لا تقف عنده، وأن لا تختص به دون غيره من ذريته، بل أن يحظى أولاده وأحفاده بهذا العطاء الطيب، وهم يشكّلون امتداده الطبيعي، فلا يتعدون عن دائرتها، بل أن يكونوا جزءاً فاعلاً فيها؛ ولهم نصيب منها، فرجع يديه راجياً متمنياً متوسلاً: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾.

فاستجابت السماء ذلك منه، لكن ليس على إطلاق حتى جزء الذرية هذا، أو عموم هذه البعضية من الذرية، دون أن تقيدها بالصالحين وتخصصها بالمتقين من نسله عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذين هم الأعظم اتباعاً لشرعه، والأكثر اقتفاءً لآثاره، والأصدق التزاماً بعهد الإمامة، وتُبعد الظالمين عنها، فلا ينالون شيئاً من العهد المبارك هذا؛ لأنهم ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين، فلا مجال لهم ولا مكان في عهد الإمامة الإبراهيمية، طرداً للظلم بكل أشكاله وإبعاداً لجميع أتباعه ومريديه...

وبمثل هذا ما قرره سيد قطب بقوله أن: الظلم أنواع وألوان: ظلم النفس بالشرك، وظلم الناس بالبغي... والإمامة الممنوعة على الظالمين تشمل كل معاني الإمامة: إمامة الرسالة، وإمامة الخلافة، وإمامة الصلاة... وكل معنى من معاني الإمامة والقيادة. فالعدل بكل معانيه هو أساس استحقاق هذه الإمامة في أية صورة من صورها. ومن ظلم أي لون من الظلم فقد جرّد نفسه من حق الإمامة، وأسقط حقه فيها بكل معنى من معانيها...^١

إنَّ أدب الدعاء لإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد آية الإمامة وبيانها وإيجابتها، بل ورفضها الصريح المتمثل بقولها: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾. سورة البقرة: ١٢٤ يتجلّى أيضاً بعد ثلاث آيات أي في الآية: ١٢٨ ﴿... وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا...﴾، وحدّد في دعائه مع ابنه إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أمنيتهما صريحة أن تكون ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...﴾، ولكن لبعض ذريتها!

١. في ظلال القرآن: الآية .



وهذا هو أدبه الذي صار منهجه حتى في دعائه الآخر: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾؛ سورة إبراهيم: ٤٠ .

ولعلها أيضاً كانا عليهما السلام ملتفتين إلى أن الدعاء لجميع ذريتهما وللأمة المنبثقة منها، ليس فيه رعاية للأدب مع الله عز وجل؛ لأنها أمة ستكون كثيرة وواسعة، وبحسب سنته تعالى في خلقه، منها أناس محسنون وفي قباهم ظالمون، ومنها أناس مهتدون وآخرون فاسقون: ﴿وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾، سورة الصافات: ١١٣. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا التُّبُوءَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُّهُتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾، سورة الحديد: ٢٦ .

فلم يخالف سنة الله تعالى في خلقه، فكان سؤالها لهما جميعاً، بل للبعض منها بالهداية للإسلام ولعرفة المناسك التي نسبها لأنفسهما ﴿مَنَاسِكَنَا﴾،

وقد عرفها واعتزّز بها وحرصاً عليها، وإلا فهي مناسكها تعالى لعباده، أحبّ وارتضى أن يُعبد من خلالها!.. وأتمّها تُشكّل خير منظومة عبادية ترقى بالأرواح وتطهر النفوس، وتجعلها أعظم انشداداً لخالقها، والتزاماً بشرائعها، وبالتالي وجداً فيها كلّ خير في الدنيا والآخرة، فتمنّاها إبراهيم لأُمَّته كما تمنّى لها الإمامة، وهذه سيرته عليه السلام؛ ما إن تمنّى عليه السماء بعباءٍ وخير وفضل إلاّ وأحبّه ورجاه لبعض ذريته، وصارت سنةً مُّتبعةً في عقبه، ولا غرابة في هذا وهو صاحب الوصية الكبرى لهم، فما أن نال نعمة الإسلام حتى اتجهت أنظاره إلى ذريته يُوصيهم بها: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُّسْلِمُونَ﴾. سورة البقرة: ١٣٢ - ١٣٣ .

نلاحظ هذا الأدب الإبراهيمي في كلام ابن عاشور حين يقول:.. وإنما سألاً ذلك لبعض الذرية جمعاً بين الحرص على حصول الفضيلة للذرية وبين الأدب في الدعاء؛ لأنّ نبوءة إبراهيم تقتضي علمه بأنه ستكون ذريته أمماً كثيرةً، وأنّ حكمة الله في هذا



العالم جرت على أنه لا يخلو من اشتماله على الأخيار والأشرار، فدعا الله بالممكن عادةً، وهذا من أدب الدعاء، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾. سورة البقرة: ١٢٤.

وظلّت هذه الفقرة من الآية موضع استدلالهم في الآية التالية لها، والتي فيها: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾.

وهذا يعني أنّ آية الإمامة لإبراهيم عليه السلام قد نزلت قبل دعائها هذا الذي فيه تخصيص لبعض ذريتها أن يجعل الله سبحانه منها ﴿أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾. كما أنّ بعض مفردات آية الإمامة هذه كالاتيلاء والكلمات والإمامة استفاد منها بعضهم في مسألة مفردة المناسك... وهذا كلّه سنلاحظه في الآية الأولى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾، سورة البقرة: ١٢٨؛ التي نقف عندها إعراباً وقراءةً ولغةً وتفسيراً:

الإعراب:

﴿رَبَّنَا﴾، منادى مضاف محذوف منه حرف النداء، ولا بدّ من تقدير قول محذوف؛ أي يقولان: ربّنا، ويكثر حذف الحال إذا كان قولاً أغنى عنه المقول.

﴿وَاجْعَلْنَا﴾: عطف على ما تقدّم.

﴿مُسْلِمِينَ﴾: مفعول به ثان.

يقول السمين الحلبي: ﴿مُسْلِمِينَ﴾، مفعول ثان للجعل؛ لأنّه بمعنى التصيير، والمفعول الأول هو «نا».

﴿لَكَ﴾: الجار والمجرور متعلقان بمحذوف نعت مسلمين.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾، الواو عاطفة والجار والمجرور متعلقان بمحذوف دلّ عليه المذكور؛

أي واجعل من ذريتنا.



﴿أُمَّةٌ﴾ مفعول به أول للفعل المحذوف، ومن ذريتنا هو المفعول الثاني.

﴿مُسْلِمَةً﴾: نعت.

﴿لَكَ﴾: نعت ثان لأُمَّة.

﴿وَأَرْنَا﴾ الواو عاطفة، وأر فعل أمر مبني على حذف حرف العلة، والفاعل ضمير

مستتر تقديره أنت، ونا ضمير متصل في محل نصب مفعول به أول.

﴿مَنَاسِكِنَا﴾: مفعول به ثان.

﴿وَوُثِّبَ عَلَيْنَا﴾: عطف أيضاً.

﴿إِنَّكَ﴾: إن واسمها.

﴿أَنْتَ﴾: ضمير منفصل في محل رفع مبتدأ.

﴿التَّوَابُ﴾: خبر أول.

﴿الرَّحِيمُ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية خبر إن، ولك أن تعرب الضمير ضمير

فصل لا محل له من الإعراب. والتوابع الرحيم: خبران لأن، ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ

لَكَ...﴾، يفيد الحصر أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، تمنياً أن تكون هناك أُمَّة ترث

ما هما عليه من الإسلام والمناسك...

القراءة:

أبو حيان: ... وقراءة عبد الله: وأرهم مناسكهم وتب عليهم. واحتمال أن يكون:

وأرنا مناسكنا على حذف مضاف، أي وأر ذريتنا مناسكنا... ثم يقول: ... دعوا بأن

يجعلها مسلمين ومن ذريتها أُمَّة مسلمة، وبأن يريها مناسكها، وبأن يتوب عليها...

وعن ﴿مُسْلِمِينَ﴾ في دعائها ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾: مفعول به ثان لـ

«اجعلنا». يقول السمين الحلبي: قوله ﴿لَكَ﴾ فيه وجهان، أحدهما: أن يتعلّق بمُسْلِمِينَ،



لأنه بمعنى نُخْلِصُ لك أوجهنا نحو: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾، فيكون المفعول محذوفاً لفهم المعنى. والثاني: أنه نعتٌ لمُسْلِمِينَ، أي: مُسْلِمِينَ مستقرِّين لك أي: مستسلمين، والأول أقوى معنى.

أما القراءة فقد قرىء ﴿مُسْلِمِينَ﴾ على الجمع، كأنها أرادت أنفسهما وهاجر، أو أجريا التثنية على حكم الجمع لأنها منه. هذا ما ذكره الزمخشري في تفسيره للآية.

الشيخ الطوسي: روي في الشواذ عن عوف بن الاعرابي أنه قرأ (مسلمين) على الجمع.

قرأ ابن عباس «مسلمين»، بصيغة الجمع، وفي ذلك والكلام للسلمين الحلبي تأويلان أحدهما: أنها أجرى التثنية مجرى الجمع، وبه استدلل من يجعل التثنية جمعاً. والثاني: أنها أرادت أنفسهما وأهلها كهاجر.

يقول الطبري: وهذا أيضاً خبر من الله تعالى ذكره عن إبراهيم وإسماعيل أنهما كانا يرفعان القواعد من البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾، يعنيان بذلك: واجعلنا مستسلمين لأمرك خاضعين لطاعتك، لا نُشْرِكُ معك في الطاعة أحداً سواك، ولا في العبادة غيرك... معنى الإسلام الخضوع لله بالطاعة.

الشيخ الطوسي: ... وإنما سألا الله تعالى أن يجعلهما مسلمين بمعنى: أن يفعل لهما من الألفاظ ما يتمسكان معه بالإسلام في مستقبل عمرهما؛ لأن الإسلام كان حاصلاً في وقت دعائهما، ويجري ذلك مجرى أحدنا، إذا أدب ولده وعرضه لذلك حتى صار أديباً، جاز أن يقال: جعل ولده أديباً. وعكس ذلك إذا عرضه للبلاء والفساد، وجاز أن يقال: جعله ظالماً محتالاً فاسداً. ويجوز أن يكونا قالوا ذلك تعبداً كما قال تعالى: ﴿رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾، سورة الأنبياء: ١١٢.

ويقول البيضاوي: مخلصين لك، من أسلم وجهه، أو مستسلمين من أسلم إذا استسلم وانقاد، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان، أو الثبات عليه.



﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾. وعن إضافة الذرية إليها، يقول محمدرشيد رضا: أضافا الذرية إلى ضمير الاثنين، للدلالة على أن المراد الذرية التي تنسب إليهما معاً، وهي ما يكون من ولد إسماعيل، اللفظ ظاهر في هذا المعنى،...

من التبعية:

وهي التي يمكن حذفها ووضع (بعض) مكانها، وهنا وإن جوّز بعضهم أنها للتبيين، لكن القول إنّها للتبعية يبقى القول الأرجح. وقد خصّ إبراهيم عليه السلام بعضهم ولم يُعمّم؛ لأنه تعالى سبق وأن أعلمه أنّ في ذريته الظالمين؛ الظالم لنفسه والظالم لغيره في قوله: في آية الإمامة: ١٢٤ سورة البقرة، ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ...﴾.

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ...﴾، يفيد الحصر أي نكون مسلمين لك لا لغيرك، تمّنياً أن تكون هناك أمة ترث ما هما عليه من الإسلام والمناسك...

أبو حيان: ... وقراءة عبد الله: وأرهم مناسكهم وتب عليهم. واحتمال أن يكون: وأرنا مناسكنا على حذف مضاف، أي وأر ذريتنا مناسكنا... ثم يقول: ... دعوا بأن يجعلهما مسلمين ومن ذريتهما أمة مسلمة، وبأن يريهما مناسكهما، وبأن يتوب عليهما... أن يبعث في هذه الأمة، والتي سيكون وجودها بعد قرون وأجيال في مكة المكرمة وما حولها، من يواصل مسيرتها تلك، ويرفع عنها ما قد يُصيّبها من تحريف واعتداء وتضييع، ويُعلمها دينها وشرائعها، والتي منها المناسك العبادية لبيتها العتيق الذي هم بقربه وحوله وهو بينهم؛ ليحجّوه على علم ومعرفة، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله الذي لم يُبعث سواه في مكة المكرمة، استجابةً لدعائها.

فهذا الشيخ الطبري في تفسيره يقول: فإنها خصّصاً بذلك بعض الذرية؛ لأن الله تعالى ذكره قد كان أعلم إبراهيم خليله عليه السلام قبل مسألته هذه أنّ من ذريته من لا ينال عهده ظلّمه وفجوره... ويقصد الطبري ما جاء في الآية: ١٢٤ من سورة البقرة.



ويواصل قائلاً: فخصاً بالدعوة بعض ذريتهما. وقد قيل: إنها عنيا بذلك العرب، فعن السدي: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾ يعينان العرب.

ويرد الطبري هذا بقوله: وهذا قول يدل ظاهر الكتاب على خلافه؛ لأن ظاهره يدل على أنها دعوا الله أن يجعل من ذريتهما أهل طاعته وولايته والمستجيبين لأمره، وقد كان في ولد إبراهيم العرب وغير العرب، والمستجيب لأمر الله والخاضع له بالطاعة من الفريقين، فلا وجه لقول من قال: عنى إبراهيم بدعائه ذلك فريقاً من ولده بأعيانهم دون غيرهم إلا التحكم الذي لا يعجز عنه أحد. وأما الأمة في هذا الموضوع، فإنه يعني بها الجماعة من الناس، من قول الله: ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ يُهْدُونَ بِأَلْحَقِّ﴾، سورة الأعراف: ١٥٦.

الشيخ الطوسي: وإنما خصاً بالدعوة بعض الذرية في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾ لأن (من) للتبويض من حيث أن الله تعالى: كان أعلمه أن في ذريتهما من لا ينال العهد؛ لكونه ظالماً.

وقال السدي: إنها عنيا بذلك العرب. والأول هو الصحيح. وهو قول أكثر المفسرين.

وحسب ما ذكر القرطبي: أنه لم يدع نبي إلا لنفسه ولأئمه إلا إبراهيم، فإنه دعا مع دعائه لنفسه ولأئمه وهذه الأمة... و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا﴾، للتبويض؛ لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين. والمسلم هو الذي استسلم لأمر الله وخضع له، وهو في الدين القابل لأوامر الله سرّاً وجهراً...

وللرازي في تفسير الآية: واجعل من أولادنا، و(من) للتبويض وخص بعضهم؛ لأنه تعالى أعلمهما أن في ذريتهما الظالم بقوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾، سورة البقرة: ١٢٤.

وله أيضاً... أنه تعالى لما أعلم إبراهيم عليه السلام أن في ذريته من يكون ظالماً عاصياً، لا



جرم سأل هاهنا أن يجعل بعض ذريته أمة مسلمة.

جاء هذا النفي والردّ، حين حكى تعالى عنه والكلام للرازي أيضاً أنه طلب الإمامة لأولاده... فدلّ ذلك على أن منصب الإمامة والرياسة في الدين لا يصل إلى الظالمين، فهؤلاء متى أرادوا وجدان هذا المنصب وجب عليهم ترك اللجاج والتعصب للباطل. **البيضاوي**... أي واجعل بعض ذريتنا، وإنما خصّنا الذرية بالدعاء؛ لأنهم أحقّ بالشفقة، ولأنهم إذا صلحوا صلح بهم الأتباع، وخصّنا بعضهم لما أعلمنا أن في ذريتهما ظلمة، وعلماً أن الحكمة الإلهية لا تقتضي الاتفاق على الإخلاص والإقبال الكلي على الله تعالى، فإنّه مما يشوش المعاش، ولذلك قيل: لولا الحمقى لخربت الدنيا.

وقيل: أراد بالأمة أمة محمد ﷺ، ويجوز أن تكون (من) للتبيين كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ﴾، سورة المائدة: ٩.

قدم على المبين وفصل به بين العاطف والمعطوف كما في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾.

وقد ذكر صاحب تفسير البرهان رواية عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: أخبرني عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام، من هم؟ قال: أمة محمد بنو هاشم خاصة. قلت: فما الحجّة في أمة محمد أنهم أهل بيته الذين ذكرت دون غيرهم؟ قال: قول الله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ﴾، فلما أجاب الله إبراهيم وإسماعيل، وجعل من ذريتهم أمة مسلمة، وبعث فيها رسولا منها - يعني من تلك الأمة يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ردف إبراهيم عليه السلام بدعوته الأولى بدعوته الأخرى، فسأل لهم تطهيراً من الشرك ومن عبادة الأصنام؛ ليصح أمره فيهم، ولا يتبعوا غيرهم، فقال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ



أَضَلَّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٥-٣٦﴾
سورة إبراهيم: ٣٥ - ٣٦ .

ففي هذه دلالة على أنه لا تكون الأئمة والأئمة المسلمة التي بعث فيها محمدًا ﷺ إلا من ذرية إبراهيم عليه السلام، لقوله: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾، سورة إبراهيم: ١٠٣٥

﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾

فإن هذه الإراءة؛ أي إراءة إبراهيم عليه السلام مناسكه، الواردة في دعائه عليه السلام، تُعدُّ واحدةً من خصائصه العديدة التي تفضل الله تعالى عليه بها؛ واقرنت بأذانه بالحج للبيت الذي رفع قواعده وطهره، بعد اصطفاؤه بالنبوة والرسالة...

يذكر أبو حيان في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا...﴾ سورة البقرة: ١٣٠. أي جعلناه صافياً من الأدناس، واصطفاؤه بالرسالة والخلة والكلمات التي وفي ووصى بها، وبناء البيت، والإمامة، واتخاذ مقامه مصلياً، وتطهير البيت، والنجاة من نار نمرود، والنظر في النجوم، وأذانه بالحج، وإراءة مناسكه، إلى غير ذلك مما ذكر الله في كتابه من خصائصه ووجوه اصطفاؤه...^٢

وصارت من أهمّ وظائف نبوته ورسالته للناس بعد بنائه للكعبة المشرفة وأذانه المبارك، أن يريهم مناسكهم في كيفية حج هذا البيت المبارك، وفي زيارته، وأداء ما عليهم من واجبات إزاءه، مما يدلُّ على عظمة هذا البيت وفضله وأهمية معاملة في المنظومة الإيمانية والعبادية والاجتماعية والثقافية التي تمنّاها كلُّ من إبراهيم وابنه إسماعيل عليه السلام، وقد تجسّدت تلك المنظومة وهذه الأمنية في دعائهما: ﴿... وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا...﴾. في الكافي عن أحدهما عليه السلام (ولعلّه

١ . البرهان في تفسير القرآن، هاشم الحسيني البحراني (ت ١١٠٧هـ): الآية .

٢ . البحر المحيط، أبو حيان (ت ٧٥٤هـ): الآية .



الإمام الباقر أو الإمام الصادق (عليه السلام) قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ إِبْرَاهِيمَ بِنَاءَ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَرْفَعَ قَوَاعِدَهَا، وَيُزَيِّنَ النَّاسَ مَنَاسِكَهُمْ، فَبَنَى إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ (عليهما السلام) الْبَيْتَ...».

فقرءة ﴿وَأَرِنَا﴾ لهم كلام طويل فيها، وفي المراد منها أو في أنواع الرؤية أهي القلبية أو البصرية أو هما معاً، أو هي بمعنى: علمنا...، نكتفي بما ذكره بعضهم مع شيء من التصرف، وقبل التعرض لهذا، نشير إلى أن الرازي في تفسيره: ذكر أن في قرءة عبد الله: (وأرهم مناسكهم وتب عليهم)، وعن غيره: أن ابن مسعود قرأ: ﴿وَأَرِهِمْ مَنَاسِكَهُمْ﴾، فالضمير رُدَّ إلى الأمة، أو بإعادة الضمير إلى الذرية، باعتبار أن هذه وتلك ذكرت في الآية: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُّسْلِمَةٌ لَّكَ﴾.

﴿وَأَرِنَا﴾ هل هي من رؤية العين، أو من رؤية القلب، أو هي رؤية القلب والبصر معاً؟

فهذا ما أشار إليه الطبري في تأويله للآية المذكورة، ضمن بيانه اختلاف قرءتها من قبل القرءاء، حيث إنه رتبهم على ثلاث طوائف من القرءاء، وذكر تأويل كل منهم ﴿مَنَاسِكِنَا﴾ وبيانه على ضوء قرءاتهم، ونظراً لفائدتها ندونها كما أوردتها، ولكن باختصار سندها، وكانت تحت عنوان: القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكِنَا﴾، فقال: اختلفت القرءاء في قرءة ذلك: فقرأه بعضهم: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكِنَا﴾ بمعنى رؤية العين، أي أظهرها لأعيننا حتى نراها. وذلك قرءة عامة أهل الحجاز والكوفة، وكان بعض من يوجّه تأويل ذلك إلى هذا التأويل يسكن الرءاء من «أرنا»، غير أنه يُشَمُّها كسرة. ثم يقول: واختلف قائل هذه المقالة وقرءاء هذه القرءة في تأويل قوله: ﴿مَنَاسِكِنَا﴾، فقال بعضهم: هي مناسك الحج ومعالمه. ذكر من قال ذلك... عن قتادة قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكِنَا﴾ فأرهما الله مناسكهما؛ الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، حتى أكمل الله الدين أو دينه. وأيضاً... عن قتادة في قوله: ﴿وَأَرِنَا



مَناسِكُنَا» قال: أَرْنَا نُسْكُنَا وَحَجَّنا...

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة: المناسك المذابح. فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك: وأرنا كيف نُسْكُكُ لك يا ربنا نساكنا فنذبها لك. ذكر من قال ذلك:... عن ابن جريج، عن عطاء: ﴿وَأَرْنَا مَناسِكُنَا﴾ قال: ذَبَحْنَا. وأيضاً... عن ابن جريج، عن عطاء، قال: مذابحنا. و... عن ابن أبي نجیح، عن مجاهد مثله. و... عن عطاء: سمعت عبید بن عمير يقول: ﴿وَأَرْنَا مَناسِكُنَا﴾ قال: أَرْنَا مذابحنا.

وقال آخرون: (وأرنا مَناسِكُنَا)، بتسكين الراء. وزعموا أن معنى ذلك: وعلمنا ودلنا عليها، لا أن معناها أرناها بالأبصار. وزعموا أن ذلك نظير قول حطاط بن يعفر أخي الأسود بن يعفر:

أَرِينِي جَواداً ماتَ هُزْلاً لَأَنِّي أَرى ما تَرينَ أو بَخِيراً مُخْلِداً

يعني بقوله أريني: دليني عليه وعرفيني مكانه، ولم يعن به رؤية العين. وهذه قراءة رويت عن بعض المتقدمين. ذكر من قال ذلك:... عن ابن جريج، قال: قال عطاء: ﴿وَأَرْنَا مَناسِكُنَا﴾: أخرجها لنا، علمناها.

وأيضاً عن ابن جريج، قال ابن المسيب: قال علي بن أبي طالب عليه السلام لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، قال: فعلت أي رب فأرنا مناسكنا، أبرزها لنا، علمناها، فبعث الله جبريل فحج به.

وهنا يعقب الطبري قائلاً: والقول واحد، فمن كسر الراء جعل علامة الجزم سقوط الياء التي في قول القائل أرنيه، أرنه، وأقر الراء مكسورة كما كانت قبل الجزم. ومن سكن الراء من «أرنا» توهم أن إعراب الحرف في الراء، فسكنها في الجزم كما فعلوا ذلك في لم يكن ولم يك. وسواء كان ذلك من رؤية العين، أو من رؤية القلب. ولا معنى لفرق من فرق بين رؤية العين في ذلك ورؤية القلب.



أما الطبرسي، فقد ذكر أن ابن كثير قرأ أرنا بإسكان الراء كل القرآن، ووافقه ابن عامر وأبو بكر عن عاصم في السجدة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتِ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾، سورة فصلت: ٢٩.

وقرأ أبو عمرو بالاختلاس لكسرة الراء من غير إشباع كل القرآن والباقون بالكسر.

الحجّة: الاختيار كسرة الراء؛ لأنها كسرة الهمزة قد حولت إلى الراء، لأنه أصله أرنا فنقلت الكسرة إلى الراء وسقطت الهمزة، ولأنّ في إسكان الراء بعد سقوط الهمزة إجحافاً بالكلمة وإبطالاً للدلالة على الهمزة، ومن سكنه فعلى وجه التشبيه بما يسكن في مثل كبد وفخذ، ونحو قول الشاعر:

لَوْ عَصَرَ مِنْهُ الْبَانُ وَالْمِسْكَ انْعَصَرَ

وقال الآخر:

قَالَتْ سُلَيْمَى اشْتَرَتْ لَنَا سَوِيْقًا وَاشْتَرَتْ وَعَجَّلَ خَادِمًا لَبِيْقًا

وأما الاختلاس فلطلب الخفة وبقاء الدلالة على حذف الهمزة.

القرطبي: ﴿أَرِنَا﴾ من رؤية البصر، فتعدّى إلى مفعولين.

وقيل: من رؤية القلب، ويلزم قائله أن يتعدّى الفعل منه إلى ثلاثة مفاعيل.

قال ابن عطية: وينفصل بأنه يوجد معدّى بالهمزة من رؤية القلب إلى مفعولين

كغير المعدّى، قال حطّائط ابن يعفر أخو الأسود بن يعفر:

أَرِنِي جَوَادًا مَاتَ هَزْلًا لِأَنِّي أَرَى مَا تَرَيْنَ أَوْ بِخِيَالًا مُخَلَّدًا

البيضاوي: وقرأ ابن كثير والسوسي عن أبي عمرو ويعقوب ﴿أَرِنَا﴾ قياساً على

فخذ في فخذ، وفيه إجحاف؛ لأنّ الكسرة منقولة من الهمزة الساقطة دليل عليها. وقرأ

الدوري عن أبي عمرو بالاختلاس..



﴿وَأَرِنَا﴾ من رأى بمعنى أبصر، أو عرف، ولذلك لم يتجاوز مفعولين.

علمنا سنن حجّنا. علمنا وعرفنا. ومن قبله قاله الزمخشري: ﴿وَأَرِنَا﴾ منقول من رأى بمعنى أبصر أو عرّف. ولذلك لم يتجاوز مفعولين، أي وبصرنا متعبداتنا في الحجّ، أو وعرفناها. وقيل مذابحنا. وعن السمين الحلبي أنّ الزمخشري أجاز أن تكون منقولةً من (رأى) بمعنى عَرَفَ فتعدّى أيضاً لاثنين...

... وأجاز قومٌ فيما حكاه ابن عطية أنّها هنا قلبيةٌ، والقلبية قبل النقل تتعدّى

لثنين، كقوله:

وإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نَرَى الْقَتْلَ سُبَّةً إِذَا مَا رَأْتَهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ

الطوسي: وقوله: ﴿وَأَرِنَا﴾ يحتمل أمرين: أحدهما - أن يكون من رؤية البصر. والآخر - أن يكون من رؤية القلب بمعنى اعلمنا... وقال بعضهم: هي هنا بَصْرِيَّةٌ قلبيةٌ معاً؛ لأنّ الحَجَّ لا يَتِمُّ إِلَّا بِأُمُورٍ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُبْصَرٌ، ويلزمه على هذا الجمع بين الحقيقة والمجاز أو استعمال المشترك في معنیه معاً.

وكذا أبو حيان في بحره بعد ذكره لما قاله بعض الناس: المراد هنا بالرؤية رؤية البصر والقلب معاً؛ لأنّ الحَجَّ لا يَتِمُّ إِلَّا بِأُمُورٍ مِنْهَا يَعْلَمُ وَلَا يَرَى، وبعضها لا يَتِمُّ الغرض منه إلا بالرؤية، فوجب حمل اللفظ على الأمرين جميعاً. قال: وهذا ضعيف؛ لأنّ فيه الجمع بين الحقيقة والمجاز، أو حمل اللفظ المشترك على أكثر من موضوع واحد في حالة واحدة، وهو لا يجوز عندنا.^١

السمين الحلبي: قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ الظاهر أن الرؤية هنا بَصْرِيَّةٌ، فأرى في الأصل يتعدّى لواحدٍ، فلمَّا دَخَلَتْ هَمْزَةُ النُّقْلِ أَكْسَبَتْهَا مَفْعُولًا ثَانِيًا، ف«نا» مفعولٌ أولٌ، و﴿مَنَاسِكَنَا﴾ مفعولٌ ثانٍ.

الشوكاني: وقوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، هي من الرؤية البصرية. وقرأ عمر بن عبد



العزیز، وقتادة، وابن كثير، وابن محيصن، وغيرهم «أرنا» بسكون الراء، ومنه قول الشاعر:

أرنا إداوة عبد الله يملؤها (نملؤها) مِنْ مَاءٍ رَمَزَمَ إِنَّ الْقَوْمَ قَدْ ظَمِئُوا
المنار: «وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا» أي علمنا إياها علماً يكون كالرؤية البصرية في الجلاء والوضوح.

فيما أن السيد السبزواري يذهب إلى أن المراد من الرؤية هي الرؤية الحقيقية كما يسميها، يختم بها كلامه عن الآية، حيث يقول: وبعد هذا كله، قال: والمراد بالرؤية هنا الرؤية الحقيقية أي المعرفة والإراءة، لا مجرد الرؤية البصرية والتعليم القولي، وتدل على ذلك روايات كثيرة دالة على أن جبرائيل كان معه عليه السلام في جميع أعماله وأطواره كما كان مع نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله في حجة الوداع^١.

ومما قاله النيبان عليه السلام في دعائها أنها طلبا تفهم طريق العبادة: «وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا»؛ ليعبد الله حقَّ عبادته.

هذا ما صرح به الشيخ مكارم الشيرازي في تفسيره للآية^٢.

أما «مَنَاسِكَنَا»، فقراءة النسك، وما المراد منه، أيضاً لهم فيها كلام بين: إسكان سينها أو ضمها، فقد قرأ الحسن: «نُسُكِي» بإسكان السين، وهكذا قرأها أبو حياة والحسن. فيما جمهور الناس قرأها: (ونُسُكِي) بضم السين. وبين كسر سينها وفتحها، كما يذكر الطبري في تفسيره لقوله تعالى: «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا». سورة الحج: ٦٧.

١. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، للسيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري ٢: ٤١-٤٢.

٢. انظر جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠ هـ): الآية؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)؛ تفسير الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت ٦٧١ هـ)؛ تفسير الكشاف، الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)؛ تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البضاوي (ت ٦٨٥ هـ): الآية؛ الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ١: ٣٨٣.



حين قول:.. أن المنسك فيه لغتان: «مَنْسِك» بكسر السين وفتح الميم، وذلك من لغة أهل الحجاز، و«مَنْسَك» بفتح الميم والسين جميعاً، وذلك من لغة أسد. وقد قرىء باللغتين جميعاً.

القرطبي:.. وكل ما يُتعبَّد به إلى الله تعالى يقال له مَنْسَك ومَنْسِك. والناسك: العابد. قال النحاس: يقال نَسَكَ يَنْسُكُ، فكان يجب أن يقال على هذا: مَنْسُك، إلا أنه ليس في كلام العرب مَفْعَل.

وأما الأخص، فقد ذكر الاختلاف في تسميتها منسكاً، وهذا كلامه: واحد المناسك منسك مثل مسجد قد اختلفوا في تسميتها منسكاً على وجهين: أحدهما: لأنه معتاد ويتردد الناس إليه في الحج والعمرة، من قولهم: إن فلان منسكاً، إذا كان له موضع معتاد لخير أو شرٍّ، فسميت بذلك مناسك الحج لاعتيادها. والثاني: أن النسك عبادة الله تعالى، ولذلك سُمِّي الزاهد ناسكاً لعبادة ربِّه، فسميت هذه مناسك؛ فهي عبادات تطلق على الأماكن: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ...﴾. سورة الحج: ٦٧. عن ابن عباس. وقيل: مكاناً يألفونه وموضعاً يعتادونه لعبادة الله ومناسك الحج من هذا؛ لأنها مواضع العبادات فيه فهي متعبدات الحج. وقيل: موضع قربان أي متعبد في إراقة الدماء مني أو غيره عن مجاهد وقتادة. وتطلق على الأفعال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، سورة الأنعام: ١٦٢.

فالنسك هنا في بعض معانيه هو جميع أعمال البر والطاعات من قولك نسك فلان فهو ناسك، إذا تعبد، أو الدين كما عن الحسن نُسُكِي: ديني. أو العبادة، كما جاء عن الجبائي والزجاج: ﴿نُسُكِي﴾: عبادتي، فقال الزجاج: عبادتي ومنه الناسك الذي يتقرب إلى الله بالعبادة...

الطوسي: والنسك في اللغة: العبادة. ورجل ناسك عابد، وقد نسك نسكاً. والنسك: الذبيحة يقال: من فعل كذا فعلية نسك، أي دم يهريقه، ومنه قوله: ﴿أَوْ



نُسُكٌ أي دم واسم تلك الذبيحة: النسيكة والموضع الذي يذبح فيه المناسك والمنسك هو النسك نفسه. قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾، ويقال: نسك ثوبه أي غسله وقال ابن دريد: النسك أصله ذبائح كانت تذبح في الجاهلية. والنسيكة: شاة كانوا يذبحونها في الحرم في الإسلام، ثم نسخ ذلك بالأضاحي قال الشاعر:

وذا النصب المنصوب لا تنسكته ولا تعبد الشيطان والله فاعبدا
وأصل الباب العبادة وقيل: إنَّ النسك الغسل.

قال الشاعر:

فلا ينبت المرعى سباح عراعر ولو نسكت بالماء ستة أشهر
أي غسلت ذكره الحسين بن علي المغربي. قال: وليس بمعروف.

والرازي يقول: فالنسك كل ما تقربت به إلى الله تعالى، إلا أنَّ الغالب عليه في العرف الذبح.

فيما خصَّصه بعض بالذبيحة؛ فالنَّسك جمع نسيكة، وهي الذبيحة: كما عن سعيد بن جبير ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي ﴿نُسُكِي﴾: ذبيحتي للحج والعمرة. والمعنى: ذَبَّحِي في الحجِّ والعمرة.

السمين الحلبي: والمناسكُ واحدُها: مَنْسَكُ بفتح العين وكسرهما، وقد قرىء بهما والمفتوح هو المقيسُ لانضمام عين مضارعه. والمنسكُ: موضعُ النسك وهو العبادة.^١

١. انظر مجمع البيان للطبرسي؛ تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ت ٧٧٤ هـ)؛ التفسير الكبير للإمام الطبراني (ت ٣٦٠ هـ)؛ تفسير المنار، محمد رشيد بن علي رضا (ت ١٣٥٤ هـ)؛ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي؛ تفسير الدرِّ المصون، السمين الحلبي (ت ٧٥٦ هـ)؛ تفسير فتح القدير، الشوكاني (ت ١٢٥٠ هـ)؛ تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاوي (ت ٦٨٥ هـ)؛ تفسير اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل (ت ٨٨٠ هـ)؛ تفسير الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨ هـ)؛ جامع البيان في تفسير القرآن للطبري (ت ٣١٠ هـ)؛ مفاتيح الغيب للرازي (ت ٦٠٦ هـ): الآية...



وأما عن تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾: فالطبري يقول:.. اختلفوا في تأويل قوله: ﴿مَنَاسِكَنَا﴾، فقال بعضهم: هي مناسك الحج ومعالمه؛ فعن قتادة: فأراهما الله مناسكهما: الطواف بالبیت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة من عرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار، حتى أكمل الله الدين أو دينه. وأيضاً عن قتادة قال: أرنا نُسكنا وحجنا.

وقال آخرون ممن قرأ هذه القراءة: المناسك المذابح. فكان تأويل هذه الآية على قول من قال ذلك: وأرنا كيف نُنسكُ لك ياربنا نساكنا، فنذبحها لك.. عن ابن جريج، عن عطاء: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، قال: دَبَحْنَا. وأيضاً عن ابن جريج، عن عطاء، قال: مذابحنا. وكذا عن مجاهد وعبيد بن عمير مثله.

ويذكر الطبري: أنَّ المناسك وهي جمع «مَنَسِك» ، وهو الموضع الذي ينسك لله فيه، ويتقرب إليه فيه بما يرضيه من عمل صالح إما بذبح ذبيحة له، وإما بصلاة أو طواف أو سعي، وغير ذلك من الأعمال الصالحة؛ ولذلك قيل لمشاعر الحج: مناسكها؛ لأنها أمارات وعلامات يعتادها الناس، ويترددون إليها.

ثمَّ يقول: وأصل المَنَسِك في كلام العرب: الموضع المعتاد الذي يعتاده الرجل ويألفه، يقال: لفلان منسك، وذلك إذا كان له موضع يعتاده لخير أو شر؛ ولذلك سميت المناسك مناسك، لأنها تُعتاد ويتردد إليها بالحج والعمرة، وبالأعمال التي يتقرب بها إلى الله.

وقد قيل: إنَّ معنى النسك: عبادة الله، وأنَّ الناسك إنما سُمِّي ناسكاً بعبادة ربِّه، فتأول قائل هذه المقالة قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، وعلمنا عبادتك كيف نعبدك، وأين نعبدك، وما يرضيك عنا فنفعله.

ثمَّ يُعقب قائلاً: وهذا القول وإن كان مذهباً يَحتمله الكلام، فإنَّ الغالب على



معنى المناسك ما وصفنا قبل من أنها مناسك الحج التي ذكرنا معناها.

(وأما عن مسألتها) ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾:

فقد خرج هذا الكلام والقول للطبري من قول إبراهيم وإسماعيل على وجه المسألة منهما ربهما لأنفسهما، وإنما ذلك منها مسألة ربهما لأنفسهما وذريتهما المسلمين، فلما ضمّا ذريتهما المسلمين إلى أنفسهما صارا كالمخبرين عن أنفسهم بذلك. وإنما قلنا: إن ذلك كذلك؛ لتقدم الدعاء منهما للمسلمين من ذريتهما قبل في أول الآية، وتأخره بعد في الآية الأخرى. فأما الذي في أول الآية فقولهما: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾، ثم جمعا أنفسهما والأمة المسلمة من ذريتهما في مسألتها ربهما أن يريهم مناسكهم فقالا: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، وأما التي في الآية التي بعدها ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾، سورة البقرة: ١٢٩. فجعلنا المسألة لذريتهما خاصة. وقد ذكر أنها في قراءة ابن مسعود: «وَأَرِهِمْ مَنَاسِكَهُمْ»، يعني بذلك: وأر ذريتنا المسلمة مناسكهم...^١

الطوسي: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ فالمناسك ههنا المتعبدات، قال الزجاج: كل متعبد منسك.

وقال الجبائي: المناسك هي ما يتقرب به إلى الله من الهدى، والذبح، وغير ذلك من أعمال الحج والعمرة.

وقال عطا: مناسكنا: مذابحنا.

وقال قتادة: أراهما الله مناسكهما الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والإفاضة عن عرفات والإفاضة من جمع، ورمي الجمار حتى أكمل الله الدين.

ويصف الشيخ الطوسي قول قتادة هذا بأنه القول أقوى؛ لأنه العرف في معنى المناسك.



هذا ما ذكره كلُّ من الطبري والطوسي في الآية، أما الرازي فيذكر قولين في ﴿أَرْنَا...﴾
يراهما قولين معتبرين، فيما القول الثالث يضعفه.

الأول: معناه علمنا شرائع حجّنا إذ أمرتنا ببناء البيت لنحجّه وندعوا الناس إلى
حجّه، فعلمنا شرائعه وما ينبغي لنا أن نأتيه فيه من عمل وقول مجاز هذا من رؤية
العلم، قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ﴾، سورة الفرقان: ٤٥.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾، سورة الفيل: ١.

الثاني: أظهرها لأعيننا حتى نراها. قال الحسن: إنَّ جبريل عليه السلام أرى إبراهيم عليه السلام
المناسك كلّها، حتى بلغ عرفات، فقال: يا إبراهيم، أعرفت ما أريتك من المناسك؟
قال: نعم. فسميت عرفات.

فلما كان يوم النحر، أراد أن يزور البيت، عرض له إبليس فسد عليه الطريق، فأمره
جبريل عليه السلام أن يرميه بسبع حصيات ففعل، فذهب الشيطان. ثم عرض له في اليوم
الثاني والثالث والرابع، كلّ ذلك يأمره جبريل عليه السلام برمي الحصيات.

وهنا قول ثالث، وهو أن المراد العلم والرؤية معاً. وهو قول القاضي؛ لأنَّ الحجَّ
لا يتمُّ إلاّ بأمر بعضها يعلم ولا يرى، وبعضها لا يتم الغرض منه إلاّ بالرؤية، فوجب
حمل اللفظ على الأمرين جميعاً. وهذا ضعيف؛ لأنه يقتضي حمل اللفظ على الحقيقة
والمجاز معاً وأنه جائز.

فبقي القول المعتبر وهو القولان الأولان، فمن قال بالقول الثاني قال: إنَّ المناسك
هي المواقف والمواضع التي يقام فيها شرائع الحجّ كمنى وعرفات والمزدلفة ونحوها.
ومن قال بالأول قال: إنَّ المناسك هي أعمال الحجّ كالطواف والسعي والوقوف. وفي
المسألة الثانية يذكر أنَّ النسك هو التعبد، يقال للعابد ناسك ثم سمي الذبح نسكاً
والذبيحة نسيكة، وسمي أعمال الحجّ مناسك. قال عليه السلام: «خذوا عني مناسككم لعلّي



لا ألقاكم بعد عامي هذا».

والمواضع التي تقام فيها شرائع الحجّ تسمى: مناسك أيضاً، ويقال: المنسك بفتح السين بمعنى الفعل، وبكسر السين بمعنى المواضع، كالمسجد والمشرق والمغرب، قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ سورة الحجّ: ٦٧. قرىء بالفتح والكسر، وظاهر الكلام يدل على الفعل، وكذلك قوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم».

أمرهم بأن يتعلموا أفعاله في الحجّ لأنه أراد: خذوا عني مواضع نسككم.

ويعقب الرازي قائلاً: إذا عرفت هذا فنقول: إن حملنا المناسك على مناسك الحجّ، فإن حملناها على الأفعال، فالإراءة لتعريف تلك الأعمال، وإن حملناها على المواضع، فالإراءة لتعريف البقاع.

أما من حمل المناسك على الذبيحة فقط، فقد خطأه الرازي قائلاً: من المفسرين من حمل المناسك على الذبيحة فقط، وهو خطأ؛ لأنّ الذبيحة إنما تسمى نسكاً لدخولها تحت التعبّد، ولذلك لا يسمون ما يذبح للأكل بذلك، فما لأجله سميت الذبيحة نسكاً، وهو كونه عملاً من أعمال الحجّ قائم في سائر الأعمال، فوجب دخول الكلّ فيه.

ثمّ يقول: وإن حملنا المناسك على ما يرجع إليه أصل هذه اللفظة من العبادة والتقرب إلى الله تعالى، واللزوم لما يرضيه، وجعل ذلك عاماً لكلّ ما شرعه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام فقلوه: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، أي علمنا كيف نعبدك، وأين نعبدك، وبماذا نتقرب إليك حتى نخدمك به كما يخدم العبد مولاه.^١

الخصاص: وَالْأَظْهَرُ مِنْ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، سَائِرُ أَعْمَالِ الْحَجِّ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَهُمَا بِنَاءِ الْبَيْتِ لِلْحَجِّ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ ابْنِ أَبِي مَلِيكَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «أَتَى جَبْرَيْلُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَرَأَاهُ بِرَأْسِهِ إِلَى مَكَّةَ ثُمَّ مَنَى». وَذَكَرَ أَفْعَالَ الْحَجِّ عَلَى نَحْوِ مَا فَعَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَجَّتِهِ، قَالَ: ثُمَّ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ



﴿إِنِ اتَّبَعِ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾. وكذلك أرسل النبي ﷺ إلى قوم بعرفاتٍ وقوفٍ خلفه وهو واقفٌ بها، فقال: «كُونُوا عَلَى مَشَاعِرِكُمْ فَإِنَّكُمْ عَلَى إِرْثٍ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾، يدل على لزوم اتباع إبراهيم في شرائعه فيما لم يثبت نسخه، وأفاد بذلك أن من رغب عن ملة محمد ﷺ فهو رغب عن ملة إبراهيم إذ كانت ملة النبي ﷺ منتظمة لملة إبراهيم ورائدة عليها. ١. وعن المراد من النسك يقول السبزواري: النسك: العبادة والناسك: العابد، والمنسك: هو الموضوع المعد للعبادة، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ سورة الحج، الآية: ٦٧.

ولكن اختص اللفظ في العرف الخاص بأفعال الحج، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ﴾ سورة البقرة: ٢٠٠.

ومع هذا لم ينف السيد أن النسك يعني الهدى، فقال: يستعمل في خصوص الهدى أيضاً، قال تعالى: ﴿فَقِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ سورة البقرة، الآية: ١٩٦. والنسك هو الهدى وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ سورة الأنعام، الآية: ١٦٢.

وعن نبينا الأعظم ﷺ فيما رواه الفريقان بطرق متواترة: «خذوا عني مناسككم». وهذا ما ستعرض إليه في الآية الثانية، وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

كيفية أداء المناسك:

مناسك الحج الإبراهيمية تعد من أهم ما توقرت عليه المنظومة العبادية التي



يُتقرب بها من قبل العباد إلى بارئهم عزَّ وجلَّ، وبعبارة أخرى هي تلك الخطوات التي أراها الله سبحانه وتعالى كلاً من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

وهذه المناسك ومعرفتها وأداؤها تكفلت بها مضامين الروايات وذكرتها الأخبار عن عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، والتي تحدّثت عن مناسك الحجّ وكيفية أدائها.

وقبل ذكرها، نُشير إلى أنها لا تخلو من اختلاف نجده بين متونها، ففي وقت الأذان بالحجّ، أوقع بعد فراغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت أو بعد معرفته لمناسك الحجّ وأدائها بإرشاد جبريل عليه السلام، وكذا في مكان وقوعه؛ المقام أو جبل قبيس أو شبر،...؟

- لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت الحرام، جاء جبريل عليه السلام، وفي رواية قال: أي ربّ قد فعلت، فأرنا مناسكنا، أي: أبرزها لنا وعلمناها، وقيل: أرنا مناسكنا: مذابحنا، فجاءه جبريل، فقال: طف به سبعاً هو وإسماعيل يستلمان الأركان كلّها في كلّ طواف، وكان آدم يستلم الأركان كلّها قبل إبراهيم عليه السلام، فلما أكملها سبعاً، صلياً خلف المقام ركعتين.

فقام معه جبريل، فأراه المناسك كلّها؛ الصفا والمروة، ومنى، ومزدلفة، وعرفة، فلما دخل منى وهبط من العقبة تمثل له إبليس، وفي رواية: بعث الله عزَّ وجلَّ جبريل فحجّ به حتى إذا جاء يوم النحر، عرض له إبليس عند جمرة العقبة، فقال له جبريل عليه السلام: إرمه فرماه إبراهيم عليه السلام بسبع حصيات فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة السفلى، فقال له جبريل عليه السلام: إرمه فرماه بسبع حصيات فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة الوسطى، فقال له جبريل عليه السلام: كبر وارمه، فرماه بسبع حصيات مثل حصى الخذف فغاب عنه إبليس، وفي رواية: فرماه من الغد واليوم الثالث كذلك، ثم مضى إبراهيم عليه السلام في حجّه وجبريل عليه السلام يوقفه على المواقف ويعلمه المناسك حتى انتهى إلى عرفات، فلما انتهى إليها قال له جبريل عليه السلام: أعرفت مناسكك؟ قال إبراهيم عليه السلام: نعم؛ فسميت عرفات بذلك. فلما فرغ من الحجّ، أمر إبراهيم أن يؤذّن في الناس بالحجّ. ففي هذه الرواية: فلما فرغ من الحجّ، أمر إبراهيم أن يؤذّن في الناس بالحجّ.



خلافاً لما جاء في الرواية الثانية، والتي فيها: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، قال: يا ربّ قد فرغت، فأوحى الله إليه أن أذن في الناس بالحجّ.

فالرواية الأولى وقع الأذان بعد الفراغ من الحجّ. أي بعد أدائه ﷺ لمناسك الحجّ. فيما الثانية بعد فراغه من بناء البيت. فلما أمر أن يؤذن بالحجّ، قال: يا ربّ وما يبلغ صوتي؟ فقال الله تعالى: أذن وعليّ البلاغ.

وفي رواية: قال: وكيف أقول؟ قال: قل: يا أيها الناس أحيوا ربّكم ثلاث مرات! فعّل إبراهيم ﷺ على المقام، فارتفع به حتى صار أرفع الجبال وأطولها.

وفي رواية: صعّد أبا قبيس وأذن بالحجّ، وفي رواية: علا على شبر، وجمعت له الأرض يومئذ سهلها وجبلها وبرها وبحرها وإنسها وجنّها حتى أسمعهم جميعاً، وتطأطأت الجبال، وفي رواية: خفضت الجبال رؤوسها ورفعت له القرى فأدخل إصبعيه في صماخي أذنيه، وأقبل بوجهه يمناً وشاماً وشرقاً وغرباً، وبدأ بشقّ اليمن، فقال: أيها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فأحيوا ربّكم، وفي رواية: إنّ الله قد أمركم بحجّ هذا البيت؛ ليشيكنكم به الجنّة ويجيركم من عذاب النار فحجوا؛ فأجابوه من تحت التخوم السبعة، ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلّها: لبيك اللهم لبيك، وفي رواية: أي كلّ رطب ويابس، وسمعه من بين المشرق والمغرب، وأجابه من كان في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فليس أحد يحجّ إلى يوم القيامة إلا من أجاب نداء إبراهيم ﷺ.

وإنما حجّهم على قدر إجابتهم يومئذ، فمن أجابه مرة حجّ مرة، ومن أجابه مرتين حجّ مرتين، ومن أجابه أكثر، فأكثر على حسب إجابته، ويروى أنه كان بين ذلك وبين أن بعث الله محمدًا ﷺ ثلاثة آلاف سنة، وكان أول من أجاب دعوة إبراهيم ﷺ بالتلبية أهل اليمن. وذهب جماعة إلى أن المأمور في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ سيدنا



وفي رواية استقبال إبراهيم اليمن ودعا إلى الله وإلى حجّ بيته، فأجيب أن لبيك لبيك، ثمّ استقبال المشرق فدعا إلى الله وإلى حجّ بيته، فأجيب أن لبيك لبيك، ثمّ إلى المغرب بمثل ذلك، ثم إلى الشام بمثل ذلك، ثم حجّ إبراهيم بإسماعيل وبمن معه من المسلمين من جرهم، وهم سكان الحرم يومئذ مع إسماعيل، وهم أصهاره، وصلى بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء بمنى، ثم بات بهم حتى أصبح وصلى بهم الغداة، ثم غدا بهم إلى نمرة، فقام بهم هنالك حتى إذا مالت الشمس جمع بين الظهر والعصر بعرفة في مسجد إبراهيم، ثم راح بهم إلى الموقف من عرفة، وهو الموقف الذي يقف عليه الإمام اليوم فوقف بهم، فلما غربت الشمس، دفع به وبمن معه حتى أتى المزدلفة، فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات حتى إذا طلع الفجر صلى بهم الغداة، ثم وقف به على قزح من المزدلفة وبمن معه، وهو الموقف الذي يقف به الإمام اليوم حتى إذا أسفر غير مشرق، دفع به وبمن معه يريه ويعلمه كيف يرمي الجمار حتى فرغ من الحجّ كلّهُ، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام راجعاً إلى الشام، فتوفي بها.

إضافةً لهذا، فهناك أخبار وروايات عن المناسك وكيفيةها، وفي أكثرها وردت هذه العبارات: «فأرنا مناسكنا.. فأراه مناسكه.. أراهما الله مناسكهما.. ربّ أرنا مناسكنا..». منها: ما أخرجه ابن جرير من طريق ابن المسيب عن عليّ عليه السلام، قال: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت، قال: قد فعلتُ أي رب، فأرنا مناسكنا، أبرزها لنا، علّمناها، فبعث الله جبريل فحجّ به...

وعن ابن عباس قال: كان المقام في أصل الكعبة، فقام عليه إبراهيم عليه السلام، فتفرجت عنه هذه الجبال أبو قبيس وصاحبه إلى ما بينه وبين عرفات، فأراه مناسكه حتى انتهى إليه، فقال: عرفت؟ قال: نعم. فسميت عرفات.

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله: «وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا» قال: أراهما الله مناسكهما؛ الموقف بعرفات، والإفاضة من جمع، ورمي الجمار والطواف بالبيت، والسعي بين



وفي بعضها أن جبريل أراه المناسك قبل الأذان بالحجّ، منها:.. عن مجاهد قال: قال إبراهيم عليه السلام: رب أرنا مناسكنا. فاتاه جبريل فأتى به البيت، فقال: ارفع القواعد. فرفع القواعد وأتمّ البنيان، ثم أخذ بيده فأخرجه، فانطلق به إلى الصفاء، قال: هذا من شعائر الله، ثم انطلق به إلى المروة، فقال: وهذا من شعائر الله، ثم انطلق به نحو منى، فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة، فقال: كبر وارمه. فكبر ورماه، ثم انطلق إبليس، فقام عند الجمرة الوسطى، فلما حاذى به جبريل وإبراهيم قال له: كبر وارمه. فكبر ورمى، فذهب إبليس حتى أتى الجمرة القصوى، فقال له جبريل: كبر وارمه. فكبر ورمى، فذهب إبليس، وكان الخبيث أراد أن يدخل في الحجّ شيئاً، فلم يستطع، فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام، فقال: هذا المشعر الحرام، ثم ذهب حتى أتى به عرفات قال: قد عرفت ما أريتك؟ قالها ثلاث مرات. قال: نعم. قال: فأذن في الناس بالحجّ. قال: وكيف أؤذن؟ قال: قل يا أيها الناس أجيئوا ربكم ثلاث مرات، فأجاب العباد لبيك اللهم ربنا لبيك، فمن أجاب إبراهيم يومئذ من الخلق فهو حاجّ! وفي بعضها بعد الأذان بالحجّ. الطبري... عن السدي في **﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾**، قال: لما فرغ إبراهيم وإسماعيل من بنيان البيت، أمره الله أن ينادي فقال: **﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾**، فنادى بين أخشبي مكة: يا أيها الناس، إن الله يأمركم أن تحجّوا بيته. قال: فوقرت في قلب كل مؤمن، فأجابه كل من سمعه من جبل أو شجر أو دابة: لبيك لبيك، فأجابه بالتلبية: لبيك اللهم لبيك. وأتاه من أتاه، فأمره الله أن يخرج إلى عرفات ونعتّها فخرج، فلما بلغ الشجرة عند العقبة، استقبله الشيطان، فرماه بسبع حصياتٍ يكبر مع كل حصاة، فطار فوق على الجمرة الثانية أيضاً، فصدّه، فرماه وكبر، فطار فوق على الجمرة الثالثة، فرماه وكبر. فلما رأى أنه لا يطيقه، ولم يدر إبراهيم أين يذهب، انطلق حتى أتى ذا المجاز، فلما نظر إليه فلم يعرفه جاز، فلذلك سمي ذا المجاز.



ثم انطلق حتى وقع بعرفات، فلما نظر إليها عرف النعت، قال: قد عرفتُ فسميت عرفات. فوقف إبراهيم بعرفات. حتى إذا أمسى ازدلف إلى جمع، فسميت المزدلفة. فوقف بجمع. ثم أقبل حتى أتى الشيطان حيث لقيه أول مرة، فرماه بسبع حصيات سبع مرّات، ثم أقام بمنى حتى فرغ من الحجّ وأمره. وذلك قوله: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾. ولا أدري أهذه هي الأقوال التي يقصدها أبو حيان في تفسيره البحر المحيط؛ أنها مضطربة النقل بقوله: وذكر المفسرون في كيفية تأدية إبراهيم وإسماعيل هذه المناسك أقوالاً سبعة مضطربة النقل. وذكروا أيضاً من حجّ هذا البيت من الأنبياء، ومن مات بمكة منهم. وذكروا أنه مات بهانوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإسماعيل، وغيرهم، ولم تتعرض الآية الكريمة لشيء من ذلك، فتركنا نقل ذلك على عادتنا.^١

وإنّ مناسك الحجّ الإبراهيمي قد ورثها العرب الوثنيون منهم والحنفاء الذين ظلّوا يقصدون البيت الحرام من هنا وهناك، ليؤدّوا منسك الحجّ، أو بالحقيقة ما بقي منه، فقد حُرّف بعضه، وتُرك آخر، ولكن ما بقي يُشكّل أصلاً مهماً من مراسيم الحجّ وشعائره، فالطواف بأشواطه السبعة باق وكذا السعي، وهكذا المواقف الأخرى كالوقوف بمنى.. وكالهدي..، إلّا أنّ الحمس وهم المتشددون يرون أنهم من قريش من أهل مكة، يخرجون فقط إلى نمرة، ولا يدخلون عرفات، في حين أنّ النبي ﷺ في حجة الوداع، وقف قليلاً عند نمرة، ثم اندفع نحو عرفات...

وسياتينا الكلام عن الدور الكبير الذي بذله رسول الله ﷺ في تبليغ فريضة الحجّ وتعليم مناسكه في الآية الثانية.

بقي من هذه الآية، فقرتها الأخيرة: ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ التي ختمت بها دعاءهما لهذه الذرية وما انبثق عنها من أمة صالحة؛ ليغفر لهم ويتوب عليهم...



وخاتمة دعاء كل من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام عدّها الألوسي: تعليل للدعاء، ومزيد استدعاء للإجابة، وتقديم التوبة للمجاورة، وتأخير الرحمة لعمومها، ولكونها أنسب بالفواصل.

فيما اكتفى ابن عاشور بأنها تعليل لجمل الدعاء.

يقول الطبري في تأويل قوله تعالى: ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾: أما التوبة فأصلها الأوبة من مكروه إلى محبوب، فتوبة العبد إلى ربه: أوبته مما يكرهه الله منه بالندم عليه والإقلاع عنه، والعزم على ترك العود فيه. وتوبة الرب على عبده: عوده عليه بالعفو له عن جرمه والصفح له عن عقوبة ذنبه، مغفرة له منه، وفضلاً عليه.

فإن قال لنا قائل: وهل كان لهما ذنوب، فاحتاجا إلى مسألة ربهما التوبة؟

قيل: إنه ليس أحد من خلق الله إلا وله من العمل فيما بينه وبين ربه ما يجب عليه الإنابة منه والتوبة.

فجائز أن يكون ما كان من قبلها ما قالوا من ذلك، وإنما خصّصا به الحال التي كانا عليهما من رفع قواعد البيت؛ لأن ذلك كان أحرى الأماكن أن يستجيب الله فيها دعاءهما، وليجعل ما فعلا من ذلك سنةً يقتدي بها بعدهما، وتتخذ الناس تلك البقعة بعدهما موضع تنصّل من الذنوب إلى الله.

وجائز أن يكونا عنيا بقولهما: ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا﴾ وتب على الظلمة من أولادنا وذريتنا الذين أعلمتنا أمرهم من ظلمهم وشركهم، حتى ينيبوا إلى طاعتك. فيكون ظاهر الكلام على الدعاء لأنفسهما، والمعنى به ذريتهما، كما يقال: أكرمني فلان في ولدي وأهلي، وبرّني فلان: إذا برّ ولده.

وأما قوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ فإنه يعني به: إنك أنت العائد على عبادك بالفضل والمتفضل عليهم بالعفو والغفران، الرحيم بهم، المستنقذ من



تشاء منهم برحمتك من هلكته، المنجى من تريد نجاته منهم برأفتك من سخطك .
لقد سألا الله تعالى التوبة مع كونها معصومين تعليماً لذريتهما دون أن يفردا نفسيهما
عن هذه الذرية ويعزلاها عن هذه الأمة، فدعوا للجميع؛ ليغفر لهم ويتوب عليهم...،
أو أنهما قالوا هذه الكلمة على وجه التسييح والتعبد والانقطاع إلى الله سبحانه؛ ليقتدي
بهما الناس فيها...

الطوسي: ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا﴾، أي ارجع علينا بالرحمة والمغفرة وليس فيه دلالة على
جواز الصغيرة، أو فعل القبيح عليهم. ومن ادعى ذلك، فقد أبطل. وقال قوم: معناه
تب على ظلمة ذريتنا. وقيل: بل قالوا: ذلك انقطاعا إليه تعالى تعبداً ليقتدى بهما فيه.
وهو الذي نعتمده...

فيما فصل الألوسي ذلك؛ بعد أن ذكر أنّ ﴿وَتُوبَ عَلَيْنَا﴾: أي وفقنا للتوبة أو اقبلها
منا. قائلًا: والتوبة تختلف باختلاف التائبين: توبة سائر المسلمين: الندم والعزم على
عدم العود وردّ المظالم إذا أمكن، ونية الردّ إذا لم يمكن. وتوبة الخواص: الرجوع عن
المكروهات من خواطر السوء، والفتور في الأعمال، والإتيان بالعبادة على غير وجه
الكمال.

وتوبة خواص الخواص لرفع الدرجات، والترقي في المقامات.

فإن كان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام طلبا التوبة لأنفسهما خاصة، فالمراد بها ما هو من
توبة القسم الأخير، وإن كان الضمير شاملاً لهما وللذرية كان الدعاء بها منصرفاً لمن
هو من أهلها ممن يصح صدور الذنب المخل بمرتبة النبوة منه.

وإن قيل: إنَّ الطلب للذرية فقط، وارتكب التجوز في النسبة إجراءً للولد مجرى
النفس بعلاقة البعضية؛ ليكون أقرب إلى الإجابة، أو في الطرف حيث عبر عن الفرع
باسم الأصل، أو قيل: بحذف المضاف أي - على عصاتنا - زال الإشكال كما إذا قلنا:
إنَّ ذلك عمّا فرط منهما من الصغائر سهواً، والقول بأنهما لم يقصدا الطلب حقيقة، وإنما



ذكر ذلك للتشريع وتعليم الناس أن تلك المواضع مواضع التنصل، وطلب التوبة من الذنوب بعيد جداً، وجعل الطلب للتثبيت لأراه هنا يجدي نفعاً - كما لا يخفى - وقرأ عبدالله «وَتُبَّ عَلَيْهِمْ». بضمير جمع الغيبة أيضاً.

الرازي:.. أنه تعالى لما أعلم إبراهيم عليه السلام أن في ذريته من يكون ظالماً عاصياً، لا جرم سأل هاهنا أن يجعل بعض ذريته أمة مسلمة، ثم طلب منه أن يوفق أولئك العصاة للتوبة، فقال: ﴿وَتُبَّ عَلَيْنَا﴾. أي على المذنبين من ذريتنا، والأب المشفق على ولده إذا أذنب ولده، فاعتذر الوالد عنه، فقد يقول: أجزمت وعصيت فاقبل عذري، ويكون مراده: أن ولدي أذنب فاقبل عذره؛ لأن ولد الإنسان يجري مجرى نفسه، والذي يقوي هذا التأويل وجوه: الأول: ما حكى الله تعالى في سورة «إبراهيم» أنه قال: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلَّنَا كَمَا ضَلَّنا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة إبراهيم: ٣٥-٣٦. فيحتمل أن يكون المعنى: ومن عصاني فإنك قادر على أن تتوب عليه إن تاب، وتغفر له ما سلف من ذنوبه. الثاني: ذكر أن في قراءة عبد الله: وأرهم مناسكهم وتب عليهم. الثالث: أنه قال عطفاً على هذا: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ﴾. الرابع: تأولوا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾. سورة الأعراف: ١١. بجعل خلقه إياه خلقاً لهم إذ كانوا منه، فكذا لا يبعد أن يكون قوله: ﴿أَرْنَا مَناسِكَنَا﴾، أي أر ذريتنا. ١

للبحث صلة

١. جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠ هـ)؛ روح المعاني، الألوسي (ت ١٢٧٠ هـ)؛ التحرير والتنوير، لابن عاشور؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي (ت ٥٤٨ هـ)؛ مفاتيح الغيب، للرازي: الآية.

شخصيات من الحرمين الشريفين (٤٧)

عقيل بن أبي طالب الهاشمي (١)

محمد سليمان

ملخص البحث:

لعلّي من خلال مقالتي هذه أستطيع أن أنصف وجهاً آخر من وجوه بني هاشم من أبناء أبي طالب رضوان الله تعالى عليه، يحمل نظرةً وحكمةً وعلماً، وشجاعةً وجرأةً في قول الحقّ له أو عليه، ترجح حكمته فعله، ويسبق عقله قوله، رصينة كلمته، دقيقة طرافته، له وقع في مجالسه، يأنس مستمعه له، وإن كان منتقداً له موبخاً لقول صدر منه أو فعل، أو حتى لنسب فيه خدشة أو وصمة عار إن بدر منه ما فيه إساءة للآخر، وبالذات لبني هاشم، فترى عقيلاً يردّه ويزجره، ويُعيده إلى حقيقته بعد أن يُبين له ما فيه من شين وعيب مها استكبر وطغى... نراه في نقوده واثق الخطوة، سديد القول لا يأبه بسلاطة وتجبر من حوله، يُقيم كلمته مع الخصوم، فيردّ الصاع صاعين، لا يتوقف أو يتردّد لضغط حاجة أو ثقل معيشة أملت به، يعرض طلبه عليهم بعزٍّ ومنعة، لا يعتني بما يتقوله من حوله، لا يبالي بما ينطقون، فضلاً عما سيكتبه من بعده، لا يبتعد عن قناعته،



ولا يحذر من التصريح بها، ولا يجامل في قول ولا فعل، فكلمته يحترمها ويدافع عنها، ولا يرسلها إلا في مكانها، يُقيّمها ويُعلنها صريحة لا غبار عليها... فقد عُرف بفصاحة لسانه، وبجوابه الشديد، والمُسكت، وبسرعة الخاطر، وحضور الجواب...

وختاماً لقولي هذا، فلقد دفعتني للكتابة عنه أمور عديدة، أبرزها أنه ابن أبي طالب رضوان الله تعالى عليه، العمّ الكفيل لرسول الله ﷺ والذاب عنه، والمخفف عنه معاناته وآلامه من أذى قومه المشركين... وبالتالي فهو حقاً مأوى النبوة والرسالة..!

ولنشأة عقيل مع إخوته وأخواته في ظلّ هذا الأب الكبير، وفي أجواء البيت الذي يكفيه شرفاً أنه حظي برسول الله ﷺ نشأةً ونبوةً ودعوةً إلى توحيد الله تعالى وتبليغ رسالته الخاتمة للرسالات والنبوات..!

لقد كان عقيل بن أبي طالب كما وصفه الجاحظ... بين اللسان، سديد الجواب، لا يقوم له أحدٌ، له لسانه، وأدبه ونسبه، وفضل نظراء بهذه الخصال! وكان عقيل رجلاً قد كفّ بصره، وله بعد لسانه ونسبه وأدبه وجوابه، فلما فضل نظراء من العلماء بهذه الخصال صار لسانه بها أطول!

فعقيل بلا ريب شخصية تاريخية اجتماعية، لها حضورها في العديد من مجالس قومه قبل الإسلام وبعده مع بعض رجال السلطة ورجال المجتمع أفراداً وقبائل، وقد لاقت شخصية عقيل العديد من الأحداث في سيرتها وحقيقتها، وكثرت حولها الأخبار المتضادة سلباً وإيجاباً في مضامينها، لكنه لم يكن خائناً، ولم يكن سيئاً، لم يكن سيفاً بيد أعداء الدين وخصوم بني هاشم أبداً، ولم يكن إلا وجهاً ذا خصوصية، وبالتالي فهو ذورأي وموقف، يُسمع الخصوم ما تمليه عليه قناعته، ولطالما كشف زيفهم وأنسابهم،



ولم يكن بعيداً عما وقع من أحداث رافقت حياته سواءً أكانت في العهد الجاهلي أم في العهد الإسلامي المبارك...

ولا بدّ لنا من الإشارة إلى أنه حظي بالصحبة المباركة لرسول الله ﷺ بعد إسلامه المختلف عليه في وقته ومكانه، فضلاً عن النسب الشريف الذي ينتمي إليه، القريب من رسول الله ﷺ وهو ابن عمّه والذي كانت نشأته ﷺ معه ومع بقية إخوته تحت رعاية أبٍ جليل القدر والمعرفة والحكمة، أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم، والسيدة الجليلة فاطمة بنت أسد بن هاشم... مما يجعل العلاقة بين رسول الله ﷺ وبينهم علاقةً نسبٍ ونشأةً وتربيةً تركت وبلا شك بصماتها عليهم وعلى سيرتهم... فهم جميعاً من بني هاشم؛ شجرة طيبة ونسب كريم، كانوا وكانت مآثرهم ومناقبهم كما وصفهم الجاحظ: ... وبنو هاشم ملح الأرض، وزينة الدنيا، وحلي العالم، والسنام الأضخم، والكاهل الأعظم، ولباب كلّ جوهر كريم، وسرّ كلّ عنصر شريف، والطينة البيضاء، والمغرس المبارك، والنصاب الوثيق، ومعدن الفهم، وينبوع العلم!...

ولقد ازدادوا بركةً وشرفاً وسمواً برسول الله ﷺ.

يقول ابن هشام: فرسول الله ﷺ أشرف ولد آدم حسباً، وأفضلهم نسباً من قبل أبيه وأمه.

وبلا أدنى ريب أنّ هذا النسب وذاك الحسب في أشرفيته وأفضليته يحظى بهما أبو طالب وأولاده أيضاً، ويكفيه فخراً أنّه رضوان الله عليه عمُّ رسول الله ﷺ وكفيله وحاميه والمدافع عنه وعن رسالة السماء التي أنيطت به ﷺ تبليغاً ورحمةً كافةً للناس، فلطالما ذبّ عنه أعداءه ومناوئيه؛ مستفيداً في تحقيق ذلك من كونه أولاً مؤمناً مقتنعاً بما يقوله ويفعله ﷺ وثانياً مستثمراً منزلة من كونه سيّداً شريفاً ذا مكانة ووجاهة في قومه قريش، فهو من كبار ساداتهم وأبرز عظمائهم، فظلّ مطاعاً مهيباً، منيعاً عزيزاً فيهم، وفوق هذا لإيماؤه بأحقية رسول الله ﷺ ورسالته المباركة، وأنّه لم يأت من السماء



إِلَّا بِالْحَقِّ وَالْحَقِّ وَحده...

إذن فقد كان السند الواعي والحقيقي لرسول الله ﷺ من كبرياء قريش؛ من بطشها وأذاها للذين تجسّدا وظهرها منها بعد أن رأت أن دعوة رسول الله ﷺ تقوّض مصالحها وسلطانها بين القبائل... حتى ترك رحيله إلى ربّه في السنة العاشرة للبعثة النبويّة أي قبل ثلاث سنوات من الهجرة رسول الله ﷺ يتحمل ما تنوء بحمله الجبال! خاصةً وقد أعقب رحيل عمّه رحيل شريكة حياته ونصيرته أمّ المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها، فما كاد ﷺ يخفّ حزنه على عمّه رضوان الله عليه حتى فجع بموتها فسمّي عام الحزن!

وهكذا هم بنو هاشم في ذريتهم الصالحة من بعد رسول الله ﷺ كما يذكر الرازي في عداد الأقوال عن تفسير الكوثر بأولاد الرسول ﷺ، والقول الثالث: الكوثر: أولاده، قالوا: لأنّ هذه السورة إنّما نزلت ردّاً على من عابه عليه السلام بعدم الأولاد، فالمعنى أنّه يعطيه نسلًا يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قتل من أهل البيت رضي الله عنهم، ثمّ العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أميّة في الدنيا أحد يُعبأ به. ثمّ انظر، كم كان فيهم من الأكابر من العلماء كالباقر والصادق والكاظم والرضا رضي الله عنهم، وأمثالهم.

إنّ عقيل بن أبي طالب لا تنقصه حكمة وعزّة نفس ونطق بالحقّ، فهو وإن جمعته بالخصوم الحاجة والضرورة، لكنه لم يساوم على مبادئه وعلوّ نفسه وحسبه، وقد شهدت له حواراته، وشهدوا له بفصاحة لسانه، وقوّة جوابه المُسكت لمن يتعرض له. ولكنه ضحية ظروف معيشية صعبة أحاطته، وقد كبر سنّه وكثرت عياله، واتسعت حاجته، وسخت يده وجادت نفسه، أو أنّ حالته في لقاء الخصم؛ معاوية ومن هو على شاكلته تشبه حالة غيره من أصحاب الإمام عليّ رضي الله عنهما الذين وفدوا على معاوية بعد رحيل الإمام عليّ إلى بارئه؛ إمّا لمصالح يرونها وإمّا درءاً للمفاسد، هذا على القول بأنّه لم يذهب إلى معاوية في حياة الإمام عليّ بل بعد وفاته رضي الله عنه كما عليه عدد من الأدلة... وإلّا



فإنه لم يرحل إلى معاوية خوفاً منه ولا صاغراً، فهو بأبي الضيم والذل، ولا يخلو قطعاً من شجاعة وصلابة وعزّة نفس، وحواراته وإجاباته ومواجهاته لمعاوية ولجلسائه خير شاهد على ذلك... فهو ابن أبي طالب، الذي روي عن النبي ﷺ أنه قال: لو ولد أبو طالب الناس كلّهم لكانوا شجعاناً!

ولنعم ما قاله كلُّ من ابن أمّ هانئ بنت أبي طالب؛ جعدة بن هبيرة المخزومي، أبرز أولادها، من الطويل مفتخراً:

أبي من بني مخزوم إن كنت سائلاً
فمن ذا الذي يبهي عليّ بخاله
وحسان بن ثابت: ...

ومن هاشم أمي لخير قبيل
كخالي عليّ ذي الندى وعقيل؟!
دعائم عزّ لا يزلن ومفخر
رضامٌ إلى طودٍ يروق ويقهر
عليّ، ومنهم أحمد المتخير
عقيلٌ، وماء العود من حيث يُعصر
عَساس إذا مضاق بالناس مصدر
عليهم، وفيهم ذا الكتاب المطهر
وقدامة بن موسى بن قدامة بن مظعون:

وخالي بغاة الخير تعلم أنه
وجدني عليّ ذوالتقى وابن أمّه
فنحن ولاية الخير في كل موطن
جدير بقول الحق لا يتوخر
عقيل و خالي ذوالجناحين جعفر
إذا ما ونى عنه رجال وقصّروا

لقد تعرّض الرجل لظروف صعبة في حياته، وبعدها لشبهات كثيرة وافتراءات، وتجاسر بعضهم عليه... صحيح أنه لم تقع له أحداث كبيرة، ولم تسجل له الوقائع



مواقف بارزة، ولم تذكر له دوراً يجذب الانتباه والاهتمام، ولا أظنّ هذا عيباً في الرجل؛ يحدش فيه أو يُساء إليه من خلاله، فهو في سيرته كأكثر الناس في زمانه وفي غير زمانه، قد يكون مشغولاً بوضعه الاجتماعي الذي أملته ظروفه، وبما يهّمه وعائلته وإعالتهم... لكنه مع هذا كان يحظى بمنزلة اجتماعية محترمة، فإذا ذُكر يومذاك النسابون وعلم النسب في مجلس كان له منزلة يُشار إليها بين القبائل، يُذكر كواحد منهم... وإذا ما وقعت قريش في منازعة احتكمت إلى أربعة كان عقيل بن أبي طالب واحداً منهم بل أولهم وهم: مخزّمة وحويطب بن عبد العزى وأبوجهم بن حذيفة.

إنّ عقيل بن أبي طالب شخصية لها خصوصياتها، قلّت عنها الأخبار الصحيحة، وإن كثرت فأغلبها قد يكون غير معتبر في أسانيده، ومتونه لا تخلو من تنافٍ واختلاق، ومن النقاش أخذاً وردّاً قبولاً ورفضاً، وبالتالي فهي كأكثر الأخبار التاريخية التي وصف المختصّون أغلبها بعلل عديدة كالتضارب فضلاً عن الضعف والإرسال وجهالة الراوي...، فإذا ما دققنا النظر التحقيقي فيها فلا يبقى حجر على حجر؛ لهذا اكتفينا بما يخصّ عقيلاً ببعض الملاحظات أحياناً على ما يرد في متونها وعند الضرورة!

إنّ بعض الأخبار والأقوال قد يكون ذاتاً قادحاً، متهماً متجاوزاً عليه، ومبالغاً في كونه محبباً للدين، إمّا الطمع في نفسه، وإمّا لكونه فقيراً مدقماً، أو بأنه ذو عيال كثيرة ويمرّ في فاقة وعوز، وغير هذا وذاك نجد بعضها مادحاً مدافعاً عنه، فهو رجل وقع بين تاريخ وسيرة قد يكون له دور في صناعتها، وبين أخبار كثيرة ظالمة جعلت منه ضحيةً كأكثر الناس، نعم لم يكن غنياً ولا تاجراً، حاله تشبه حال أكثر من حوله، ما أميل إليه أنه إنسان ذو علم بأيام الناس ومعرفة بأحوالهم وأنسابهم، مما يجعله يعرف ما يدور حوله ويُقيّم الرجال، وقد يكون بغضّ بعض أطراف قريش له؛ لأنه يعرف ما تحمّل أنسابهم من شين وعيب، وسلوكياتهم من سوء، سبباً فيما شُنّ عليه من اتهامات وافتراءات...



فصرتُ أحسَّهم!

وختاماً لكلامنا هذا، لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ عقيلاً وهو يُقيِّم نفسه، ويضعها في منزلتها دون أن يُبالغ فيها، وقد مرَّت به ظروف ومواقف قد لا تتناسب وشأنه ومكانته ونسبه، وكثر مبغضوه فاختلفوا أخباراً ضدَّه، وكتموا ما فيه خير له، حتى صار ضحية ما يُغيِّبه الحاجب في التراجم والسير، وما أكثر ضحاياها!

قد صدق حين قال: لا يخر أحدكم ولداً، فإنِّي كنتُ أعزُّ ولد أبي، فصرتُ أحسَّهم!

فعقيل لم يكتف حقيقته، ولم يدع فضلاً ليس مستحقاً له، بل يعترف ضمناً بفضل إخوته عليه، ولم يبخس درجتهم ومنزلتهم عليه، لقد صدق الرجل فهو أحسَّهم أي أقلَّهم حظاً وأدوهم منزلةً وفضلاً وأثراً، وهو ما أريد توكيده أنَّ الذي ينظر إلى شخصية عقيل، ويريد المقايسة بينها وشخصية أخيه الإمام عليٍّ عليه السلام، وهو الأفضل بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنَّه أساء له، ولا يريد انصافه والدفاع عنه، ووضع في محلِّه الذي قُدر له، بل ظلمه وانتقص منه، فعقيل لا يصحُّ أن يُقاس بشخصية لا مثيل لها بعد الرسول صلى الله عليه وآله... شخصية غطَّت معالمها ومناقبها بدرجات كثيرة على جميع من هم حولها، بما فيهم بنو هاشم، وإخوته، وحتى أئمة أهل البيت عليهم السلام وهم الحجج المعصومون المطهرون قد اعترفوا بتفوقها عليهم علماً وعبادةً وجهاداً... وأتمَّها الأفضل والحجَّة عليهم...!

وحتى لا يصحَّ أن يُقاس عقيل بأخيه جعفر ذي المقام العظيم، وصاحب الوسام الكبير حين استشهد في غزوة مؤتة؛ إذ عوَّضه الله تعالى عن يديه المقطوعتين بجناحين يطير بهما في الجنة حيث يشاء، فهو (ذو الجناحين) كما لقَّبه رسول الله صلى الله عليه وآله!

ولا حتى بأخيه طالب إن وجد، وإن صحَّ أنه كان يدعو أن تكون الغلبة لمحمد صلى الله عليه وآله

بقوله:

يا ربِّ إمَّا خرجوا بطالب في مقنب من تلکم المقانب



فاجعلهم المغلوب غير الغالب والرجل المسلوب غير السالب
فقتله المشركون وهم متوجهون إلى وقعة بدر الكبرى، وقد أكره طالب وعقيل
وعمّهما العباس وغيرهم من بني هاشم على الخروج إليها.

الولادة:

لعلّه ولد قبل الهجرة النبوية بأربعة وأربعين عاماً، وقيل قبل الفيل بعشر سنوات
في مكة المكرمة كما إخوته وأخواته ولدوا فيها، وهم جميعاً لأبوين هاشميين، فأبوه
أبو طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي... شبيهة بني هاشم، آلت
إليه زعامة قريش، وكان سيدها وشيخها، لم يتزوج كما يبدو من أخباره الصحيحة غير
ابنة عمّه السيدة الجليلة الهاشمية فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف بن قصي،
وهي أمُّ أولاده عقيل وأخوته وأخواته، والتي حظيت بمنزلة عظيمة عند رسول الله ﷺ
ومن أقواله فيها: «أمِّي بعد أمِّي التي ولدتني».

متمناً رعايتها له، شاكراً معرفها معه طيلة سبعة عشر عاماً، فقد كانت تفضله
على أولادها الأربعة أيما تفضيل، فتركت في حياته آثاراً طيبة، جعلته يلبسها قميصه
بعد وفاتها، ويضطجع معها في قبرها حتى التفت إليه الصحابة، وقالوا له: ما رأيناك
يا رسول الله صنعت هذا! فقال ﷺ: «إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أبرّ بي منها، وإنما
ألبستها قميصي؛ لتكسى من حلل الجنة، واضطجعت معها؛ ليهُونَ عليها!...

ويمكننا القطع أنّ عقيلاً يُعدُّ هو الولد الأكبر لأبي طالب رضوان الله عليه، لولا
ما ذكر من أنّ له ولداً اسمه طالب، وقد كُني به، فإذا ما غُصَّ النظر عن طالب - كما
في خبر أو رواية - أنه أكبر أولاد أبي طالب. فهم إما ثلاثة إخوة، وعقيل أكبرهم،
وأوسطهم جعفر وأصغرهم سنّاً عليٌّ عليه السلام. وإما أربعة كما في قول أكبرهم طالب،
استناداً على رواية الكلبي (ت ٢٠٤هـ) عن أولاد أبي طالب: طالب أكبرهم وعقيل



وجعفر وعليّ أصغرهم، والفارق الزمني في الولادة بين كلّ أخ وآخر عشر سنوات. وهو أمر يثير الاستغراب ...

وأما أخواته فهنّ: أمّ هانئ وجمانة، وفي قول: وأسما، وريطة، ولربما كانت ولادة فاطمة بنت أسد لبناتها على شاكلة أبنائها، كلّ عشر سنوات، وذلك بولادة كلّ منهن بعد كلّ واحد منهم بخمس سنوات، فتكون ولادة أمّ هانئ عام ٤٨ قبل الهجرة، وجمانة عام ٣٨ قبل الهجرة، وريطة عام ٢٨ قبل الهجرة، وأسما إن ثبت أنها ابنته عام ١٨ قبل الهجرة ...

وهناك رواية عن الهيثم بن عدي عن الإمام جعفر بن محمد عليه السلام قوله: «كان بين جعفر وعليّ عليهما السلام تسع سنين وجعفر أكبرهما، وبين جعفر وعقيل أربع». فيما هناك رواية ذكرها المسعودي أشار فيها إلى أنّ الفارق الزمني بين عقيل وجعفر ستان فقط.

وابن الأثير يقول: عقيل أخو عليّ وجعفر لأبويهما وهو أكبرهما؛ وكذا يعدّ الذهبي عقيلاً أكبر إخوته وآخرهما موتاً. فالروايات مختلفة، لكنها متفقة على أنّ عقيلاً - إذا استُثني طالب المختلف في وجوده - هو أسنّ من جعفر، وأنّ عليّاً عليه السلام هو أصغر إخوانه سنّاً وأفضلهم!

كناه:

اشتهر بأنه أبو يزيد إن كان له يزيد، فقد ذكر والده عدّة كنى، منها أنه أبو يزيد، وقيل: إنه ليس له ولدٌ بهذا الاسم، وقيل: كان لعقيل بن أبي طالب من الولد يزيد - وبه كان يكنى - وسعيد، وأمّهما أمّ سعيد بنت عمرو بن يزيد بن مدلج، من بني عامر ابن صعصعة.

يقول الذهبي: عقيل بن أبي طالب الهاشمي ... وله أولاد: مسلم، ويزيد، وبه كان



يكنى،... ولعقيل كنى أخرى غير مشهورة؛ منها أبو فضاة، وأبو عيسى^١.

الكفالة:

في موضوع كفالة أولاد أبي طالب، كثرت الأخبار، فقد ذكرت أن قريشاً أصابتها أزمة معيشية وصفت بالشدة، أو أنها أصيبت بالجدب فوق الغلاء غير المقدور عليه من أغلب الناس، وبما أن أبا طالب كان ذا عيال كثيرة، فنسبت الأخبار إلى أن رسول الله ﷺ قال لحمزة والعباس وفي رواية للعباس وحده: «إن أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترون من هذه الأزمة، فانطلق بنا نخفف من عياله، فدخلوا عليه وطلبوه بذلك، فقال: إذا تركتم لي عقيلاً فافعلوا ما شئتم!»!

وعن ابن هشام: إن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة، وكان أبو طالب ذا عيال كثير، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً... فقال العباس: نعم، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له: إنما نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما

١. انظر في هذا كله شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١: الصفحة مقدمة المحقق ٤، ١٠: ٧٨ عن زهر الآداب ١: ٥٩؛ السيرة النبوية، لابن هشام ١: ١١٠ و٤: ٢٧، ٢٦ من شعر حسان في بكاء قتلى مؤتة؛ مفاتيح الغيب، الرازي (ت ٦٠٦ هـ): الآية من سورة الكوثر، القول الثالث؛ أنساب الأشراف، للبلاذري ٢: ٧٩، ٧٦، ٢٣ عن المدائني؛ البيان والتبيين، للجاحظ ٣: ٣٢٤-٣٢٥؛ الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر: عقيل بن أبي طالب؛ الاستيعاب في معرفة الصحابة، لابن عبد البر: أم هانئ؛ الطبقات، لابن سعد ٨: ١٥١؛ أسد الغابة، ابن الأثير ٥: ٦٢٤؛ سير أعلام النبلاء، للذهبي ١: ٢١٨، ١٥٨، رقم: ٣٥؛ معجم أنصار الحسين - الهاشميين - الجزء الأول، دائرة المعارف الحسينية، محمد صادق محمد الكرباسي: ٤٦؛ مجلة ميقات الحج، العدد ١٤ الخاص بالإمام عليؑ، والعدد ١٨: ١٢٢ أبو طالب مأوى الرسول والرسالة، زوجته فاطمة بنت أسد: ١٣٠-١٣٢؛ أم هانئ، في العدد ٥٦ مجلة ميقات الحج.



هم فيه، فقال أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما... فأخذ الرسول ﷺ عليّاً، وأخذ العباس جعفرراً ولم يزل عند العباس حتى أسلم واستغنى.

وفي رواية؛ فقال رسول الله ﷺ لعمّه العباس - وكان من أيسر بني هاشم -: «يا أبا الفضل، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه نخفف عنه من عياله، آخذ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً، فنكفلهما عنه». فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى أتيا أبا طالب، فقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى تنكشف عن الناس ما هم فيه. فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً، فاصنعا ما شئتما!

فأخذ رسول الله ﷺ عليّاً، وعمره ست سنين فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفرراً، فضمّه إليه، فلم يزل عليّاً مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فأتبعه وصدقه. ولم يزل جعفر مع العباس حتى أسلم، واستغنى عنه.

وفي رواية أخرى أن عقيلاً كان من حصّة العباس. وفي خبرٍ كان طالب من حصّته. ولعلّه إن صحّت هذه الأخبار، وهناك مثلها، أبقى عقيلاً عنده لحاجته إليه، لا لأنه كان يفضلّه على بقية أولاده فهو فعلاً رجل في قوّة شبابه ونشاطه؛ حتى ذكرت الأخبار أنه في صفاته البدنيّة عرف بقوّته، واستمرت معه وإن عمّر طويلاً، فقد كان قويّ الجسم، شديد البنية، شُوهد مرّة وهو شيخ كبير يحمل دلو ماء كبيراً!

هذا وكان عمر طالب وقت هذه الكفالة لا يقلُّ عن ست وثلاثين سنة. وأما عقيل فكان عمره خمسة وعشرين عاماً أو يزيد قليلاً، وجعفر فكان عمره لا يقلُّ عن ستة عشر عاماً، فأبيّ عيال هؤلاء وهم رجال يستطيعون أن يجِدُوا لِيُوفِرُوا القمة العيش؟! نعم قد يكونون في حاجة، راح يسدّها عنهم، وأيضاً بحكم مسؤوليته وزعامته التي تحتاج إلى الإنفاق خاصة موضوع سقاية الحاج، وقد كلفته كثيراً... فقد كانت السقاية قبل الإسلام وتشمل الرفادة أيضاً - وهي إطعام الحاج - إلى هاشم بن عبدمناف، وفيه



يقول الشاعر:

عمرو العلى هشم الثريد لقومه و رجال مكة مستنون عجاف

وبعده صارت رفاة وسقاية الحاج أيام الموسم لشيبة الحمد عبدالمطلب بن هاشم،
وبعده صارت بيد ابنه شيخ الأباطح أبي طالب، ومنه انتقلت لأخيه العباس؛ لسبب
رواه البلاذري وابن سلام وغيرهما: وهو أن أبا طالب كان يستدين لسقاية الحاج متى
أعوزه الحال، فقال لأخيه العباس - وكان امرءاً تاجراً أيسر بني هاشم وأكثرهم مالاً -:
قد رأيت ما دخل عليّ وقد حضر الموسم، ولا بدّ لهذه السقاية من أن تقام للحاج،
فأسلفني عشرة آلاف درهم، فأسلفه العباس إياها، فقام أبو طالب تلکم السنة بها
وبما كان عنده. فلما كانت السنة الثانية ووافى الموسم قال لأخيه العباس: يا أخي إنَّ
الموسم قد حضر ولا بدّ للسقاية من أن تقام، فأسلفني أربعة عشر ألف درهم، فقال:
إني أسلفتك عام أول عشرة آلاف درهم، ورجوت أن لا يأتي عليك الموسم حتى
تؤديها فعجزت عنها وأنت تطلب العام أكثر منها، وترجو أن لا يأتي عليك الموسم
حتى تؤديها، فأنت عنها أعجز اليوم، ههنا أمر لك فيه فرج، أدفع إليك هذه الأربعة
عشر ألف درهم، فإن جاء الموسم من قابل ولم توفِّ حقِّي الأول وهذا، فأمر الرفادة
والسقاية إليّ دونك، فأقوم بها وأكفيك هذه المؤنة إذ عجزت عنها، فأجابه أبو طالب
إلى ذلك.

و روى ابن سلام: أن العباس قال: ليحضر هذا الأمر بنو فاطمة، ولا أريد سائر
بني هاشم، ففعل أبو طالب، وأسلفه العباس المال بمحضر منهم ورضى.

فلما كان الموسم الثالث من قابل لم يكن بدُّ من إقامة الرفادة والسقاية، إزداد
أبو طالب عجزاً وضعفاً، ولم تمكنه النفقة وأعدم حتى أخذ كلَّ رجل من بني هاشم
ولداً من أولاده يحمل عنه مؤونته. فقال العباس لأخيه أبي طالب: قد أفد الحجّ وليس
إلى دفع حقِّي من وجه، وأنت لا تقدر أن تقيم.



قال البلاذري: فصارت الرفادة والسقاية إلى العباس، وأبرأ أبا طالب مما له عليه...

وبما أننا ذكرنا السقاية، فمن المناسب أن نشير إلى أن عقيلاً لم يكن بعيداً عن هذه الوظيفة، وما تكلفه من المال، وهي تُعدُّ منقبةً كبيرةً، لطالما كان يتفاخر بها رجال تلك البيئة في مكة وأطرافها، ويسعون لها بكلِّ رغبة وإخلاص وتضحية بالمال والجهد... ومع كون عقيل كما وصفته بعض الأخبار فقيراً وذا عيال، فقد كان من سُقاة حجّاج البيت الحرام، روى ابن سعد عن ابن جريج عن عطاء (عطاء بن أبي رباح) أنه قال: رأيت عقيل بن أبي طالب شيخاً كبيراً بعل العرب، أو يفتل الغرب، قال: وكان عليها غروب ودلاء، قال: ورأيت رجلاً منهم بعد ما معهم مولى، في الأرض يلفون أرديتهم، فينزعون في القميص حتى أن أسافل قميصهم لمبتلة بالماء، فينزعون قبل الحجّ وأيام منى وبعده. وكان واحداً من الذين حفروا آباراً في الجاهلية بعد زمزم؛ بئر في دار محمد بن يوسف البيضاء؛ حفرها عقيل بن أبي طالب، ويقال: حفرها عبد شمس بن عبد مناف، ونثلهما عقيل بن أبي طالب يُقال لها: الطوى. كما ذكر الأزرقى.

الحبُّ لعقيل !

وردت أخبار في هذا الحبِّ، فقد استند الذاهبون إلى أن أبا طالب كان يحبُّ عقيلاً حبّاً شديداً بأقوال؛ منها: قول أبي طالب لرسول الله ﷺ ولعمّه العباس بن عبد المطلب: «إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما»!

فعن ابن سعد عن أبي إسحاق أن رسول الله ﷺ قال لعقيل بن أبي طالب: «يا أبا يزيد، إني أحبُّك حبِّين: حبّاً لقربتك، وحبّاً لما كنت أعلم من حبِّ عمِّي إياك». «إني لأحبُّك يا عقيل حبِّين، حبّاً لك وحبّاً لحبِّ أبي طالب لك»!

وفي رواية عن عليٍّ رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أعطي لكلِّ نبيٍّ سبعة رفقاء نجباء، وأعطيتُ أنا أربعة عشر». فذكر منهم عقيلاً.



وفي خبرٍ .. وقد أطعمه رسول الله ﷺ بخير مئة وأربعين وسقاً كل سنة...

وقد روى الصدوق بإسناده عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال عليؑ لرسول الله ﷺ: «يا رسول الله إنك لتحب عقيلاً؟» قال ﷺ: إني والله، إني لأحبه حبين؛ حباً له، وحباً أحب أبي طالب له، وإن ولده لمقتول في محبة ولدك، فدمع عليه عيون المؤمنين، وتصلّى عليه الملائكة المقربون، ثم بكى رسول الله ﷺ حتى جرت دموعه على صدره، ثم قال: إلى الله أشكو ما تلقى عترتي من بعدي!

عن عبد الله بن عقال، عن أبيه، عن جدّه عقال بن أبي طالب... فقال رسول الله ﷺ: «... يا عقال والله إنني لأحبك لخصلتين: لقرابتك، ولحبّ أبي طالب إياك. وكان أحبهم إلى أبي طالب وأما أنت يا جعفر فإنّ خلقك يشبه خلقي، وأنت يا عليّ فأنت مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبيّ بعدي».

وهناك حديث نذكره وإن وصف بالغرابة، وهذا نصّه:

نقل الصدوق بإسناده، قال: قال رسول الله ﷺ لعليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والعباس بن عبد المطلب وعقال: «أنا حرب لمن حاربكم، وسلم لمن سالمكم».

قال مصنف هذا الكتاب رحمه الله: ذكر عقال وعباس غريب في هذا الحديث لم أسمع عن محمد بن عمر الجعابي في هذا الحديث.

قال الشيخ التستري: إنه وإن كان حديثاً غريباً، كما قال الصدوق، إلا أنّ مضمونه صحيح؛ لأنّ العباس وعقيلاً كانا بعد النبيّ ﷺ مع أمير المؤمنين عليّؑ، فالمحارب لهما في الحقيقة محارب لأمر المؤمنين عليّؑ.

وقفتان نافعتان:

الأولى: تتعلق بإيمان أبي طالب، وهو ما ذكره الشيخ الأميني في كتاب الغدير: عن رسول الله ﷺ أنه قال لعقال بن أبي طالب: «يا أبا يزيد! إني أحبك حباً لقرابتك



مني، وحباً لما كنت أعلم من حب عمي أبي طالب إياك».

أخرجه أبو عمر في الاستيعاب ٢: ٥٠٩، والبغوي، والطبراني كما في ذخائر العقبى: ٢٢٢، وتاريخ الخميس ١: ١٦٣، وعماد الدين يحيى العامري في بهجة المحافل ١: ٣٢٧، وذكره والهيثمي في مجمع الزوائد ٩: ٢٧٣ وقال: رجاله ثقات.

ثم بعد أن ذكر الحديث ومصادره يقول: هذا شاهد صدق على أن النبي ﷺ كان يعتقد إيمان عمه، وإلّا فما قيمة حب كافر لأي أحد حتى يكون سبباً لحبه ﷺ أو لآلده. وقول رسول الله ﷺ هذا لعقيل كان بعد إسلامه كما نص عليه الإمام العامري في بهجة المحافل، وقال: وفيها إسلام عقيل بن أبي طالب الهاشمي، ولما أسلم قال له النبي ﷺ: يا أبا يزيد... إلخ.

وقال جمال الدين الأشخر اليميني في شرح البهجة عند شرح الحديث: ومن شأن المحبّ محبة حبيب الحبيب. ألا تعجب من حب رسول الله ﷺ أبا طالب إن لم يك معتقفاً لدينه - العياذ بالله - ومن إعرابه عنه بعد وفاته. ومن حبه عقيلاً لحبّ أبيه إياه؟!!

هذه الأولى للشيخ الأميني.

وأما الثانية، فأقول بإيجاز: لا بدّ من عزل موضوع الإمام عليّ عليه السلام، فكفالة رسول الله ﷺ له لا علاقة لها بما يصفونه بالأزمة، وقعت أو لم تقع، وإنما هو كما نسب إلى النبي ﷺ أنه قال: «اخترت من اختار الله لي عليكم عليّاً».

فهو في كفالته منذ كان في أيامه الأولى، بل في يومه الأول بدليل قول عليّ عليه السلام:

«وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ الْخُصِيصَةِ، وَضَعَنِي فِي حِجْرِهِ وَأَنَا وَلَدٌ يُضْمَنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْتُمُنِي فِي فِرَاشِهِ وَيُؤَمِّسُنِي جَسَدَهُ، وَيُشْمِنِي عَرَفَهُ، وَكَانَ يَمْضَعُ الشَّيْءَ ثُمَّ يَلْقَمُنِيهِ... وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرًا مِمَّنْ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا، وَيَأْمُرُنِي بِالْاِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ



يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرَاءَ، فَأَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ،
غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا، أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةَ
وَأُسْمُ رِيحِ النَّبُوءَةِ...»^١.

أزواجه وذريته:

يبدو من خلال الأخبار أنه تزوج بأكثر من واحدة، فهو رجل كان مزواجاً، منهنَّ:
أم سعيد من بني عامر بن صعصعة، وأنجبت له يزيداً وقد كُني به، وسعيداً. وأم
البنين بنت الثغر بن كعب بن عامر.

وأنَّ واحدةً من زوجاته هي فاطمة بنت عتبة بن ربيعة، وعقيل هو رابع زوج لها،
وهي القائلة:.. يا بني هاشم، لا يحبكم قلبي أبداً، أين عمِّي؟ أين أخي؟...

ولا غرابة في قولها وموقفها هذا، فهي أخت هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان بن
حرب ووالدة معاوية، وقد عرفت بأكلة الأكباد، والصحيح لائكة الأكباد على إثر
أخذها لكبد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب في وقعة أحد، بعد أن كمن وحشي له
خلف صخرة، وزرقه بالمزراق فأصابه فسقط شهيداً، فما كان من هند إلا أن بقرت عن

١. انظر في هذا كله: السيرة النبوية، لابن هشام ١: ٢٢٩، ١٦٢؛ تاريخ الطبري ٢: ٣١٣؛ بحار الأنوار،
للعلامة المجلسي ١٨: ٢٠٩، ٢٠٨، وفي أجزاء أخرى، ٣٥: ٤٣، ٢٥، ٢٤، ٣٨: ٢٣٧؛ المستدرک علی
الصحيحين للحاكم ٣: ٥٦٧ الحديث رقم (٦٤٦٣)؛ وأنساب الأشراف، للبلاذري ١: ٧٥، ٢:
٣٤٦؛ وانظر المقالة: العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ في العدد ٥٤ من هذه المجلة، الحلقة
١؛ أخبار مكة، للأزرقي ٢: ٥٦، ٢٢٣-٢٢٤؛ مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور: العباس بن عبد
المطلب؛ مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب ٢: ١٧٩؛ طبقات ابن سعد ٤: ٤٤؛ المعجم الكبير،
للطبراني ١٧: ١٩١؛ كتاب الغدير، للشيخ الأميني ٧: ٢٠٠-٣٧٦؛ عيون أخبار الرضا، للشيخ
الصدوق ١: ٦٤ رقم ٢٢٣؛ قاموس الرجال، للتستري ٦: ٢٤، الرقم ٣٨٩٩؛ نهج البلاغة، خطب
الإمام علي عليه السلام ٢: ١٥٧؛ وانظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ١٣: ١٩٧، ١٣: ١٩٨ و١٩٩؛
طبقات ابن سعد ٤: ٤٤.



كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع أن تأكلها، أو فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها؛ ثم علت على صخرة مشرفة، فصرخت بأعلى صوتها، فقالت:

نحن جزيناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمه بكري
شفيت نفسي وقضيت نذري شفيت وحشي غليل صدري
فشكر وحشي على عمري حتى ترم أعظمي في قبري.

وقد نسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال: أأكلت منه شيئاً؟ قالوا: لا. قال: ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة النار!

وقد سجلوا أن فاطمة بنت عتبة، لما تقدّم عقيل لها، اشترطت عليه، قائلة: تضمن لي وأنفق عليك. أي أن لا يطلقها وتنفق عليه، فقد كانت كثيرة المال... ومع هذا ظلّت الخلافات بينهما كثيرة، ولطالما توسط بينهما عبد الله بن عباس ومعاوية بن أبي سفيان بطلب من عثمان بن عفان لحلّها، حتى قالت له يوماً: يا بني هاشم، لا يجبّكم قلبي أبداً، أين عمّي؟ أين أخي؟ كأنّ أعناقهم أباريق الفضة، ترى آناهم قبل شفاهم. قال لها عقيل: إذا دخلت جهنم، فخذني على شمالك.

وفي خبر؛ أن عقيل بن أبي طالب دخل عليها، فقالت له: أين عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة؟ فيسكت عنها، حتى إذا دخل عليها يوماً وهو برم، قالت: أين عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة؟

قال: عن يسارك في النار إذا دخلت، فشدّت عليها ثيابها، فجاءت عثمان، فذكرت ذلك له، فضحك... أو أنها شكته إلى عثمان، فأراد عبد الله بن عباس أن يفرق بينهما، فقالت: والله ما أريد بأبي يزيد بدلاً. فانصرفا^١.

١. مسند الإمام أحمد بن حنبل ٧: ٤١٨-٤١٩ رقم ٤٤١٤؛ فتح الباري، شرح صحيح البخاري ٧: ٣٥٢؛ تفسير القرطبي، سورة آل عمران: الآية ١٢٢؛ والأنساب للبلاذري: ٧٢... ٧١



(أما ذريته:) فقد ذكروا أنه رزق بثمانية عشر ولداً، ولد مسلماً وعبد الله الأصغر وعبيد الله وأم عبد الله ومحمداً ورملة لأم ولد يقال لها: حلية، وعبد الرحمان وحمزة وعلياً وجعفر الأصغر، وعثمان وزينب، وفاطمة تزوجها علي يزيد بن ركانة من بني عبد المطلب بن عبد مناف. وفاطمة وأسما تزوجها عمر بن علي بن أبي طالب وأم هانئ لأمهات شتى. ويزيد وسعيد، أمهما أم عمر بنت عمر الكلابية. وأبا سعيد وجعفر الأكبر وعبد الله الأكبر، أمهم أم البنين كلابية. وبعضهم يقول: أم أنيس. وقد انحصر عقبه بأحد أبنائه، ويُقال: إن ابنه محمداً ترك عقباً له وهو عبد الله وحفظت فيه ذرية عقيل دون غيره من الذكور...

وفي كربلاء:

وبما أننا ذكرنا ذريته، وقد حظي عدد منها بالشهادة في وقعة كربلاء في العاشر من محرم سنة ٦١ هجرية، وقبلهم بقليل استشهد أخوهم الأفضل مسلم في الكوفة، فكان أول من استشهد من أصحاب الإمام الحسين عليه السلام... فمن المناسب أن نستعجل ذكرهم في واقعة الطف في كربلاء... فنقول: إن لم يُوفق عقيل بن أبي طالب - علي قول - أن يكون جندياً فيما شهده الإمام عليه السلام وجنده ومريدوه من وقائع قتاله للناكثين في معركة الجمل في البصرة، والقاسطين في صفين، والمارقين في النهروان.

يقول ابن أبي الحديد وهو يترجم لعقيل: ولم يشهد مع أخيه أمير المؤمنين عليه السلام شيئاً من حروبه أيام خلافته، وعرض نفسه وولده عليه، فأعفاه، ولم يكلفه حضور الحرب. إلا أن ابن عبد البر يذكر أن عقيلاً ممن شهد هذه الوقائع حيث يقول:

شهد عبد الله بن عباس مع علي رضي الله عنهما الجمل و صفين والنهروان، وشهد معه الحسن والحسين ومحمد بنوه، وعبد الله وقثم ابنا العباس، ومحمد وعبد الله وعون بنو جعفر بن أبي طالب، والمغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل ابن أبي



طالب، وعبد الله بن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب.

فيما هناك فقرة تضمّنها جواب للإمام عليّ عليه السلام بعثه إلى عقيل، يظهر منه إعفاه من ذلك أي من القتال معه: وهذا نصُّ كتابه لأخيه أمير المؤمنين عليه السلام، وجواب الإمام عليه السلام عنه... فكتب إليّ يا ابن أمي برأيك، فإن كنت الموت تريد، تحملت إليك ببني أخيك، وولد أبيك، فعشنا معك ما عشت، ومنتنا معك إذا مت، فوالله ما أحبّ أن أبقى في الدنيا بعدك فواقاً. وأقسم بالأعزّ الأجلّ، إن عيشاً نعيشه بعدك في الحياة لغير هنئ ولا مرئ ولا نجيع. والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

أما نصُّ جوابه عليه السلام فهو:.. «وأما ما عرضت به من مسيرك إليّ بنيك وبني أبيك، فلا حاجة لي في ذلك، فأقم راشداً محموداً، فوالله ما أحبّ أن تهلكوا معي إن هلكت، ولا تحسبن ابن أمك ولو أسلمه الناس متخشعاً ولا متضرعاً، إنه لكم قال أخو بني سليم:

فإن تسأليني كيف أنت فإنني صبور على ريب الزمان صليب
يعزُّ عليّ أن تري بي كآبة فيشمت عاد أو يساء حبيب!

إن لم يوفق، فقد وفق عدد ليس بالقليل من أبنائه للحضور في كربلاء والتشرف بوسام الشهادة بين يدي سيد الشهداء ابن عمّهم الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب سلام الله عليهما، ورضي الله عنهم وعمّن كان معه من الشهداء من أهل بيته وأنصاره. يقول البلاذري: فقتل من بني عقيل مع الحسين عليه السلام جعفر الأكبر ومسلم، وعبد الله الأكبر، وعبد الرحمان، ومحمد بن عقيل. ويُقال: إن الذين قتلوا مع الحسين ستة، قال الشاعر:

عين جودي بعبرة وعويل واندبني إن نذبت آل الرسول
تسعة منهم لصلب عليّ قد أيدوا وستة لعقيل

ويروى وخسة لعقيل. وسبعة. وتسعة...



هذا وكان أبرزهم وأهمهم مسلم، قال عنه ابن حبان: مسلم بن عقيل بن أبي طالب الهاشمي كنيته أبو داود، وكان أشبه ولد عبد المطلب بالنبي ﷺ، أدرك جماعة من أصحاب النبي ﷺ.

وعن البخاري... عمّن سمع أبا هريرة يقول: ما رأيت من ولد عبد المطلب أشبه بالنبي ﷺ من مسلم بن عقيل!
وقد عرف بكونه قوياً مقاتلاً شجاعاً، ومما ذكر عنه أنه أسد ضرغام، وسيف حسام، في كفّ بطل همام، من آل خير الأنام!
وفي وصف آخر: كان مثل الأسد... كان من قوته أنه يأخذ الرجل بيده، فيرمي به فوق البيت!

وكان إذا حمل ارتجز:

هو الموت فاصنع ويك ما أنت صانع فأنت لكأس الموت لا شك جارح
فصبر لأمر الله جلّ جلاله فحكم قضاء الله في الخلق ذائع.

وكان مناصر أعمّه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، ففي وقعة صفين كان على ميمنة جيش الإمام عليّ عليه السلام إلى جنب الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام، وعبد الله بن جعفر في قول.

ابن شهر آشوب: فلما استهل صفر سنة سبع وثلاثين أمر عليّ عليه السلام، فنودي بالشام والاعذار والانداز، ثم عبى عسكره فجعل على ميمته الحسن والحسين عليهما السلام، وعبد الله بن جعفر ومسلم بن عقيل، وعلى ميسرته محمد بن الحنفية ومحمد ابن أبي بكر وهاشم بن عتبة المرقال،...

ولم يذكره نصر بن مزاحم في كتابه وقعة صفين في قتال الإمام عليّ عليه السلام للقاسطين، ولا الشيخ المفيد في كتابه الجمل في قتال الإمام عليّ عليه السلام للناكثين.

وأيضاً كان ناصرًا لابن عمّه الإمام الحسين عليه السلام الذي أرسله سنة ستين هجرية في



مهمّة إلى الكوفة..، وقاتل جند ابن زياد وهو يردّد قائلاً:

أقسمت لا أقتل إلا حرّاً وإن رأيتُ الموت شيئاً نُكراً ...

حتى أئخذ بالجراح وعجز عن القتال، فضرب عنقه، واستشهد في التاسع من ذي الحجة من السنة المذكورة، قبل واقعة كربلاء في العاشر من المحرم سنة ٦١ هجرية، فكان أول شهيد في حركة الإمام الحسين عليه السلام ومشروعه في الإصلاح... وله سلام الله عليه ضريح يُزار في مسجد الكوفة، أو بالجوار الملاصق للمسجد.^١

حصار الشَّعب:

شعب أبي طالب، وفي أصله كان ملكاً لعبد المطلب، ولأنه ضمّ دور بني هاشم ومنازلهم عرف بشعب بني هاشم، ويُقال: إنه يعرف اليوم بشعب عليّ وبشعب أبي يوسف. هذا من حيث الاسم، وأما أصل كلمة شعب بكسر الشين فهو ما انفرج من الأرض بين جبلين، أو هو الفجوة أو الوادي بينهما.

وفعلاً هو وإن وقع بمحاذاة أكبر جبال مكة المكرمة وهو أبو قبيس، فهو بين هذا الجبل وجبل الخندمة، بالقرب من المسجد الحرام خلف الصفا والمروة.

في السنة السادسة من البعثة النبوية المباركة، ولمدّة ثلاث سنوات، حاصر زعماء الشرك في مكة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن معه من بني هاشم في هذا الشعب، فضلاً عن

١. انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ١١٨-١٢٠، ١١: ٢٥٠؛ كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر ٣: ٣٣٩ رقم ١٥٨٨ ترجمة عبد الله بن عباس؛ أنساب الأشراف، للبلاذري ٢: ٦٩-٧٠ عقيل بن أبي طالب؛ وفي هامش الصفحة ٦٩ قول ابن سعد في ترجمة عقيل من الطبقات ٤: ٤٢ ط بيروت؛ كتاب الثقات، لابن حبان ٥: ٣٩١؛ التاريخ الكبير، للبخاري ٧: ٢٦٦ رقم ١١٢٨؛ كتاب بحار الأنوار، للعلامة المجلسي ٤٤: ٣٥٤؛ مقاتل الطالبين، لأبي الفرج الأصفهاني: ١٠٦ وهامشها، منشورات الشريف الرضي؛ مناقب آل أبي طالب، لابن شهر آشوب ٢: ٣٥٢؛ وقعة صفين لنصر بن مزاحم؛ الجمل، للشيخ المفيد.



مقاطعتهم بيعاً وشراءً وزواجاً ولا معاشرة معهم ولا مع مَنْ أسلم، بل ويدافعون عن كلِّ من يُعاديهم، ويجرضون على النيل منهم،... وقد بأت جميع محاولات ومساعي قريش التأميرية هذه بالفشل الذريع بفضل من الله تعالى ورحمة المؤمنين!

يبغي من ذلك مشركو قريش لا فقط التضييق على رسول الله ﷺ وبني هاشم ومنهم عقيل بن أبي طالب في الشعب المذكور، وعلى بقية المسلمين، بل أكثر وأخطر من ذلك، وحتى نتيقن أهداف قريش من فرض الحصار عليهم، والاضرار بهم، نكتفي بقراءة كتاب الإمام عليّ عليه السلام لمعاوية بن أبي سفيان، الذي يقول فيه:

«فأراد قومنا قتل نبيّنا، واجتياح أصلنا، وهموا بنا الهموم، وفعلوا بنا الأفاعيل، ومنعونا العذب، وأحلسونا الخوف، واضطرونا إلى جبل وعر، وأوقدوا النار الحرب! فعزم الله لنا على الذبّ عن حوزته، والرمي من وراء حومته، مؤمناً يبغي بذلك الأجر، وكافرنا يحامى عن الأصل، ومَنْ أسلم من قريش، خلواً نحن فيه، بحلف يمنعه، أو عشيرة تقوم دونه، فهو من القتل بمكان آمن. وكان رسول الله ﷺ إذا احمر البأس، وأحجم الناس، قدم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حرّ السيوف والأسنة، فقتل عبيدة بن الحارث يوم بدر، وقتل حمزة يوم أحد، وقتل جعفر يوم مؤتة، وأراد مَنْ لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة، ولكن آجالهم عجلت، ومنيته أخرت!...».

وفي تفسير قوله عليه السلام: «مؤمناً يبغي بذلك الأجر، وكافرنا يحامى عن الأصل، ومَنْ أسلم من قريش خلواً نحن فيه لحلف يمنعه، أو عشيرة تقوم دونه، فهم من القتل بمكان آمن».

يقول ابن أبي الحديد: إنّ بني هاشم لما حُصروا في الشعب بعد أن منعوا رسول الله ﷺ من قريش، كانوا صنفين مسلمين وكفاراً، فكان عليّ عليه السلام وحمزة بن عبد المطلب مسلمين. واختلف في جعفر بن أبي طالب هل حُصر في الشعب معهم أم لا؟ فقيل: حُصر في الشعب معهم، وقيل: بل كان قد هاجر إلى الحبشة، ولم يشهد حصار



الشعب، وهذا هو القول الأصح.

وكان من المسلمين المحصورين في الشعب مع بني هاشم عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف، وهو وإن لم يكن من بني هاشم إلا إنه يجري مجراهم؛ لأن بني المطلب وبني هاشم كانوا يداً واحدة، لم يفترقوا في جاهلية ولا إسلام. وكان العباس رحمه الله في حصار الشعب معهم، إلا أنه كان على دين قومه، وكذلك عقيل بن أبي طالب، وطالب بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وابنه الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وكان شديداً على رسول الله ﷺ، يُغضه ويهجوه بالأشعار، إلا أنه كان لا يرضى بقتله، ولا يقارّ قريشاً في دمه، محافظةً على النسب وكان سيّد المحصورين في الشعب ورئيسهم وشيخهم أبو طالب بن عبد المطلب، وهو الكافل والمحامي.

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «إن بني المطلب لم يفارقوني في الجاهلية والإسلام؛ دخلوا معنا في الشعب، إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد!» وشبّك رسول الله ﷺ بين أصابعه^١.

علم الأنساب:

علم سجل وجوداً كبيراً في حياة العرب، حين كانت الأنساب في حياتهم الدنيا مورد تفاخرهم وتكاثرهم.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

فهي منقطعة في حياتهم الأخرى إلا ما نسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «كلّ سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي».

١. شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٤: ٤٧؛ وانظر ٦٤ - ٦٥: الفصل الثاني ... كتاب المغازي،

للواقدي ٢: ٦٩٦.



وإن كانوا لم يدونوا أنسابهم في مرحلة الجاهليّة، فالتدوين ظهر في دولتي بني أميّة وبني العباس، لكنهم اكتفوا بتناقلها عبر أفواههم وأشعارهم وأخبارهم، وتحدث التاريخ عن بروز شخصيات نسابة حفظت أنساب قبائلهم وقبائل الآخرين، وكان عقيل بن أبي طالب من أولئك النسابين المعدودين، فقد كان واحداً من أربعة أو خمسة، يجيدون هذا العلم، بل قد يكون أعلمهم، تُراجعهم قبائل قريش في أنسابها، فعقيل كان «عالماً بأنساب قريش ومآثرها ومثالبها، وكان سريع الجواب المسكت». بل لم تكتفِ قريش منهم في معرفة النسب وما يحمله من مفاخر ومثالب، بل راحت تحتكم إليهم في منازعاتها، حتى عدَّ عقيل واحداً من جملة قضاة قريش وحكامها في الجاهليّة. فعن ابن عباس: كان في قريش أربعة يتحاكم إليهم، ويوقف عند قولهم، يعني في علم النسب: عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل الزهري، وأبوجهم بن حذيفة العدوي، وحويطب بن عبد العزى العامري.

وعنه قال: كان في قريش أربعة يتنافر الناس إليهم ويتحاكمون عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل الزهري وأبوجهم بن حذيفة العدوي، وحويطب بن عبد العزى العامري، وكان الثلاثة يعدّون محاسن الرجل إذا أتاهم، فإذا كان أكثر محاسن نفروه على صاحبه، وكان عقيل يعدّ المساوي فأياً كان أكثر مساوي تركه، فيقول الرجل: وددتُ أني لم آته، أظهر من مساوي ما لم يكن الناس يعلمون.

وأيضاً جبير بن مطعم الذي كان مع عقيل ضمّتهما مع مخرمة بن نوفل لجنةً ثلاثيةً، أمر بها الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بعد أن توسعت الفتوحات، وكثرت الغنائم، وتضاعف عدد المقاتلين، ورعايةً للشهداء، وتنظيماً لإدارة الدولة بشكل عام، وهو أمر يدعو إلى ضبط الأمور والأسماء وأنسابها، ولا تختلط حين يتمّ توزيع عطاء الدولة وغنائم الحروب والغزوات، وأيضاً الميراث...

فعن ابن سعد: إنَّ عمر بن الخطاب استشار المسلمين في تدوين الدواوين.



فقال له علي بن أبي طالب عليه السلام: «تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من مال، ولا تمسك منه شيئاً».

وقال عثمان بن عفان: أرى مالاً كثيراً يسع الناس، وإن لم يُحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لا يأخذ، خشيت أن ينتشر الأمر.

فقال الوليد بن هشام بن المغيرة: يا أمير المؤمنين قد جئت الشام، فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً، وجندوا جنوداً، وفرضوا لهم أرزاقاً. فأخذ بقوله؛ فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا نساب قريش وقال: اكتبوا الناس على منازلهم، فكتبوا، فبدأوا ببني هاشم، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، على ترتيب الخلافة، فلما نظر إليه عمر، قال: وددت أنه كان هكذا، لكن أبدأ (ابدؤا) بقرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

وقد شهدوا بقدرته في هذا الباب، وهذه مختار من أقوالهم أنه كان: «من نساب قريش وعلمائها». «ناسباً عالماً بالأمهات، بين اللسان سديد الجواب...». «نسابه عالماً بأنساب العرب وقريش»، «عالماً بنسب قريش»، «عالماً بالنسب»، «أعلم قريش بأيامها ومآثرها ومثالبها وأنسابها، صحابي فصيح اللسان سديد الجواب...»، «أنسب قريش وأعلمها بأيامها، ولكنه كان مبغضاً إليهم؛ لأنه كان يعد مساوئهم».

يقول البلاذري: وكان من نساب قريش وعلمائها، وكان سريع الجواب لا يبالي من بد به؛ أي كان حاضر الجواب يجيب ارتجالاً كل من يسأله، ولو كان أعظم أهل الدنيا، بلا حشمة وهيبة له.

وأكثر ابن عبد البر القول عنه: وكان عقيل أنسب قريش وأعلمهم بأيامها، وقال: ولكنه كان مبغضاً إليهم؛ لأنه كان يعد مساوئهم. قال: وكانت له طنفسة تطرح له في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويصلي عليها، ويجمع إليه في علم النسب وأيام العرب، وكان أسرع الناس جواباً واحضرهم مراجعةً في القول وأبلغهم في ذلك.



هذا وعن ابن عباس قال: كان في قريش أربعة يتحاكم إليهم، ويوقف عند قولهم يعني في علم النسب: عقيل بن أبي طالب، ومخرمة بن نوفل الزهري، وأبوجهم ابن حذيفة العدوي، وحويطب بن عبد العزى العامري. زاد غيره: كان عقيل أكثرهم ذكراً لمثالب قريش فعادوه لذلك، وقالوا فيه بالباطل ونسبوه إلى الحمق، واختلقوا عليه أحاديث مزورة،...

وكذا ابن أبي الحديد: كان يقال: إنَّ في قريش أربعة يتحاكم إليهم في علم النسب وأيام قريش ويرجع إلى قولهم عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل الزهري وأبو الجهم بن حذيفة العدوي وحويطب بن عبد العزى العامري.

وبمثل ذلك قال ابن الأثير مضيفاً: وكان سريع الجواب المسكت للخصم، وله فيه أشياء حسنة لا تطول بذكرها، وكان أعلم قريش بالنسب، وأعلمهم بأيامها، ولكنه كان مبغضاً إليهم؛ لأنه كان يعد مساويهم...

طِنْفِسْتُهُ:

وروي أنَّ لعقيل طِنْفِسَةً أي فراشاً؛ يطرح في المسجد النبوي الشريف، وتأخذ عنه الناس علم النسب، فيأتي كلُّ من له اهتمام بالنسب إلى المسجد النبويِّ حيث طِنْفِسْتُهُ التي غدت علامةً على وقت صلاة الجمعة: ورد أنَّ «... طِنْفِسَةَ لعقيل بن أبي طالب يوم الجمعة تُطرحُ إلى جدار المسجد الغربي، فإذا عَشِيَ الطَّنْفِسَةُ كلها ظلُّ الجُدَّارِ، خرج عمر بن الخطَّاب وصلَّى الجمعة...»

وورد عن أهل المدينة قولهم: «وقت الجمعة حيث يبلغ الشمس طنفسه أبي يزيد. أي: فراشه.»

ابن أبي الحديد؛ بعد أن يذكر عن عقيل التالي: وكان أنسب قريش وأعلمهم بأيامها، وكان مبغضاً إليهم؛ لأنه كان يعدُّ مساوئهم. يقول: وكانت له طنفسه تطرح في مسجد



رسول الله ﷺ فيصلى عليها، ويجتمع إليه الناس في علم النسب وأيام العرب، وكان حينئذ قد ذهب بصره، وكان أسرع الناس جواباً وأشدّهم عارضة...

من هذا يتضح أنّ علمه بالأنساب، لا يختصّ بقريش بل بكلّ العرب، ولا يختصّ بالرجال بل حتى بالنساء... وما يترتب على ذلك من ذكرٍ لمثالب بعض الناس، سبّب له مشاكل، من ذلك بغض قريش له، وكذا إبعاده من المدينة المنورة إلى الطائف، فقد ذكر البلاذري عن المدائني عن حسان بن عبد الحميد عن أبيه قوله: إنّ عقيل بن أبي طالب، وأبا الجهم بن حذيفة العدوي ومخرمة بن نوفل الزهري اتخذوا مجلساً، فكان لا يمرّ بهم أحدٌ إلّا عابوه وذكروا مثالبه، فشكوا إلى عمر بن الخطاب، فأخرجهم من المدينة إلى الطائف ويقال: إنّهُ فرّق بينهم في المجالس.

لا أدري كيف تجتمع هذه الرواية من أنّ الخليفة أخرجهم من المدينة أو فرّق بينهم، وتلك التي تنصّ على أنه استعان بهم في ترتيب الدواوين. ثم إنّ عقيلاً بيتاً ونشأةً يأبى إلا أن يتصف بالأدب والخلق الرفيع، فضلاً عن كونه مسلماً يقرأ جيداً التنزيل العزيز: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^١.

فضلاً عما سمعه وسمعه من أحاديث رسول الله ﷺ في النهي عن السخرية والغيبة... وأي قول أو فعل قبيح، فالسخرية والغيبة من كبائر الآثام، وهو في سيرته لا يلاحق الآخرين ابتداءً دون أن يرى منهم ما يوجب ردّهم، ولا يتعرّض للمارّة



فيعيهم ويذكر مثالبهم..!؟

وقطعاً قد تغير عقال كما غيره حين أعلن إسلامه، فإذا كان قد استولى على بيوت المهاجرين من بني قومه؛ بني هاشم في مكة بعد هجرتهم للمدينة بما فيهم بيتان لرسول الله ﷺ وأنه إمّا باعها أو بقيت عنده، فتوارثها أولاده من بعده...، ولم يهتز له جفنٌ أو يرق له قلبٌ، نجده بعد إسلامه يستشكل من إبرة، أخذها من الغنائم كما في وقعة حنين الآتية التي ثبت فيها...، ويقف مواقف جلييلة في ردع وبيان حقيقة آخرين ملئت قلوبهم حقداً وبغضاً لبني هاشم ولدعوة رسول الله ﷺ ولأخيه الإمام عليّ عليه السلام، كما يأتينا في حواراته في مجالس معاوية...^١

إسلام عقيل:

وقعت البعثة النبوية الشريفة، ولعلَّ عمر عقيل إن أخذنا بأنه ولد قبل الفيل بعشر سنوات في مكة، كان خمسين عاماً، أو كان ثلاثين سنة أو يزيد قليلاً على القول الآخر بأن ولادته قبل الهجرة بأربع وأربعين سنة، ورأى وسمع مواقف مشركي مكة من النبي ﷺ ومن ذلك ما روي عنه أنه قال: جاءت قريش إلى أبي طالب، فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك يأتينا في أفنيتنا وفي نادينا، فيسمعنا ما يؤذينا به، فإن رأيت أن تكفَّ عنا فافعل.

فقال لي: يا عقيل التمس لي ابن عمك، فأخرجته من كبس - بيت صغير - من

١. مسند أحمد بن حنبل تحقيق أحمد شاكر ٢: ٣٥٢، الهامش؛ الاستيعاب لابن عبد البر، باب عقيل: عقيل بن أبي طالب، ٣: ٧٨ رقم ١٨٣٤؛ أسد الغابة، لابن الأثير ٣: ٤٢٤، ٤: ٦١. رقم ٣٧٣٢؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٢: ٩٤؛ الطبقات، لابن سعد ٣: ٢٩٤، ١: ١٢١؛ فتوح البلدان، للبلاذري ٣: ٥٤٩؛ تاريخ الطبري ٣: ٢٧٧؛ البيان والتبيين، للجاحظ ١: ٣٢٢؛ أنساب الأشراف، للبلاذري ٢: ٧٣، ٦٩، ٧٤، الهامش؛ وقت صلاة الجمعة في الموطن للملك؛ تاريخ دمشق، لابن عساکر ٨: ٤١؛ عمدة الطالب، لابن عنبه ٣١، الهامش؛ البداية والنهاية، لابن كثير ٧: ٤٧.



أكبّاس أبي طالب، فأقبل يمشي معي يطلب الفياء يمشي فيه، فلا يقدر عليه حتى انتهى إلى أبي طالب، فقال له أبو طالب: يا ابن أخي والله ما علمت إن كنت لي لمطاعاً، وقد جاء قومك يزعمون أنّك تأتيهم في كعبتهم وفي ناديهم تُسمعهم ما يؤذيههم، فإن رأيت أن تكفّ عنهم.

فحلّق ببصره إلى السماء، فقال صلى الله عليه وآله: «والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من أن يشعل أحدكم من هذه الشمس شعلة من نار!»

فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط، ارجعوا راشدين ...

وقد اختلف في وقت إسلامه، وبالتالي في حصوله على وسام الصحبة المباركة لرسول الله صلى الله عليه وآله ليضافاً إلى النسب الشريف الذي يجمعه برسول الله صلى الله عليه وآله في مكة المكرمة، ورسول الله صلى الله عليه وآله ما زال فيها أي لم يهاجر، أم أسلم في وقعة بدر الكبرى، أو أظهر إسلامه فيها، بمعنى أنه كان مسلماً قبلها، أو أسلم بعد الحديبية في ذي القعدة من العام السادس للهجرة بين المسلمين ومشركي قريش مدّة عشر سنوات... أو قبل يوم مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وهي سنة هجرة عقيل على قول، وأنه شهد مؤتة، ومرض بعدها، فلم يكن له ذكرٌ في فتح مكة في شهر رمضان من العام الثامن للهجرة الذي قيل: إنه أسلم فيه، وعلى أي حال فلهم أقوال مختلفة في هذا، وهذه خلاصتها: عقيل بن أبي طالب ممن أسلم عام الحديبية وحسن إسلامه. أسلم مهاجراً سنة ثمان قبل الحديبية.

قال ابن حجر: تأخر إسلامه إلى عام الفتح، وقيل: أسلم عام الحديبية، وهاجر أول سنة ثمان. فيكون له من العمر اثنتين وخمسين سنة.

يقول الذهبي: هاجر أول سنة ثمان يعني تأخر إسلامه إلى أن هاجر.

ابن سعد يقول: خرج عقيل مهاجراً في أول سنة ثمان، وشهد مؤتة، ثم رجع فمرض مدة، فلم يسمع له بذكر في فتح مكة ولا حين ولا الطائف ...



وعلى ضوء أي قول منها يُحدد عمره وقت إسلامه. حتى قيل: إنَّ عمره عندما أسلم سنة ثمان من الهجرة؛ كان اثنتين وخمسين سنة، إذا أخذنا بأنه ولد قبل الهجرة بأربع وأربعين سنةً. وبالتالي كان آخر إخوته إسلاماً.

أقول: لنقف عند أهمِّ الأقوال، وهو ما يتعلق بوجود عقيل في وقعة بدر الكبرى، وموضوع إسلامه فيها إن لم يكن قبلها، وهو في مكة... «أخرجوا إكراها». ألاَّ لهم مسلمون، أم لأنَّ لهم علاقة نسبية برسول الله ﷺ وبالتالي لا يخرجون إلاَّ مكرهين لقتاله؟!!

وعلى كلا القولين كان خروجهم إلى بدر إكراهاً لهم من قبل قومهم ومن قبل كبار زعمائهم المشركين، أو كان مداراةً منهم لمن خرج من قومهم ومن زعماء مكة؛ حتى وقعوا ضمن سبعين أسيراً في قبضة المسلمين، فعوملوا معاملة الأسرى، مع أنهم كانوا مسلمين في مكة، وقد كتموا إسلامهم، ولعلَّ هذا هو الأرجح في موقفهم من رسول الله ﷺ وفي إسلامهم.

وبهذا جاءت الروايات:

ابن سعد قد ذكر في الطبقات: أنَّ قريشاً لما نفروا إلى بدر، فكانوا بمر الظهران، هبَّ أبو جهل من نومه فصاح، فقال: يامعشر قريش ألاَّ تبأل رأيكم ماذا صنعتم، خلقتم بني هاشم وراءكم، فإن ظفر بكم محمد كانوا من ذلك بنجوة، وإن ظفرتم بمحمد أخذوا ثارهم منكم من قريب من أولادكم وأهليكم، فلا تذروهم في بيضتكم وفنائكم، ولكن أخرجوهم معكم، وإن لم يكن عندهم غناء، فرجعوا إليهم، فأخرجوا العباس بن عبد المطلب ونوفلاً وطالباً وعقيلاً كرهاً.

وذكر أيضاً أنَّ قريشاً في يوم بدر، جمعت بني هاشم وحلفاءهم في قبّة وخافوهم، فوكلوا بهم من يحفظهم ويشدد عليهم، ومنهم حكيم بن حزام.



فعن ابن عباس أنه قال: قد كان من كان منا بمكة من بني هاشم قد أسلموا، فكانوا يكتمون إسلامهم ويخافون.

ويؤيد قول ابن عباس ما نقلوه من أن رسول الله ﷺ نهى في بدر عن قتل بني هاشم؛ لأنهم أخرجوا إكراها...

يقول ابن إسحاق: وأسر من المشركين يوم بدر من بني هاشم بن عبد مناف: عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم. ولم يذكر معهم العباس بن عبد المطلب...

وفي خبر؛ أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم، أخرجوا مكرهين منهم عمي العباس، فمن لقيه منكم فلا يعرضن له فإنه خرج مكرهاً».

وقال الطبري: قال النبي ﷺ لأصحابه: «إني قد عرفت رجالاً من بني هاشم قد خرجوا إلى بدر كرهاً، فمن لقي منكم أحداً منهم فلا يقتله».

وذكر أيضاً: أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «فمن لقي منكم العباس فلا يقتله». «من لقي أحداً من بني هاشم، فلا يقتله فإتّهم أخرجوا كرهاً».

وعن ابن عساکر في معرض كلامه عن عقيل وجعفر وعلي، يقول: ... وأخوهم طالب لا عقب له، وهو الذي يقول حين استكرهه مشركو قريش على الخروج إلى بدر؛ من الرجز، وقد ذكرنا بعضه أعلاه:

يا ربّ إمّا خرجوا بطالب
فاجعلهم المغلوب غير الغالب
وذلك أولى بالرشاد الواجب
فإنما الأمور بالعواقب.

في مقنب من تلکم المقانب
والرجل المسلوب غير السالب
عاقبة عند إياب الأئب



ثم يذكر عقيلًا قائلاً: وكان عقيل فيمن أُخرج من بني هاشم كرهاً مع المشركين إلى بدر، فشهداها، وأسر يومئذ، وكان لا مال له، ففداه العباس بن عبد المطلب...

وعن ابن أبي الحديد: أُسرَ من بني هاشم العباس بن عبد المطلب، أسره أبو اليسر كعب بن عمرو، وعقيل بن أبي طالب أسره عبيد بن أوس الظفري، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب أسره جبار بن صخر، وأسر حليف لبني هاشم من بني فهر، اسمه عتبة. ومن بني المطلب بن عبد مناف السائب بن عبيد وعبيد بن عمرو بن علقمة، رجلان أسرهما سلمة بن حريش الأشهلي...

وفي خبر؛ أنه صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ بعض من يلقونكم في هذا الجيش خرجوا مستكرهين، فمن لقي منكم العباس فلا يقتله؛ لأنه أكرهه قومه على الخروج، ومن لقي أبا البختری فلا يقتله».

«إني قد عرفتُ أنَّ رجلاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم في قتالنا، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختری بن هاشم بن الحارث بن أسد، فلا يقتله».

وتوالت الأخبار في أنَّ عقيل بن أبي طالب كان في الصف المشرك الذي زحف من مكة نحو المدينة، لكنها قالت: إنه كان فيمن أُخرج من بني هاشم كرهاً مع المشركين إلى بدر، فشهداها وأسر يومئذ، وكان لا مال له، ففداه العباس بن عبد المطلب الذي هو وقع في الأسر، فعن عبيد بن أوس مقرن من بني ظفر قال: لما كان يوم بدر أسرت العباس بن عبد المطلب وعقيل بن أبي طالب وحليفاً للعباس فهرياً، فقرنت العباس وعقيلاً، فلما نظر إليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم سَمَّاني مقرناً، وقال: «أعانك عليهما ملك كريم!»!

ولعلَّ في هذه الروايات تأييداً لما ذهب إليه الواقدي من أنَّ العباس (وقد يكون معه بنو هاشم كعقيل) أسلم قبل بدر.



وفيها أيضاً ردُّ على من ذهب إلى أن قول الواقدي ليس بصحيح، فلعلهم قد عوملوا بحسب الظاهر معاملة الأسرى لا غير، وبالتالي قد لا تنفي هذه المعاملة إسلامهم ولا تنافيه. وهو ما قاله العباس لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، إني كنتُ مسلماً، ولكنَّ القوم استكروني!

فكان جواب رسول الله ﷺ أن قال: «الله أعلم بإسلامك؛ إن يك ما تذكر حقاً، فالله يجزيك به، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا، فافد نفسك... أو وأماً ظاهرُك فقد كان علينا؛ فافتد نفسك، ابني أخويك نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وعقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، وحليفتك عتبة بن عمرو».

وقال ابن هشام: عبید بن أوس الذي يُقال له: مقرن؛ لأنه قرن أربعة أسرى في يوم بدر، وهو الذي أسر عقيل بن أبي طالب.

قالوا: وكان عقيل بن أبي طالب فيمن أخرج من بني هاشم كرهاً مع المشركين إلى بدر، فشهداها وأسر يومئذ، وكان لا مال له ففداه العباس بن عبد المطلب!

وفي خبر؛ يتضمن لقاء جمع عقيلاً برسول الله ﷺ وسجل حواراً بينهما؛ وفيه قال عقيل للنبي ﷺ: مَنْ قتلْت من أشرافهن أثنخ فيهم! فقال: قتل أبو جهل. فقال: الآن صف لك الوادي! وقال له عقيل: إنه لم يبق من أهل بيتك أحد إلا وقد أسلم. قال: فقل لهم فليحقوقوا بي. فلما أتاهم عقيل بهذه المقالة خرجوا...

وذكر أن العباس ونوفلاً وعقيلاً رجعوا إلى مكة أمروا بذلك؛ ليقوموا ما كانوا يقيمون من أمر السقاية والرفادة يعني والرياسة، وذلك بعد موت أبي لهب، وكانت السقاية والرفادة والرياسة في الجاهلية في بني هاشم، ثم هاجروا بعد إلى المدينة، فقدموها بأهاليهم وأولادهم.

وكان عقيل فيمن أخرج من بني هاشم كرهاً مع المشركين إلى بدر، فشهداها وأسر يومئذ، وكان لا مال له، ففداه العباس بن عبد المطلب، ورجع عقيل إلى مكة، فلم يزل



بها حتى خرج إلى رسول الله ﷺ مهاجراً في أول سنة ثمان.

نزول آية:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. سورة الأنفال: ٧٠.

في نزول هذه الآية في وقعة بدر الكبرى، روي عن العباس بن عبد المطلب وقد وقع هو وجماعة منهم عقيل بن أبي طالب أسرى بيد المسلمين، وكان العباس أكثر المستفيدين من هذا الأسر مالياً كما يظهر من أقواله وأقوال غيره، أنها نزلت فيه، وهو القائل: نزلت هذه الآية في وفي أصحابي، كان معي عشرون أوقية ذهباً، فأخذت مني، فأعطاني الله مكانها عشرين عبداً؛ كل منهم يضرب ببال كثير، وأدناهم يضرب بعشرين ألف درهم مكان العشرين أوقية، وأعطاني زمزم؛ وما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، وأنا انتظر المغفرة من ربي.

وعن ابن عباس: نزلت في الأسارى يوم بدر، ومنهم العباس بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب.

وفي الكافي... عن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمعته يقول في هذه الآية: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾.

١. مختصر تاريخ دمشق، لابن منظور ١٧: ١١٥؛ الأغاني ٤: ١٨٣؛ وقريباً منه ذكره ابن سعد في طبقاته ١: ١٢١ و ٤: ٨؛ الطبقة الثانية من المهاجرين والأنصار ٤: ١٢؛ والأخير ذكره الشيخ الكليني في الكافي، الحديث ٥٦٣ في روضة الكافي: ٣٧٥؛ تاريخ الطبري ٢: ٢٩٢؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١٤: ١٩٩؛ جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠ هـ)؛ مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: الآية؛ السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٨٧.



قال: نزلت في العباس وعقيل ونوفل، وقال: إن رسول الله ﷺ نهى يوم بدر أن يقتل أحد من بني هاشم وأبو البختری فأسروا. فأرسل علياً عليه السلام، فقال: «انظر من ههنا من بني هاشم»، قال: فمرّ عليُّ عليه السلام على عقيل بن أبي طالب، فحاد عنه، فقال له عقيل: يا ابن أمّ عليٍّ (أقبل عليّ) أما والله لقد رأيت مكاني. قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ، وقال: هذا أبو الفضل في يد فلان، وهذا عقيل في يد فلان، وهذا نوفل بن الحارث في يد فلان! فقام رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى عقيل، فقال له: يا أبا يزيد قتل أبو جهل، قال: إذا لا تنازعون في تهامة! فقال: إن كنتم أنختمت القوم، وإلا فاركبوا أكتافهم. فقال: فجيء بالعبّاس، فقيل له: أفد نفسك وأفد ابن أخيك، فقال: يا محمد تتركني أسأل قريشاً في كفيّ. فقال: أعط مما خلفت عند أمّ الفضل، وقلت لها: إن أصابني في وجهي هذا شيء، فأنفقيه على ولدك ونفسك.

فقال: يا بن أخي من أخبرك بهذا؟

فقال: أتاني به جبرئيل عليه السلام من عند الله عزّ وجلّ.

فقال: ومحلوفه (أي بالذي حلف به) ما علم بهذا أحد إلا أنا وهي، أشهد أنّك

رسول الله!

قال: فرجع الأسرى كلّهم مشركين إلاّ العبّاس وعقيل ونوفل، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. سورة الأنفال: ٧٠. وعن قتادة أنه قال: ذكر لنا أنّ نبيّ الله ﷺ لما قدم عليه مال البحرين ثمانون ألفاً وقد توضأ لصلاة الظهر فما صلّى يومئذ حتى فرّقه، وأمر العباس أن يأخذ منه ويحشي، فأخذ فكان العباس يقول: هذا خير مما أخذ منا وأرجو المغفرة^١.

١. سير أعلام النبلاء ١: ٢١٨؛ وانظر الطبقات لابن سعد ٤: ٣٠، ٤٣؛ الاستيعاب ٤: ٦٤؛ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد ١١: ٢٥٠؛ الإصابة: ٤: ٤٣٨؛ الرقم ٥٦٤٤؛ طبقات ابن سعد ٤:

٦١؛ التهذيب، لابن حجر: ٨٣؛ الكافي، للشيخ الكليني ٨: ٢٠٢ ح ٢٤٤.



رجوع عقيل إلى مكة:

على القول - وهو القول الأرجح أنه كان مسلماً قبل وقعة بدر الكبرى - هناك أخبار تشير إلى أن عقيلاً وعمّه العباس ونوفلاً بعد ما حدث لهم في بدر الكبرى، رجعوا إلى مكة، بعد أن أمروا بذلك، والأمر محصور برسول الله ﷺ ولا يتقدم عليه أحد... وكان ذلك لما يترتب عليه من مصالح، ولعل منه، كما ذكرته بعض الأخبار أو الأقوال؛ ليقيموا ما كانوا يقيمون من أمر السقاية والرفادة يعني والرياسة، وكانت السقاية والرفادة والرياسة في الجاهلية في بني هاشم... وإن قيل: إنه لم يرجع إلى مكة، بل أقام مع رسول الله ﷺ وشهد مشاهده.

في خبر أن عقيلاً لما قال للنبي ﷺ: إنه لم يبق من أهل بيتك أحد إلا وقد أسلم. قال: «فقل لهم فليلحقوا بي». فلما أتاهم عقيل بهذه المقالة خرجوا... وهذا معناه إن صحَّ أنه حصل الإذن النبوي بالعودة إلى مكة.

وقد ذكرت بعض الأخبار أن العباس ونوفلاً وعقيلاً رجعوا إلى مكة؛ بعد وقعة بدر الكبرى التي أظهرها إسلامهم فيها؛ ليقيموا السقاية والرفادة والرياسة والتي كانت من وظائف بني هاشم في الجاهلية والإسلام. ثم هاجروا بعد إلى المدينة، فقدموها بأهاليهم وأولادهم.

وكان عقيل فيمن أخرج من بني هاشم كرهاً مع المشركين إلى بدر، فشدها وأسر يومئذ، وكان لا مال له، ففداه العباس بن عبد المطلب ورجع عقيل إلى مكة، فلم يزل بها حتى خرج إلى رسول الله ﷺ مهاجراً في أول سنة ثمان^١.

وفي قول كان وقت رجوعهم بعد وفاة أبي لهب بعد وقعة بدر بسبع ليال، عمّ النبي ﷺ وأشدد الناس تكذيباً له وقسوةً عليه، وكذا كانت امرأته، حتى جمعها الله تعالى في سورة واحدة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا

١. جامع البيان في تفسير القرآن، الطبري (ت ٣١٠هـ)؛ مجمع البيان، للشيخ الطبرسي: الآية. ٩٠



أَغْنَى عَنْهُ مَالَهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وَأَمْرَأْتُهُ حَمَّالَةَ الْخَطْبِ * فِي
جَيْدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥١﴾ . سورة المسد: ١-٥ .

وبموته - كما نُقل - لم يبقَ من بني هاشم من يُقيم تلك الوظائف: السقاية
والرفادة... وقد كان لعقيل دَوْرٌ في هذه الوظائف، من ذلك ما ذكره ابن سعد عن ابن
جريج عن عطاء قوله: رأيت عقيل بن أبي طالب شيخاً كبيراً بعل العرب، قال: وكان
عليها غروب ودلاء، قال: ورأيت رجالاً منهم بعد ما معهم مولى في الأرض، يلفون
أرديتهم فينزعون في القميص حتى أن أسافل قميصهم لمبتلة بالماء، فينزعون قبل الحج
أيام منى وبعده.^١

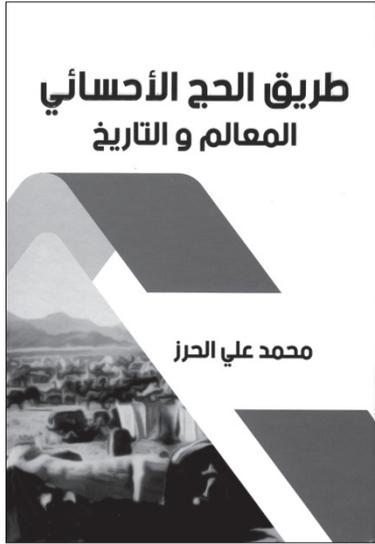
ثم عادوا إلى المدينة المنورة فقدموها بأهاليهم وأولادهم...

للبحث صلة

«تعريف بكتاب»

طريق الحجّ الأحسائي (٣)

إدارة التحرير



نظراً لمنهج مجلة «مقامات الحجّ»، وعنايتها بالشؤون الثقافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية للحجّ ودائرته المباركة...، فتحت بابها لا فقط لاستقبال ما يتفضل به الكتاب، ويبادر به العلماء والمحققون من بحوث ومقالات من



أفكار وآراء حول عنايتها المذكورة، وإن لم تكتفِ بانتظار ما تجود به معرفتهم وأناملهم، بل راحت إدارتها تسمع وتقرأ وتلاحق ما يكتب هنا وينشر أو يُلقى هناك؛ ما دام يصبُّ في دائرتها المعرفية؛ لإعطائه مساحة مناسبة في المجلة، حرصاً منها في إغناء مكتبتها الخاصة وتراثها المعرفي، ومشاركةً منها في نشر ما تصبو إليه من أهداف كبيرة؛ تتمدد على مساحة واسعة من الحرمين المباركين مكة المكرمة والمسجد النبوي وما حولهما من طرق وأماكن ومواقع.

إنّ هذا الكتاب «طريق الحج الأحسائي» لمؤلفه سماحة الشيخ محمدعلي الحرز، كتاب جيد لما تتوفر فيه من أهمية تاريخية وفوائد ميدانية ومعرفة لحدود هذا الطريق ومعالمه، وقديماً كان هذا طريقاً للحجاج الإيرانيين.

فطوبى لمؤلفه الشريف، الذي تحمّل كثيراً من المعاناة؛ لإيجاد هذا السفر القيم، نسأله تعالى أن يؤجره أجراً كبيراً، ويؤجر سماحة الشيخ حسين الواصلقي، الذي اقترح أن يحتلّ هذا الكتاب مكانته في هذه المجلة.

جاء في مقدمة البحث:

«طالما راودتني فكرة التطرّق لموضوع الحج الأحسائي من الناحية التاريخية؛ والتعريف بالعلاقة الكبيرة بين الأحساء وبلاد الحجاز، وأهم الطرق التي يسلكونها في المسير لأداء فريضة الحج، والعقبات التي تواجه الحاج الأحسائي تحديداً من صعوبات ومعوّقات، حاله حال الكثير من الحجاج في مختلف المنافذ المتجهة إلى مكة المكرمة، نظراً للتغافل الكبير من المهتمين بتاريخ الحج وطرق الحجاج، وذلك لصعوبة البحث وندرة المصادر التي تناولت معالم هذه الطرق.

لذا اكتفى معظم الباحثين بتناول الطرق المشهورة والمعروفة؛ مثل الشامي والعراقي



والمصري واليميني والعماني وغيرهم، دون تجاوز هذه العتبة خشيةً من وعورة الطريق والبحث في هذه النقطة المعتمدة...».

الكلمات المفتاحية:

المصاعب والعناية بطريق الحجّ الأحسائي، الجهود المبذولة في تأمين الحجّ، معالم طريق الحجّ الأحسائي، بيان بعض المصطلحات القديمة، العوامل المؤثرة في تحديد طريق الحجّ، الطرق المباشرة إلى مكة المكرمة، طرق ومنازل الحاجّ من الأحساء إلى مكة المكرمة . . .

... الفصل الثاني: المصاعب والعناية بطريق الحجّ الأحسائي

مصاعب ومخاطر طريق الحج:

يصادف الحاج في رحلته العبادية لأداء فريضة الحج مجموعة من العقبات والتحديات، تبدأ من أول مرحلة من مراحل الحج وهي الاستعداد، ولا تنتهي إلا بعودته عند باب داره في أرض الوطن.

هذا الأمر هو ما يجعله في حالة توتر شديد وقلق كبير لا يفارقه، وهنا نورد عدد من هذه الصعوبات والتحديات التي يشهدها طريق الحج نذكرها بإيجاز، لنستشعر طبيعة الرحلة الإلهية وما يكتنفها والحالة النفسية التي يعيشها الحاج في حالة تجمع بين الفرح والسعادة التي لا توصف وهو يستشعر أنه في طريقه لأداء شعيرة إلهية عظيمة قد وفقه الله لأدائها، وبين الشعور بالخوف والقلق أنه لا يسلم على حياته فضلاً عن سرقته من قبل قطاع الطرق، وبالتالي قد لا يرجع لأهله ووطنه سالمًا.

وهذه المصاعب المؤرقة يمكن تلخيصها في التالي:



١- الانفلات الأمني:

الهاجس الأمني والخوف على الأرواح من أكثر الأمور التي عانى منها الحاج من مختلف المناطق وطرق الحج المتعددة، بلغ درجة أن تتخلف بعض المناطق عن الحج لسنوات إذا علمت بفقد الأمن ووجود قُطَاع الطرق في الطريق، حتى لقد بلغ إيذاء الحاج في بعض السنوات منتهاه، حتى أنه ينقل عن العلامة الشيخ محمد الرملي الشافعي (القرن العاشر).^١

- بسبب ما لاقاه من شدة وأذى والمشقة أفتى بعدم وجوب الحج في هذه الأزمنة.^٢
- طالما فيه خطر على النفس البشرية. ففي سنة ١١٤٢ هـ، هجم بعض قُطَاع الطرق من قبيلة مطير على الحاج الأحسائي في منطقة الحنو.^٣
- وقتلوا منهم وسلبوهم بعدما أخذوهم للحسوة.^٤ - وهي منطقة تقع في جنوب شرق المدينة المنورة، وتبعد عن مدينة ينبع البحر حوالي ٣٥٠ كيلومتر كما تعتبر داخل حدود منطقة المدينة المنورة، وسكانها غالبهم من قبيلة مطير، وشيوخها منهم.

مجزرة ابن حثلين لحاجّ الأحساء:

من الشواهد التاريخية التي تبين حجم المأساة التي يعاني منها الحاج ومستوى القسوة التي مارسها لصوص الحاجّ وامتلاكهم قلوب هي إلى الحجارة أقرب، بلا رحمة ولا شفقة.

١. هو الشيخ شمس الدين بن شهاب الدين الرملي المنوفي المصري الأنصاري المشهور بالشافعي الصغير من علماء القرن العاشر الهجري، ولقبه البعض بمجدد القرن العاشر.
٢. أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، مصدر سابق: ٧٢٦:١.
٣. تاريخ الفاخري، مصدر سابق: ١٢٧.
٤. تاريخ ابن لعبون، مصدر سابق: ١٥٤.



ففي حوادث سنة ١٢٦١هـ، وهي الحقبة التي كانت الأحساء خاضعة للدولة السعودية الثانية، أقبل حاجٌ كثيرٌ من الأحساء والبحرين والقطيف، ومن أهل سيف البحر، ومعهم عجم كثير، فرصد لهم في الطريق فلاح بن حثلين رئيس العجمان، ومعهم أناس من عربان سبيع، وكان حزام بن حثلين مع الحاج، فشنوا عليهم غارة، شردوا من الحاج نحواً من نصفه، وذلك من سرِّ قدرة الله وتدبيره، وقد مات فيها خلق كثير، بينما أسر البعض الآخر.

فاستنفر الإمام فيصل بن تركي جيشه فركب من الرياض آخر ذي القعدة^١، وقد استنفر معه القبائل المختلفة وأصبح يطارده فلما سمع ابن حثلين بذلك لجأ إلى بني خالد عدوان الإمام فيصل، ولكن لما وجدوا عظم الأمر ذهب أعيانهم وشيوخهم ألا يأخذ البريء بالمسيء، وتمَّ طرد ابن حثلين وبقي مشرّداً يبحث عن ملجأ، حتى تمَّ القبض عليه سنة ١٢٦٢هـ، واعتقاله وأخذه إلى قصر الكوت عند أحمد السديري الذي قام بإعدامه بقطع رأسه^٢.

وهذه الحادثة تؤكد - رغم الصعوبات التي تكتنف طريق الحج - بأن الوفود السائرة للحج من خلال عبوره تعدّ كبيرة نسبياً، لأنها تجمع الحاج من الأحساء والقطيف والبحرين ومناطق الساحل سواء من قطر أو عمان، ويتبعهم القادمون عبر البحر من أهل الفرس والهند، وهي تحمل معه الغنائم والأموال التي أرادوا بها الكفاية لأداء فريضة الحج والعودة إلى أوطانهم، خاصة وأن الرحلة قد تستغرق عند البعض من المناطق البعيدة قرابة النصف سنة بعيداً عن أهله ووطنه.

وفي سنة ١٣١٠هـ، نشطت بعض القبائل من أهل البادية لسرقة الحاج وسلبهم. وتجمع منهم أكثر من ٣٠٠ رجل، بتمردٍ خطيرٍ فهاجموا قافلة مسافرة من المهفوف إلى

١. عنوان المجدي في تاريخ نجد، مصدر سابق ٢: ٢٣٣.

٢. م. ن، ٢: ٢٣٧.



العقير في حراسة فرقة تركية من ٢٥ جندي فقتلوا ١٥ منهم وجرحوا ١٠، وحملوا معهم ٥٠ ألف روبية نقداً وما قيمته ٢٠ ألف من البضائع، كما نهبوا أيضاً ٤٠ حاجاً كانوا مسافرين بصحبه القافلة وبدأت حوادث سرقات عديدة^١ وهي بلا شك تشمل وفود الحجاج القادمين عبر الميناء وكذلك القوافل التجارية.

٢- قلة الماء والآبار:

من العوامل المؤثر في اختيار الطريق من عدمه، أو كثرة العبور من خلاله أو تركته، وفرة الماء ووجود الآبار في الطريق، وهنا يأتي دور الأمير وقائد الرحلة في معرفة الطرق وتمتعها بهذه الخاصية أو لا، لذا يستعان في مثل هذه الرحلات بالدليل الخبير بالصحراء من رجال البادية، حيث يتولى قيادة الرحلة وانتقاء الطرق المناسبة.

فالحاج في رحلته الشاقة والطويلة والتي تستغرق في الغالب حدود ٢٥ يوماً؛ ستة من الأحساء إلى الرياض، و ١٨ يوماً من الرياض إلى مكة المكرمة، والتي قد تصل إلى شهر بعض الأحيان، يكون في أمس الحاجة إلى التزوّد بالماء خلال الطريق، خاصة عندما يكون الموسم في فصل الصيف الذي يشتد فيه العطش، وتظماً الدواب، بل وينفق بعضها بسبب العطش والتعب، وفي هذا الحالة نجد الدليل ينتقي الطرق والمنازل التي تتوفر فيها الآبار والكلأ وإن أدى ذلك إلى طول الطريق وبعُد المسافة.

ففي سنة ٨٣٣هـ، أصاب الحاج المصري بين (الإزم) و(ينبع)، شدة عظيمه من الحرّ والعطش، مات فيها ثلاثة آلاف نفس، ويقال خمسة آلاف^٢.

١. الشبانات، سعد بن عبد العزيز، الصّمان بحوث وتحقيقات ميدانية وتاريخية لمنطقة الصّلب والصّمان، تقديم حمد الجاسر، دار عالم الكتب، الرياض، ط ٢، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م ١: ١٤٣.

٢. إتحاف الوري بأخبار أم القرى، مصدر سابق ٤: ٥٠.



وفي السنة التالية عام ٨٣٤هـ، توفي العديد من الرجال والنساء ممن هلك بالعطش من الحاج فدفن منهم بالآلاف.^١

ومن هنا تأتي أهمية معرفة الدليل وخبرته بمخارج الطريق وأماكن الآبار والمسافات طويلاً وقصراً، فالأرواح تكون معلقة بين يديه، والخطأ هنا يعني موت الحاج والدخول في متاهات قد لا يؤمن عواقبها.

وقد نقل في التاريخ الأحسائي الشفهي، موت بعض الحاج بسبب الضياع، وقلة الماء، إما لعدم وجود آبار أو لجفاف المياه منها، وهذا يشكل تحدي كبير لقافلة الحاج ومصدر قلق لا يمكن التهاون فيه.

٣- طول الطريق:

خمسة وعشرون يوماً من السير على ظهر الإبل، أو سيراً على الأقدام، في رحلة مليئة بالتعب ومحفوفة بالعناء وقسوة الحياة، ومصحوبة بالكثير من المخاطر، من وحوش الصحراء كالذئاب والعقارب والثعابين تارة وقطاع الطرق أصحاب القلوب البشعة والقاسية تارة أخرى.

فإذا أخذنا في الاعتبار وجود عدد غير قليل من كبار السن والنساء ضمن ركب الحاج، ندرك مدى المشقة والصعوبة في هذه الرحلة، وأنها تستغرق وقتاً طويلاً بسبب المراعاة لأضعف الحاج، كما قد يختار أمير الحاج طريقاً أبعد، عندما يجد أن الطريق القريب يتخلله بعض المخاطر كوجود قطاع طرق ترتبص بالمارين فيه، أو تفشي المرض بين عموم الحجاج، أو خلّوه من الآبار والمياه، في وقت تكون القافلة في أمس الحاجة لها، لذا قد تطول الرحلة إلى ٤٠ يوماً لمثل هذه العوامل وغيرها.

فإذا أضفنا عملية الحج وطقوسه وما يتخللها من مشقة عطفاً على قوله تعالى:



﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^١ وبما فيها من طواف وسعي ورمي جمرات ووقوفين بعرفات والمشعر الحرام، ندرك جيداً حجم المشقة التي يعيشها الحاج والوقت الذي يستغرقه عمل المناسك، ثم تبدأ الرحلة إلى المدينة المنورة، وأخيراً خط العودة والذي لا يقل خطورة وصعوبة عن رحلة الذهاب، مما يجعل الرحلة في مجموعها قد تستغرق بين ثلاثة إلى أربعة أشهر.

من خلال كل هذا ندرك خطورة الأمر ومدى كلفته على العجزة من النساء وكبار السن في رحلة طويلة يكتنفها المشقة والتعب في جميع مراحلها.

٤- ضعف الدراية بطرق الحج المناسبة:

واحدة من أهم صفات أمير الحاج وقائد الرحلة، هو درايته بالطرق المختلفة المؤدية إلى الديار المقدسة، وهذه تتكوّن نتيجة خبرة طويلة وسفريات متعدد (متعددة) إلى الحجاز يتعرّف فيها على معالم الطريق وصعوباته ومميزات كل طريق منها، أو لا أقلّ يوجد حوله من يمتلك هذه الدراية.

لذا يتجنب عن قيادة الحاج من ليس له خبرة بالطرق أو من يتصف بالعناد والاستبداد بالرأي، وقد وقعت حادثة لحاجّ الأحساء نتيجة عدم امتلاك أمير الحاج لمثل هذه الخبرة والحكمة.

فقد تمّ تنصيب الأمير محمد المحاري (المحايي) أميراً على الحاجّ الأحسائي من قبل أمير الأحساء الشيخ سليمان بن محمد بن عريعر الخالدي سنة ١١٤٢ هـ، ولم يكن بذئ خبرة في إدارة الأمور مما جعله لقمة سائغة لقطّاع الطرق من قبيلة مطير، وتسبّب في إحداث مجزرة في الحاجّ قرب منطقة الحنو،^٢ وقد سبق الإشارة لهذه الحادثة في الصفحات السابقة.

١. سورة آل عمران: ٩٧.

٢. عنوان المجد في تاريخ نجد، مصدر سابق ٢: ٣٧٢.



٥- تفشي الأمراض والأوبئة الفتاكة:

نتيجةً لضعف الرعاية الصحيّة لدى الحجاج القادمين من مختلف الأقطار الإسلامية بسبب الفقر وقلة الأطباء، فكثير ما يأتي بعض الحجاج وهم محملين بالأمراض والأوبئة، ناهيك عن الحالة العامّة نتيجة للازدحام وقلة النظافة في الوضع العام سبباً في تفشي الأمراض في صفوف الحجاج.

وقد ذكر التاريخ العديد من الأمراض التي انتشرت بين الحجيج؛ ففي سنة ٨٣٧هـ، انتشر وباء في اليمن ووصل إلى مكة المكرمة في شهر شعبان، فكان يموت في كلِّ يوم خمسين^١.

وفي رحلة داود السعدي إلى الحجّ مع حاجّ الأحساء سنة ١٣٨٨هـ، أرخّ تفشي مرض «الكوليرا» بين الحاجّ فقال:

«يوم الأربعاء ومنها إلى قرب (رابغ)^٢ رعباً فقط، واعتري الحاج علة القوليرا (الهيضة)^٣، ومات سبعة أشخاص، وذكر عند وصولهم (رابغ) وهي بلدة معمورة، وفيها مات عشرة نفر، وعبد حبشي للسعدي».

١. إتحاف الوري بأخبار أمّ القرى، مصدر سابق ٤: ٧٠.

٢. رابغ: هي إحدى محافظات منطقة مكة المكرمة وهي مدينة قديمة تقع على ساحل البحر الأحمر في إقليم تهامة، تبعد عن جدة حوالي ١٤٠ كيلومتر في اتجاه الشمال، يحدها من الشمال منطقة المدينة المنورة، ومن الجنوب محافظة جدّة، ومن الشرق منطقة المدينة المنورة ومحافظة خليص، يقطعها طريق دولي إلى جزئين شمالي وجنوبي، وكانت قديماً من ديار بني ضمرة من قبيلة كنانة، بها ميقات (الجحفة) وهو ميقات لأهل مصر والشام. البلادي، د. عاتق بن غيث، معجم معالم الحج، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الثانية، ١٤٣١هـ، ٢٠١٠م: ٦٥٤.

٣. يعني الكوليرا (الهيضة): والكوليرا، والتي تعرف أحياناً باسم الكوليرا الآسيوية أو الكوليرا البوابية، هي من الأمراض المعوية المعدية التي تُسببها سلالات جرثوم ضمة الكوليرا المنتجة للذيفان المعوي. وتنتقل الجرثومة إلى البشر عن طريق تناول طعام أو شرب مياه ملوثة بكتيريا ضمة الكوليرا من مرضي كوليرا آخرين.



وتعدّ هذه الحالة من عشرات الحالات التي تحدث موسميّاً في الحج حيث انتشر الأمراض والأوبئة المعدية التي تفتك بحياة مئات الحجاج في ظلّ قلّة المعالجات وهشاشة الوضع الطبي وضعف الثقافة الصحية لدى غالبية الحجاج.

٦- ارتفاع الأسعار والمعيشة في الديار المقدسة:

تضطرب الأسعار في موسم الحج فلا تكون الأسعار في مكة مستقرة أو على حال واحد، ففي بعض السنوات كان الغلاء في الحجاز قد أخذ منتهاه، مع وجود قلّة ذات اليد والحاجة في صفوف الحجاج، نتيجة لكلفة السفر ومؤنته، مما يجعلهم في أضعف أحوالهم عند وصولهم لمكة المكرمة.

وقد ذكرت المصادر التاريخية العديد من هذه الحالات، ففي أحداث سنة ٨٣١هـ، يذكر بن فهد المكي عن أحداثها قائلاً: «وفيها اشتد الغلاء بمكة المشرفة لعدم المطر فيها»^١ وهذا نموذج وشكل من أشكال الغلاء، وإلا دواعي الغلاء كثيرة ومتعدّدة الأسباب، من بينها قلة البضائع التي عادة ما يجلبها بعض الحجاج معهم من بلدانهم، أو انخفاض العطايا التي يقدمها أمراء الحجاج لفقراء البيت الحرام.

وقد يطال الغلاء الماء لشحته وقلّة الأمطار ففي سنة ٨٣٤هـ، قلّ الماء بمكة في موسم الحج حتى بيعت الراوية بمكة أيام الصعود إلى عرفة بأعلى الأثمان.^٢

٧- الصراعات السياسية في المنطقة:

الصراع السياسي في المنطقة له تأثير مباشر على الحجاج وسلامتهم سواء في بلاد الحجاز مكة والمدينة أو في مراحل الطريق المختلفة، وفي الغالب عند نشوب أي صراع

١. إنحاف الورى بأخبار أم القرى، مصدر سابق ٤: ٢٧ .



بين أطراف سياسية تنعكس سلباً على الحاجّ، لما يترتب عليه من الفوضى، وانحلال عقد الأمن والسلام، فكان اللصوص والاستقلاليون يستفيدون من مثل هذه الحقب الزمنية لصالحهم والنيل من الحجّاج وسلب ممتلكاتهم أو فرض الضرائب عليهم.

كما أنّ مكة المكرمة نفسها كثيراً ما تحدث فيها صراعات بين أقطاب الحكم من الأشراف، أو مواكب الحجّ الكبيرة القادمة كموكب الحجّ المصري والشامي والعراقي وغيرها.

وقد رصد التاريخ العديد من الصراعات التي كانت تشب بين مواكب الحج المختلفة بسبب خلاف بين الحاجّ، أو نزاع نتيجة الرغبة في محلّ نزول الركب وقافلة الحجّ، وقد تكبر المشكلة إذا كانت بين طرفين من كبار موكب الحج كالشامي والعراقي والمصري، والتي تكون بأعداد كبيرة.

هذه الأمور تنعكس على الحجّاج وقد يتسبب في فوضى عارمة تنال أطرافاً كثيرةً من الحجّاج ممن لم يكن طرفاً في المشكلة ولكن أصابه شررها.

٨ - الضرائب التي تفرضها القبائل على الحاج:

في المراحل المتعددة التي يسير فيها الحاج من الأحساء مكة المكرمة، يدخل خلال الرحلة في أراضي عدد من القبائل العربية المختلفة، منهم من ينظر إلى الحاجّ على أنهم وفد الله وضيوفه، وفي خدمتهم مكرمة عظيمة وأجر كبير فيتسابقون على ضيافتهم وتسهيل رحلتهم عبر أراضيهم بل توفير الحماية لهم وتزويدهم بالمؤن والمساعدات المختلفة، كما أنهم يتبادلون السلع والمنتجات والمحاصيل تجارياً معهم مما يشعر الحاج بالراحة والارتياح.

في المقابل هناك عدد من القبائل تنظر إلى الحاجّ أنه وسيلة من وسائل الغنى وجمع المال عبر سنّ وفرض الضرائب الثقيلة على الحجّاج، والتي تكون محققةً في حقهم،



مقابل سلامتهم وأمنهم عند عبورهم من أراضيهم، وهي في العادة تكون مبالغ باهظة وفوق طاقة الحاج، وتتكرر في عدة أراضي مما يجعل الحاج يفقد كل ممتلكاته ومدخراته في رحلة الحج قبل وصوله إلى الديار المقدسة.

وقد عانى الحجاج الأحسائيون من القبائل العربية التي كانت تشكل رعباً وهاجساً خيفاً نتيجة التجارب المختلفة التي مروا بها خلال سنينه من هذه القبائل من القتل والسلب الذي زُهِقت فيه الأرواح في عمليات بشعة في حوادث بقيت محفورة في الذهنية الأحسائية لفترات زمنية طويلة.

وفي الختام علينا أن ندرك إن الحجَّ رحلة بقدر ما فيها من فرحة عظيمة عند الحاجِّ وفوز كبير لا يوصف، فإنها مقترنة بأشكال متنوعة من الصعوبات والمخاطر استطاع الحاج الأحسائي أن يتخطاها ويؤدي فرضه امتثالاً لأمر الله تعالى. حيث يقول جلَّ من قائل: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾^١.

الجهود المبذولة في تأمين طريق الحج:

إنَّ المتبَّع لحركة الحاج الدؤوبة أثناء مروره على كثير من المنازل والهجر والقرى المتآخمة لطريق سيره نحو مكة المكرمة يلحظ مدى الجهود التي بذلت تباعاً لتأمين الطرق والمسالك، وهذه الجهود يمكن لنا استشفافها من خلال رصدنا لطرق الحج المختلفة، وهي على النحو التالي:

١- الحراسة المشددة:

استمر الاهتمام البالغ والعناية الفائقة بطريق الحاج حتى أصبح من ضمن أولويات الدول المتعاقبة على حكم الأحساء، ومحل عنايتها وأهم أهدافها.



وقد استمرت هذه الحملات الأمنية من قبل دولة الجبريين بين عامي ٨٥١-٩٢٩هـ باتجاه قبائل الدواسر المشاغبة والفضول، بسبب تعديهم المتكرر على القوافل التجارية التي تسلك طريق الأحساء والقطيف وطريق التجارة الواقع على إقليم نجد خاصة الواصل إلى بلاد الحجاز «طريق الحجيج»، نظراً لأهميته لقوافل الحجيج، وذلك لأن الجبور كانوا يعتمدون اعتماداً رئيسياً في اقتصاد دولتهم على التجارة وتأمين طريقها مثلهم في ذلك مثل الدولة العصفورية.^١

ومظهر آخر للدلالة على ما أعطته الدولة الجبرية من أهمية قصوى لطريق الحاج الأحسائي والاهتمام بأمنه وأمانه وقطع دابر قطاع الطرق يتمثل بالخروج في مواكب عظيمة تبلغ الآلاف من الحجّاج والعسكر في منظر يثير الرعب في نفوس من تسوّل له نفسه الوقوف في طريق الحاجّ، إضافة إلى الخروج بأنفسهم لقيادة الحجيج، يقول الحميدان في دراسته عن الدولة الجبرية:

«وقد حرص أمراء الجبور على تأمين هذا الطريق - طريق الحاج - وما قيام أمرائهم شخصياً بقياده قوافل الحجيج إلا تعبيراً عن حرصهم على سلامة هذا الطريق الحيوي. وإذا ما عرفنا بأن قوافل الحجيج كان يرافقها عدد غير قليل من المحاربين لحراستها أدركنا أن أمراء الجبور كانوا في الواقع يقومون عند مرافقة قافلة الحجّ بمظاهرة عسكرية لزرع الخوف في نفوس معارضيتهم من رؤساء القبائل المختلفة، إضافة إلى كسب الأصدقاء».^٢

٢- تأديب القبائل المعتدية:

في تاريخ الدولة العيونية كان الأمير محمد أبوسنان العيوني (٥٢٠-٥٣٨هـ)، تولى

١. تاريخ الخليج [الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٤٤٤.

٢. التاريخ السياسي لإمارة الجبور في شرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٤٧.



بلاد البحرين في أعقاب اغتيال والده الفضل، وقد اشتهر هذا الأمير العيوني ببسالته ونشاطه في القضاء على المفسدين والمعتدين في أصقاع الجزيرة العربية وعلى الخصوص المعترضين طريق الحجاج، حتى قال في شأنه علي بن المقرب العيوني:

منا الذي أصحب المجتاز من حلبٍ إلى العراقِ إلى نجدٍ إلى أدما.^١

فقد كانت القوافل التي تقطع الطريق بين الأحساء إلى نجد إلى مكة المكرمة تعاني من مشاكل قُطَاعِ الطرق، فكان لهذا الأمير اليد الطولى في الحد من خطورتهم وتأمين وطمأنة الحجاج إلى حدٍ كبير.

يقول شارح ديوان ابن المقرب العيوني عند الحديث عن محمد بن أبي سنان العيوني أنه: «كان على صلواتٍ قويّة مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله، واشتهر بقضائه على قُطَاعِ الطرق الذين يعترضون الحجاج في طريقهم إلى مكة، وأخذ على أيدي مفسدي العرب حتى صار الراكب يسير إلى عمان من الأحساء وإلى العراق وإلى نجد وإلى الشام فلا يفزعه أحد، وكذلك القافلة أين أدركها الليل باتت لا تخاف من أحد».^٢

كما حرصت الدولة الجبرية منذ بدايتها على يد زعيمها الأول زامل بن حسين على تأمين طريق الحجاج والقوافل التجارية التي تسير عن طريق أراضيها ومنها إلى نجد، وذلك عبر النيل من القبائل النجدية التي تعترض طريق القوافل التجارية والذاهبة إلى الحجّ، وقد شنّ لذلك حملات متعددة على نجد منها ما وقع في سنة ٨٥١هـ، حيث يقول ابن بسام: «وفي سنة ٨٥١هـ، غزا زامل بن جبر العقيلي العامري ملك الأحساء، والتطيف، ومعه جنود عظيمة من البادية والحاضرة وقصد الخرج وصبغ الدواسر، وعايد على الخرج، وحصل بينهم قتال شديد قتل فيه عدّة رجال من الفريقين، ثم

١. أدما: هي قرية لبنانية من قرى قضاء كسروان في محافظة جبل لبنان.

٢. العيوني، علي بن المقرب ديوان ابن المقرب، تحقيق وشرح: عبد الفتاح محمد الحلو، مكتبة التعاون الثقافي: الأحساء، الطبعة الثانية: ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م: ٥٤٨.



سارت الهزيمة على الدواسر وعايد، واستولى زامل على محلتهم وأغنامهم وإبلهم وأقام في الخرج نحو عشرين يوماً ثم قفل عائداً إلى وطنه»^١.

وكانت له حملة قوية على نجد سنة ٨٥٥هـ، ثم أتبعها بحملة شرسة سنة ٨٦٦هـ أخضع خلالها القبائل النجدية التي كانت ترصد وتعترض طريق القوافل وتبطش بالحجاج على حدٍ سواء.

هذا الأمر يقودنا إلى إدراك إنَّ بني جبر كان لهم اهتمام بجانين:

الجانب الديني:

ويتمثل في الحج الذي هو من أركان الدين وشعيرة عبادة عظيمة حثت النصوص على أدائها، لذا ينبغي ردع كل من يحاول أو تسول له نفسه التعرض لحجاج بيت الله الحرام بالسوء، ومن هنا تجلّى هذا الجانب في الدولة الجبرية بكونها دولة دينية تهتم بالعلم والعلماء وتولي لها أهمية كبيرة.

الجانب الاقتصادي:

باعتباره مصدر تمويل الدولة وقوتها وعزتها أمام الأعداء، وأنهم دولة تحمل فكراً اقتصادياً وتجارياً مترامي الأطراف، حيث أولت الدولة الجبرية الحج منذ النشأة اهتماماً خاصاً، وأدّل دليل على ذلك مشاركة أمرائها في موكب الحجيج في كل عام بأعداد كبيرة من الحجاج والجنود، مما يعطي موكبهم هيبة عظيمة أمام الناظرين.

ومما يفسر السر وراء هذا العدد من المرافقين في الركب الأحسائي في الحج، إنَّ سلاطين الجبور حرصوا على تأمين طرق التجارة في بلاد البحرين ونجد، وكان سلاطينهم يقومون بقيادة قوافل الحجيج شخصياً، وهذا يعدّ تعبيراً صريحاً على



حرصهم على سلامة الطريق الحيوي، وما يؤكّد ذلك أنه في عام ٨٩٣هـ، خرجت حملة بقيادة السلطان أجود ضد الدواسر، كما سبق ذكره في واحة الخرج لإخضاعهم، وقد ذكر المؤرخون أنّ السلطان أجود قد قام بالحجّ في تلك السّنة.

ونستنتج من خروج السلطان أجود وتوجّهه لتأديب قبيلة الدواسر التي ربما خرجت لتهديد قوافل الحجّج المتوجّهة إلى مكة، لذا لازم السلطان أجود تلك القوافل العابرة لطريق الحجاز والذاهبة إلى مكة وحتى يؤمّنها من تعدي القبائل النجدية الأخرى إذا كان طريق قوافل الحجّج يعبر منطقة نجد إلى مكة^١. وسبق أن أشرنا في تاريخ الحجّ الأحسائي ما اكتنف رحلة الحجّ من صعوبات على مرّ التاريخ زهقت أرواح مئات الحجّاج ضحيتها في بعض الفترات.

٣- توفير خدمات الطريق:

ونعني بتوفير الخدمات، حفر الآبار في طريق سير الحجّ، إضافة إلى الخانات وأماكن الراحة التي تعدّ مستراحاً للحجّج من عناء السفر ومشقّته، وقد حرصت الدول الإسلامية والزعامات السياسية سواء في العهد الأموي أو العباسي وحتى الدول المتعاقبة على المنطقة خلال القرون المختلفة بالعناية بهذه الجانب، لما يمثله الحجّ من شعيرة دينية مقدّسة فيها الأجر والثوبة، وعليها يتنافس المؤمنون في البذل والعطاء، فيقيمون الأوقاف على سقيا الحجّ وإطعام الدواب، وإيواء المشرّدين، وإسكان القادمين، وغيرها من الخدمات المختلفة التي تخفّف على الحجّج عناءه وتسهّل عليه أداء فرضه.

٤- اختيار الطريق المناسب:

من المهام الكبيرة المنوطة بأمير الحجّ أو من يتولى قيادة الحجّج أن يكون ذا خبرة

١. تاريخ الخليج [الفارسي] وشرق الجزيرة العربية، مصدر سابق: ٤٤٦.



و دراية واسعة بالطرق المختلفة المؤدية إلى الديار المقدسة، ليقوم باختيار الطريق الأنسب والأفضل للحجيج، سواء لمناسبته بسبب عامل الزمن بأن يكون أكثر اختصاراً من غيره، أو للبعد الأمني، أو من حيث توفر مصادر المياه، الأمر اللازم لسير قافلة الحجيج براحة وسلام.

وقد ذكرنا خلال الحديث عن العهد العثماني في الأحساء كيف تعنتي الدولة العثمانية باختيار أنسب الطرق وأفضلها لتسهيل طريق الحاج، عبر توصيات خاصة لمتصرف الأحساء بهذه المهمة.

٥- جعل المخصصات المالية لتأمين الطريق:

امتلاً طريق الحاج من مختلف اتجاهات بقطاع الطرق واللصوص الذين يفرضون ضرائب باهظة وثقيلة على الحاج للسماح لهم بالعبور أو القيام بقتلهم وسلب أموالهم، حتى أصبح الحج من الأمور التي لا يأمن الحاج عودته سالماً إلى أهله ووطنه فكانوا يكتبون وصاياهم ويودعون أهاليهم وداع من لا يحمل عودته، وقد حفل التاريخ الأحسائي بالعديد من المحن والحوادث التي ذهب ضحيتها عدد من الحجّاج.

فكان أحد الحلول الناجعة جعل عطايا سنوية لأمرء المناطق وزعماء القبائل الواقعة على طريق الحاج، مقابل قيامهم بحماية الحجيج أثناء عبورهم في أراضيهم، ومنع قُطاع الطرق وأبناء القبيلة من اعتراض الحجيج، وقد ذكرنا بعض هذه المبالغ والعطايا والمنح التي خصّصتها الدولة العثمانية لأمرء المناطق في نجد، مقابل تأمين وصول الحجّاج وتسهيل عبورهم في أراضيها مع توفير الخدمات اللازمة لهم.



الباب الثاني

معالم طريق الحج الأحسائي

وفيه:

* بيان بعض المصطلحات القديمة

* المسافة بين الأحساء والحجاز

* العوامل المؤثرة في تحديد طريق الحج

* بيان بعض المصطلحات القديمة:

قبل التطرّق والكتابة عن المسافة التي يقطعها الحاج من الأحساء إلى بيت الله الحرام بمكة المكرمة، يجدر الإشارة إلى توضيح بعض المصطلحات التي كانت معروفة ومتداولة في تلك الأزمنة الغابرة، والتي تتمثل في وحدات قياس المسافة والزمن، وذلك على النحو التالي:

البريد:

وهو أربعة فراسخ، والفرسخ: ثلاثة أميال، فإذا كان الميل يساوي (٦٠٩ / ١ كم)،



فيمكن تحديد المسافة بالكيلو ليكون مقدار الفرسخ يساوي (٨٢٧ / ٤ كم)، فإذا قلنا البريد أربعة فراسخ فالنتيجة تكون أن البريد يساوي (٣٠٨ / ١٩ كم) تقريباً.

الدَّرَاع:

وهي من رأس أطول أصبع في اليد إلى نهاية عظم المرفق (من ذراع الآدمي المعتدل الخلقة)، والذراع المعتدل بمقاييس الطول الحديثة يساوي قرابة (٤٨ / متر).

الفرسخ:

الْفَرَسَخ: جمع فَرَاْسَخ، وهو من مقاييس المسافة قديماً. وأصل الكلمة فارسية معربة من كلمة (پرسنگ) أو (پارسنگ)، وتجمع أغلب المراجع اللغوية على أن الفرسخ يعادل ما بين أربعة وستة كيلومترات في النظام الدولي الحالي،^١ وعرفه البعض فقال: الْفَرَسَخ بفتح فسكون لفظٌ معرَّب، وجمعه فراسخ، وهو مقياس من مقاييس المسافات مقدره ثلاثة أميال أي إثنا عشر ألف ذراع مما يساوي (٥٤٤ / ٥ كم).

المرحلة:

هي مسيرة يوم كامل للإبل، ويقدر خبراء الإبل بأن أقصى ما تمشيه الإبل في اليوم هي مسافة تقدر ما بين ٧٠ إلى ٨٠ كم، ومقصودهم في النهار، أما الليل ففي العادة تتوقف القافلة عن المسير من أجل النوم والراحة، وقد تقصر المسافة نظراً لتعرج الطريق وانحنائاته ووعورته فتصل المسافة اليومية المقطوعة إلى ٤٠ كم، وهناك تعريف آخر للمرحلة وهو كما يلي: المرحلة: بريدان والبريد: أربعة فراسخ، والفرسخ: ثلاثة أميال عباسية، فتكون المسافة ثمانية وأربعين ميلاً.^٢

١. موسوعة ويكيبيديا العالمية على شبكة الإنترنت.

٢. مجلة الرسالة الإسلامية. بغداد. العدد ١٢ من السنة ٢٣: (١٤٠٠هـ-١٩٨١م): ٣٤.



الميل:

وهو من وحدات القياس الطوليّة التي ذكرها الرّحالة الأقدمون في حسابهم للمسافات، وهو بحسب المقاييس الحديثة المعتمدة فإنّ الميل الواحد يعادل (٦٠٩ / ١ كم).

منزل:

وهو مصطلح يطلق على المكان الذي تتوقّف فيه القافلة بعد مسيرها الطويل من أجل التزوّد بالمؤن وأخذ قسطٍ من الراحة، ويكون (المنزل) إما مأهولاً بالسكان كالقرى حيث الآبار وتوفّر الماء حول الواحات، وقد تكون فقط مناطق معروفة ومشهورة تقع ضمن طريق الحاجّ، وهي على مسافات مختلفة قد تطول وتقصّر. ولهما مسمّيات معروفة ومتداولة بين الرّحّالين، فيقولون مثلاً بين البصرة ومكة المكرمة ٢٨ منزلة، أي محل للنزول والتوقف، أو نقطة عبور يتم المرور عليها، ويختلف عددها ومسمياتها من طريق إلى آخر من ناحية العدد والأماكن، علماً أنّ بعض الطرق تتقاطع في بعض المواقع وتفرق في أخرى.

يوم:

وهو في حقيقته يعود إلى (المرحلة)، حيث يقصدون به مسيرة يوم للإبل، فيقولون بين الأحساء والعارض ستة أيام، وبين العارض ومكة المكرمة ثمانية عشر يوماً وهكذا...، وهي عبارة عن مسيرة يوم للإبل في حالته الطبيعية المستوية، مع حساب التوقفات المعتادة، فهو حساب تقريبي وليس على وجه الدقة، وقد يختلف من وقت لآخر تبعاً لبعض الظروف، وحجم القافلة وأعداد مرافقيها.

فعلى سبيل المثال المسافة بين الأحساء إلى البريمي في عمان يرى (لوريمر) أنه يمكن قطع المسافة بين الهفوف والبريمي في عشرة أيام، أما القوافل فتقطع المسافة في مدة



شهر^١، ونلاحظ مقدار التباين في الوقت بين الأفراد والقافلة.

وتكمن أهمية تحديد الأيام والمراحل في تقدير الوقت الذي تستغرقه الرحلة ليكون الإستعداد بحسبها من حيث التزوّد بالمؤن.

* المسافة بين الأحساء والحجاز:

تعددت الأقوال في تحديد المسافة بين الأحساء وبلاد الحجاز تبعاً لإفادات مختلفة من المؤرخين، وذلك بشأن تقدير المسافة الطولية والزمنية التي استغرقوها أثناء رحلاتهم التي قاموا بها بين الأحساء والحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة، وهنا سنحاول استعراض عدد من هذه الأقوال لتتعرّف على المسافة وتقديراتها، من خلال عدّة اعتبارات مختلفة:

أولاً: من خلال الطريق المباشر، المسافة بين الأحساء ومكة المكرمة:

وردت في المصادر القديمة عدّة تقديرات للمسافة بين الأحساء ومكة المكرمة تبعاً لتجربة الرحالة أو صاحب قافلة الحجّ، وهي في حقيقتها تقديرية لاختلاف المسافة تبعاً لعوامل عديدة نأتي عليها فيما بعد، فقد ذكر الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المسافة التي يقطعها الحاج من الأحساء إلى مكة المكرمة، ولهم في ذلك أقوال مختلفة.

يقول ناصر خسرو (ت ٤٨١هـ) في كتابه (سفرنامه):

«بعد إتمام الحج استأجرت جملاً من أعرابي لأذهب إلى الحسا، وقيل إنهم يبلغونها من مكة في ثلاثة عشر يوماً»^٢، وهو كلام غير دقيق، إلا إذا كان الحديث عن الأفراد

١. عبد الله، الدكتور محمد مرسي، إمارات الساحل وعمان والدولة السعودية الأولى ١٧٩٣-١٨١٨م، المكتب المصري الحديث؛ القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٨م: ٤٢.

٢. سفرنامه، ناصر خسرو، مصدر سابق: ٣٨.



ومن يَحْثُونَ الشَّرَّ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ إِلَّا لِسَاعَاتٍ قَلِيلَةٍ.

بينما يقدِّر المؤرِّخ عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصاري الجزيري (٩١١-٩٧٧هـ) في مطاوي كتابه «درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة»، المسافة بقوله: «بين الأحساء ومكة المكرمة ثلاثمائة وثلاث وثلاثون ميلاً، بما يعادل مئة وإحدى عشر فرسخ، في الجهة الغربية منها»^١.

والكلام هنا لا يخلو من مبالغة كسابقه، فالمسافة أطول مما قاله بكثير، وكلامه مبني على السماع لا على التجربة وخوض الطريق.

ومن قام بتحديد المسافات بين الأحساء والديار المقدسة، والمناطق الأخرى التي على طريق الحاج الأحسائي وقد استفاد منه من جاء بعده هو حاجي خليفة المعروف بـ «كاتب جلبي»، (١٠١٧-١٠٦٨هـ) حيث يقول:

«فصل بيان نجد (العارض)... بلد واسع يخرقه جبل يسمونه جبل العارض ويسمونه الآن جبل العمارية، إلا أنهم لا يدخلون في طاعة الأشراف، وبداية هذا الجبل تبعد عن الحجاز ثلاثة مراحل، ويمتد أحدها إلى نجد العارض، وغرب هذا الجبل يقف مثل الجدار من الحجر الأبيض، والوجه الشرقي منه أرض رملية، وتقع حجر اليمامة في وسط وجه الحجر الشرقي، وهي تبعد عن الوجه الحجري من اليمامة مرحلتين، وتقع سرين في وسط العارض ويوجد في هذا الجبل وإد يسمونه وادي بني حنيفة وفي هذا الوادي توجد المياه والأشجار والنخيل في غاية من الجمال وقد زينت في أطرافها القرى، ويوجد في أعلاها بلدة الدرعية، وفي أسفلها ضبيع، وأهلها بنو تميم وشيخهم آل مريد، والدرعية تقع على طريق حجّاج الأحساء، وواديها في غاية الصعوبة، وبلاد العارض تقع على هذا الوادي، ويوجد بالقرب منها جبل أبو عوف، والعينة بلدة جميلة وهي تقع في الشمال الغربي من الدرعية وبها عنب فاخر وخوخ

١١٤ ١. أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، مصدر سابق ٢: ٤٧.



وتمر وخوخها ينبت من نفسها، أما ملهم فتبعد ست مراحل من الأحساء ويوجد بها قصب السكر والتمر والعنب والخوخ»^١.

إلى أن يقول:

«أما مرارة (مرات)،^٢ فهي تبعد عن الدرعية مرحلتين، وبها ماء ونخيل، ووقف مرارة يبعد شمال غربها ستة أميال وبها نبع مياه، وتبعد عن الدرعية مرحلتين، ومن شقراء خمس مراحل ولها واديان يقعان بالقرب منها، وفي شقير، يوجد أشجار، وبلدة الرياض تقرب من الأحساء، وهي تشمل على بلدات وقرى من بلداتها منفوحة، وهي تبعد عن الأحساء ست مراحل، وبقرى قصر الدرعية توجد معكالك، في شرق الدرعية وهي تقع في مرحلة واحدة من اليمامة»^٣.

وأوضح «كاتب جلبي» منازل وطرق حجاج الأحساء التي تمر بالعارض، فأشار بالقول: «إلى جُودة ومنها إلى ضان إلى الدهناء إلى دحل وإلى جبل عرنة، ومنها إلى ملهم إلى جفر إلى ربض - لعلها الرياض - إلى الدرعية إلى حيسية إلى مرارة (مرات) إلى الشعراء»^٤.

«أما حاج السلمية والدلم فيخرجون منها إلى وادي بريك ونعام، ثم يتجهون غرباً (غرب العارض).

ويمر على هذا الوادي أيضاً طريق ركب الحساء والقطيف، وفيه يقول الشاعر:

لَعَلَّكَ تُوطِينِي نَعَاماً وَأَهْلَهُ وَلَوْ بَانَ بِالْحُجَّاجِ عَنْهُ طَرِيقُ

١. قوافل الحج المارة بالعارض، مصدر سابق: ٩٣-٩٤.

٢. مرات: محافظة تقع في الجهة الشمالية الغربية لمدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية وتتبع إدارياً لمنطقة الرياض.

٣. قوافل الحج المارة بالعارض، مصدر سابق: ٩٥.

٤. م. ن. ٩٧.



وهذا الوادي من أكبر الطرق المعتبرة للقوافل التي تمتاز من الحوطة والحريق والخرج مقبلة من العالية وعائدة إليها ومعه طريق حجّاج تلك الجهة وما يصاحبها،^١ شرقاً».^٢

ففي هذا الكلام تتضح بعض معالم الطريق التي تتخلل طريق الحاج من الأحساء إلى الديار المقدسة، لكنّ «كاتب جلبي»، لم يعط مسافات دقيقة أو مترابطه نستطيع من خلالها تحديد معالم الطريق الذي أراد بيانه، بغرض معرفة مجموعة من أهم المحطات والمعلم التي يتوقّف عندها الحاج الأحسائي في طريقه وما تمتاز به من خصب ورعي وجبال. وهنا نشير إلى أنّ ابن علوان الدمشقي سلك طريق الحاج الأحسائي في زيارته للأحساء، وذلك عندما قفل راجعاً من حجّه لبيت الله الحرام وزيارة المسجد النبوي مريداً بذلك زيارة العتبات المقدسة بالعراق وذلك عام ١١٢١ هـ، فحينما سئل عن المسافة بين الأحساء ومكة المكرمة ذكر أنه قطعها مع الركب في ثمانية عشر يوماً، وإنّ الإياب من مكة إليها يبلغ خسمة وعشرين يوماً.^٣

المسافة بين الأحساء والمدينة المنورة:

توجد عدّة تقديرات للمسافة بين الأحساء والمدينة المنورة، إذ يُقدّر الجغرافي «الإصطخري» في كتابه «المسالك والممالك» المسافة من البحرين إلى المدينة المنورة بنحو خمس عشرة مرحلة.^٤

١. يصاحبها: أي يجاورها.

٢. قوافل الحج المارة بالعارض، مصدر سابق: ١٠٢.

٣. الدمشقي، السيد مرتضى بن علوان، رحلة مرتضى بن علوان إلى الأماكن المقدسة والأحساء والكويت والعراق، تحقيق وتعليق: أ. د. سعيد بن عمر آل عمر، مكتبة المتنبّي: الدمام، الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ: ١١١.

٤. الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي (المتوفى: ٣٤٦هـ)، المسالك والممالك، الهيئة العامة لقصور الثقافة: القاهرة الطبعة الأولى: (د.ت): ٢٨.



أما صاحب «أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك»، فيذكر بأن المسافة بين الأحساء والمدينة المنورة ٢١ يوماً، حيث يقول واصفاً الأحساء:

«وهي ذات نخيل كثيرة ومياه جارية ومناييعها حارّة شديدة الحرارة، وهي في البرية... وليس للأحساء سور، وبين الأحساء واليامة مسيرة أربعة أيام»،^١ ثم يذكر أنّ المسافة المقدّرة بين اليامة والمدينة المنورة هي خمس عشر مرحلة.^٢

ثانياً: من خلال الطريق غير المباشر:

ويمكن حساب المسافة بطريقة أخرى، وذلك باعتبار تقسيم المسافة إلى نصفين من الأحساء إلى اليامة، ومن اليامة إلى مكة المكرمة وهي كما يلي:

المسافة من الأحساء إلى اليامة:

هناك عدة تقديرات للمسافة نذكرها، وهي:

المسافة بالفراسخ:

فقد ذكر «ناصر خسرو» المسافة ناظراً لعدد الفراسخ التي تفصل بين البلدين، فيقول: «وَمِنَ الْيَمَامَةِ إِلَى الْحَسَا أَرْبَعُونَ فَرَسَخًا وَلَا يَتَيَسَّرُ الذَّهَابُ إِلَيْهَا إِلَّا فِي فَصْلِ الشِّتَاءِ حِينَ تَتَجَمَّعُ مِيَاهُ الْمَطَرِ فَيَشْرَبُ النَّاسُ مِنْهَا، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ فِي الصَّيْفِ».^٣ ووفق هذا التقدير لو أردنا ترجمة المعنى المقاييس الحديثة فإنّ المسافة بحسب قوله

١. البروسوي، محمد بن علي، الشهير بابن سباهي زاده (ت ٩٩٧هـ / ١٥٨٩م)، أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، تقديم وتحقيق: المهدي عيد الرّواضية، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م: ١٣١.

٢. أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، مصدر سابق: ٧٣٣.

٣. سفرنامه، ناصر خسرو، مصدر سابق: ١٤٢.



تكون كالتالي:

$$* \text{الفرسخ ثلاثة أميال} = 3 \times 609 / 1 = 1827 / 4 \text{ كم}$$

$$* \text{المسافة كاملة: } 40 \times 1827 / 4 = 193 / 08 \text{ كم}$$

والصحيح أنّ المسافة بحساب الكيلومتر هي ٤٥٠ كم، فحتى لو قلنا باختلاف الطرق بين الماضي والحاضر فمن غير المعقول أن يكون الفارق بهذا الحجم الكبير. وهذا يعطينا اعتقاداً جازماً بعدم صحة كلام ناصر خسرو، من حيث أنّ كلامه أبعد ما يكون عن الواقع واعتماده على النقل في تحديد المسافة.

المسافة بالأيام:

أما صاحب (أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك)، فقد حسب المسافة باعتبار آخر وهو عدد الأيام التي يستغرقها الطريق بين البلدين، حيث يقول: «وليس للأحساء سور، وبين الأحساء واليامة مسيرة أربعة أيام، وأهل الأحساء والقطف يجلبون التمر إلى الخرج وادي اليامة، ويشترون بكل راحلة من التمر، راحلة من الخنطة»^١.

وهذا خلاف ما ذكره «الحموي» في معجمه من أنّ المسافة بين البحرين واليامة مسيرة عشرة أيام.^٢

وقد اختلفت التقديرات بين أربعة أيام إلى عشرة أيام، فإذا قلنا بأنّ المسافة اليومية التي يمكن قطعها في حدود ٧٠ كم تقريباً فإنّ المسافة تستغرق ما تعادله بالأيام حسب الآتي:

١. أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك، مصدر سابق: ١٣١.

٢. الحموي، شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله، معجم البلدان، دار إحياء التراث العربي:

بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ ١٩٩٣ م. ٥: ٤٤٢.



* ٤ أيام = ٢٨٠ كم

* ١٠ أيام = ٧٠٠ كم

وكلا القولين بين المبالغة والتقصير في تقدير المسافة، بينما حدّده البعض بسنة أيام، وهو الأكثر دقة وعليه يكون:

* ٦ أيام = ٤٢٠ كم.

المسافة من اليمامة إلى مكة المكرمة:

في حين ذكر بعض البلدانين أنّ المسافة بين اليمامة ومكة المكرمة خمس عشرة مرحلة^١. فإذا قلنا بأنّ مسير الإبل في اليوم حدود (٧٠) كم، فإنّ المسافة تكون بين اليمامة ومكة حدود (١٠٥٠) كم، وهي مسافة ليست بعيدة عن الواقع، لو كان الطريق مباشراً وقليل التعرّجات التي نجدها اليوم في سير السيارات الحديثة.

* العوامل المؤثرة في تحديد طريق الحج:

الراصد لخط سير الحجاج من وإلى الأحساء والمتتبع لحركتهم و تنقلاتهم يلاحظ تباين التقديرات الحسابية للمسافات المقطوعة بين مختلف القرى والمحطات والمنازل من لدن المؤرخين والرّحالة، ولعلّ مردّد ذلك عدّة عوامل شاخصه ينبغي أخذها بعين الاعتبار، وأهمّها ما يلي:

١- اختلاف الطرق:

كثيرة هي الطرق المسلوكة من الأحساء إلى اليمامة أو من الأحساء إلى مكة المكرمة،

١. ابن خردادبه، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، المسالك والممالك، مطبعة برييل: مدينة ليدن،

الطبعة الأولى: ١٨٨١ م: ٥٠.



وقد تختلف المسافات باختلاف الطريق التي هي متباينة طولاً وقصراً وهذا ما سنلاحظه خلال الصفحات القادمة في تحديد المناطق التي يمرّ عليها الحجاج الأحسائي، أو الطرق بين الأحساء ومكة المكرمة، والتي ذكرها الجغرافيون في مدوناتهم وتصانيفهم.

وهذا الاختلاف البيّن في المسافات بين النّزل القائمة على الطريق أتاحت لقوافل الحجّ فرصة للمراوغة والوصول إلى الديار المقدسة بعيداً عن الطرق المعهودة والتي يترصدها عادةً قُطّاع الطرق من القبائل القاطنة وسط الصحراء، وتشكل عقبة كُأداء أمام الوصول بسلام لمكة المكرمة.

٢- حالة الطقس حين المسير:

فقد ذكر المهتمّون بدراسة الطرق والمسالك أنّ الحجاج كانوا يسلكون طريقاً معيّناً إذا كان موسم الحجّ في فصل الصيف، مختلف عنه في فصل الشتاء، وذلك أنه في الصيف تحتاج القافلة إلى البحث عن منابع الماء والمنازل طوال الطريق للتوقّف عندها من أجل التزوّد بالماء، وسقي الإبل من جهة أخرى، وهذا قد يجرّفهم عن الجادة لمسافات طويلة تسهم في تأخر الوصول وطول المسافة.

بخلاف لو كان موسم الحجّ يصادف فصل الشتاء فإنّ الحاجة للماء تكون أقلّ والدوابّ أكثر تحمّلاً للعطش، وبالتالي يأخذ الطريق مساراً آخر، يتناسب مع طبيعة الطقس، فيكون انتقاء أقرب الطرق الموصلة إلى مكة.

يقول الشبانان في كتابه عن بلاد الصّمان حول مسير القوافل من البحرين إلى الحجاز:

«تتنقل برّاً بواسطة الجمال إلى أواسط نجد، ومنها إلى الحجاز كقوافل الحجاج، وكانت قوافل الإبل المحملة بالبضائع والمؤن والمسافرون تشق طريقها في الصحراء عبر دروب متعددة حسب جهتها، وهذه القوافل تمرّ في طريقها بصحراء الصّمان، فيعمد سالكوها المرور بموارد الماء الموثوق بها، خصوصاً في فصل الصيف، وفي الشتاء



يسلكون دروباً غير مشهورة لا تمرّ بموارد الماء لكونها أقصر مسافة، ولأنّ الإبل لا تحتاج إلى الماء في الشتاء مثل الصيف»^١.

ومثل هذا الكلام تكمن أهميته أنه لا يختص بالسائرين على طريق الصمّان إلى اليمامة فقط، وإنما يشمل جميع مراحل الرحلة إلى الديار المقدسة سواء في الذهاب أو الإياب، حيث يكون هناك منازل، وصحاري يعبر عبرها الحاج، منها ما هو طويل المسافة، ومنها ما هو أكثر اختصاراً، إلّا أنه أحد العوامل المؤثرة في اختيار الطريق هي مسألة الطقس حارّاً أو بارداً.

ومن جهة أخرى - في مثل هذه الظروف رغم البحث عن الطرق القريبة لقلة الحاجة للماء - فإنه ينبغي مراعاة تجنب السير بين الجبال والأودية قدر المستطاع لما قد يحدث فيها من سيول جارفة نتيجة لوقوع الأمطار على قمم الجبال، مما يجعل السير والعبور منها من الأمور العسيرة ويكتنفها الكثير من المجازفة والمخاطرة.

٣- البعد الأمني في الطريق:

عطفاً على ما سبق استطراده من بيان في مطاوي البحث فإنّ طريق الحاج محفوف بالمخاطر ومليء بقطّاع الطرق وممن يأخذون ضريبة العبور من رجال البادية، مما يرهق الحاج ويكلفه الكثير، لذا يراعي أمير الحاج توخّي الحذر أبان سيره بالبعد عن مواطن تجمع قُطّاع الطرق، أو مخيمات البدو ذوي السمعة السيئة في طريق الحجّاج. وقد سبق أن أشرنا لبعض الحوادث المتعلقة بطريق الحجّاج الأحسائي، وإن كانت المأساة عامة شاملة لجميع الطرق المختلفة، فهناك تقاسم داخلي بين القبائل للصحراء وطرق الحجّاج بحيث تتولى كلّ قبيلة جزءاً منها تتصيد من خلاله القوافل الواصلة بغرض فرض ضريبة وإلزامهم بدفعها طوعاً أو كرهاً مقابل قطع هذا الجزء من



الطريق، بحيث إن الحاج لو تجاوز عقبة لا يضمن نجاته من الأخرى، وحتى قدرته المائيّة قد تتضعع جرّاء ما يستنزفه على شكل ضرائب.

لذا قد يصادف في بعض الأعوام إنّ الحجّاج يرجعون من حيث أتوا نتيجة للأزمات والصعوبات التي تكتنف الطريق، فلا يكون حجّ في ذلك العام نظراً لضيق الوقت وفوت الموسم عليهم.

وقد يلجأ قائل القافلة وأمير الحاجّ إلى اللجوء للطريق البحري بأن يركب البحر من ميناء العقير إلى جدّة ملتفاً على الجزيرة العربية، ومنها إلى مكة نظراً لقصر المسافة وقلة القبائل المتواجدة عليه، بالإضافة إلى حرص الدول الحاكمة على تأمين طريق الحاجّ قدر المستطاع وحماية سالكيه.

٤- خبرة الدليل:

لا يمكن لأي ركب أن ينطلق إلّا بوجود دليل ومرشد خبير بمواقع النجوم والمنازل والطرق بتعرجاتها ووعورتها، فإذا كان على دراية كبيرة جنبّهم ووعورة الطريق والمسافات الطويلة عبر اختيار أحسن وأفضل الطرق للوصول إلى مكة المكرمة.

لهذا برزت مجموعة ممن لديهم خبرة بطرق الحاجّ سواء من أهل المنطقة أو دليل من أهل البادية، ويشترط فيه معرفته بالمسافات وأماكن الآبار والمنازل التي يتوقف عندها الحاجّ، كما يشترط أن تكون لديه إحاطة تامّة بالطرق البديلة التي يمكن أن يسلكها الحجّاج عند انغلاق طريق الجادة.

كما أنّ هناك جانب مهمّ في شخصية الدليل لا يمكن تغافله، وهو خبرته ودرايته وعلاقاته العامّة بالقبائل التي تعيش في طريق الحاجّ، علاوةً على ذلك معرفته بمساحة تمدّدها الجغرافي وحدود نفوذها ليتجنب القبائل ذات الصيت السيء المشهورة بقطع الطريق واستغلال موسم الحج في النهب والسلب.



٥- حجم القافلة:

إنَّ حجم القافلة وضخامتها له أثر في سرعة وبطء سير القافلة، فكلما كبر العدد كلما كان هناك حاجة لكثرة التوقيفات ومراعاة الضعيف فيهم، كما أن توقيفاتهم للطعام أو لقضاء الحاجة تطول مما يسهم بدرجة في طول المسافة.

٦- اقتناء البضائع والمؤن:

عادةً ما يأخذ الحجاج سواء عند الذهاب أو الإياب بضائع ومنتجات وحرقيات من بلدهم إلى مكة المكرمة، مما يسهم في تناقل حركة النقل والمشى في القافلة، وهنا لفئة مهمة أشار إليها ابن علوان عندما سأل الحجاج عن المدة يستغرقها الطريق بين الأحساء ومكة المكرمة ذهاباً وإياباً، فقال: «وذكر لنا أن المسافة من الحسا إلى مكة أتوها الحاج بثمانية عشر يوماً، وإنَّ الإياب من مكة إليها يبلغ خمسة وعشرين يوماً»^١. من هذا الاقتباس نلاحظ أنَّ الفارق هو (٧) أيام زيادة لصالح الإياب، وذلك بسبب الهدايا التي يحملها الحاج معهم لأهلهم وأقاربهم كبركة من الديار المقدسة، وقد يكون الإنهاك والتعب في العودة ممن يجعلهم أضعف وأكثر حاجة للراحة. كما يمكن للقوافل في طريق العودة أن تتخذ مساراً مختلفاً عن طريق الذهاب تحسباً لوجود من يكمن لهم في الطريق ويترصد لهم، لأنَّ الحاج بعد فراغه من أداء المناسك همَّه الأكبر الوصول سالماً بغضَّ النظر عن الوقت الذي يستغرقه ذلك، لذا يعمدون لطرق بعيدة لكي تكون أكثر أمناً وسلامة من الطرق المختصرة والمطروقة من الحاج.

٧- العامل التاريخي:

ونقصد به التعاقب التاريخي للحقب الزمنية، فقد نلاحظ محطات ومنازل متآخه



لطريق الحجّ تتغيّر مسمّياتها وحتى مواقعها من فترة إلى أخرى، وقد يصل الأمر إلى اندثارها وطمس معالمها.

ذكر المؤرّخون والجغرافيون الأوائل أنّ للحجّ الأحسائي عدّة طرق مختلفة تبعاً لما سمعوه، أو ما لمسوه من خلال تجاربهم الشخصية، وذلك لرحلة الحجّ من الأحساء إلى مكة المكرمة أو العكس.

وهذا قد يتأثر نتيجةً لاندثار المعالم والشواهد العلامات وبيروز معالم أخرى في نفس المكان أو ما جاوره، فما كان عامراً ومزدهراً في حين من الوقت وسبباً لاتخاذ طريقاً في زمن من الأزمنة، قد يصبح مهجوراً ومتروكاً في زمن آخر، وتبعاً لهذا يتغير الزمن والمسافة.

* الفصل الأوّل: الطرق المباشرة إلى مكة المكرمة

طرق ومنازل الحجّ من الأحساء إلى مكة المكرمة:

وردت في المصادر التاريخية مجموعة من الطرق التي سلكها حجّاج الأحساء على مدى العصور الإسلامية، حيث استطعنا رصد مجموعة منها من خلال المصادر التاريخية وما سطره الرّحالة في مدوّناتهم، وهي كما يلي:

الطريق الأوّل، الطريق القديم من الأحساء إلى مكة:

سلك الأحسائيون خلال تاريخهم الطويل عدّة طرق إلى الديار المقدسة تبعاً للظروف المختلفة، حيث عاصروا الحقب التاريخية التي أسهمت في تغيّر الطرق والمنازل التي اعتاد الحجّاج التوقف عندها للتزوّد والراحة.

وسنعرض هنا واحداً من الطرق التي تعود إلى القرن الثالث الهجري، والذي يعد من أقدم الطرق التي تمت الإشارة إليه للحجّ الأحسائي، وقد رصدناه من خلال



ثلاثة جغرافيين لهم باعٌ واسع في معرفة الطرق والمسالك بمختلف البلدان، حيث أشار كلُّ واحدٍ منهم إلى جزئية من الطريق لتكتمل الحلقة من الأحساء إلى مكة المكرمة، وهي على ثلاث مراحل:

* المرحلة الأولى، من الأحساء إلى اليمامة:

تعدّ الأحساء البوابة البحرية لمنطقة نجد وما حولها، كما أنّ نجد هي طريق القوافل الخارجة من الأحساء والمتجهة لوسط الجزيرة العربية من أجل التجارة أو إلى الحجّ، وحيث أنّ منطقة الخرج هي أقرب المناطق للأحساء من جهة تهامة، لهذا كانت قوافل أهل نجد من الدواسر إلى حوطة بني تميم يأتون إلى الخرج لمرافقة القوافل الميمّمة شطر الأحساء عبر (الوسيع) أو (أبو جفان)، ويتبعهم أهل شمال نجد وحجر اليمامة لبدء رحلتهم إلى الأحساء، وذلك لأنّ هذين الموردين لا يوجد بعدهما موارد ماء معتمدة في الطريق إلى الأحساء (مسافة ٤ أيام)، كما أنّ رمال صحراء الدهناء تكون مسافة عرضها أقل عبر هذا الطريق المعروف قديماً بـ: (طريق زري)، والوقت الحاضر بـ: (درب مزليج)، وقد أشار الهمداني إليه في طريق الأحساء اليمامة.

وإليك وصف الطريق الذي ذكره أبو محمد الحسن الهمداني، مع تحقيق الأماكن التي ذكرها الهمداني، وتبيين المصطلحات الموجودة في النص، لما لذلك من أهمية تكمن في معرفة طبيعة رحلة الحجّ وما يكتنفها من صعوبات.

فقد ذكر الهمداني (٢٨٠ - بعد ٣٣٦هـ)^١ في كتابه: «صفة جزيرة العرب»، عند الحديث عن درب حاجّ الأحساء إلى اليمامة:

١. أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود بن سليمان الأرحبي البكيلي الهمداني (٢٨٠ - بعد ٣٣٦هـ)، من أعظم جغرافيين جزيرة العرب في عصره، وكان شاعراً كذلك، وله إحاطة بعلوم الفلك والحكمة والفلسفة والكيمياء. سجن في أخريات حياته، وكان من أهم ما كتب الجوهرتين العتيقتين. قضى بعد السجن عام ٣٣٦هـ.



«وإذا أراد أهل البحرين التوجّه إلى اليمامة صعّدوا الطريق، فيكون عن يمينك «خرشيم»^١، وهي هضاب وصحراء مطّرحه إلى «الحفرين» وإلى «السّليحين»^٢، و«الحفران» هما حفر الرّمّانين، وهن من مياه «العرّمة»^٣، وأمام وجهك وأنت مستقبل مغرب الشمس مطلعك من الجيش. «فالحابسيّة»^٤، ثم «مزلقّة»^٥، مفعّلة، ثم «الموارد»، ثم «الفروق الأدنى»، ثم «الفروق الثاني»^٦، ثم تطلع من الفروق من الخوار؛ «خوار

١. خرشيم: لعل المراد بها (خُرَيْشيف): قال ياقوت: «خُرَشَاف: موضع بالبيضاء من بلاد بني جذيمه بسيف البحرين في رمال وعثة تحتها أحساء عذبة الماء عليها نخل بعل»، ويقول الجاسر في معجمه أنه: «بسيّف القطيف». معجم البلدان ٢: ٣٥٩، حمد الجاسر، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية المنطقة الشرقية: (البحرين قديماً)، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ، ٢: ٥٩٨.

٢. يعرفان الآن باسم (سَلْح ورويغب)، وهما منهلان يقعان غرب الدهناء، قال صاحب المعجم: «وهي هجرة من هجر البادية، للسهول لآل منجل، والمحانية منهم في أعلى شعب من شعاب وجه العرمة الغربي، وبأسفله أبارق شقر تضاف إليه، فيقال (شُقران رويغب) وعند الأقدمين يجمع مع ماءها (السّليح) فيقال: «السّليحَيْن، كالحفرين، قال الهمداني: إلى الحفرين وإلى السّليحين»، بن خميس، عبد الله بن محمد، معجم اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، ١: ٤٩٠.

٣. العرّمة: ماءٌ عدّ، يقع في ناحية الرقاش الشرقية، شمال وادي القمر، وسمّي بهذا الاسم نسبة إلى مالكة العرم الشيباني، وهو في أطراف بلاد عتيبة مما يلي بلاد الدواسر، جنيدل، سعد بن عبد الله، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية عالية نجد، دار اليمامة، الرياض، ط. ١. (د.ت) ٣: ٩٣٨.

٤. الحابسيّة: لعلّه يقصد من: أحباس، تجعل للماء، والحبس الماء المستنقع، وقيل الحبس حجارة تبنى على مجرى الماء لتحبسه للسارية، ويسمى الماء، معجم البلدان مصدر سابق ٢: ٢١٣.

٥. قولهم مكان زلق أي دحض، وزلقت رجله تزلق زلقاً، والزلاقة: الموضع الذي لا يمكن الثبوت عليه من شدة زلقه، والتشديد للتكثير، معجم البلدان، مصدر سابق ٣: ١٤٦.

٦. لعل مراده وادي الفروق وهو يقع في الجزء الجنوبي الغربي من إقليم الأحساء، انظر: القحطاني، الدكتور حمد محمد، الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية في إقليم الأحساء ١٢٨٨-١٣٣١هـ/ ١٨٧١-١٩١٣م، ذات السلاسل: الكويت، ط. ١٤٣٢، ١هـ-٢٠١٢م: ٣٠.



الثَّلَع»، ثم «الصَّليب»، وعن يمينك الصَّلب؛ صُلب المَعَى و«البُرقة»؛^١ بُرقة الثور.^٢
ثم «الصَّمان»^٣... ثم ترجع إلى طريق «زُرِّي»^٤ قاصداً إلى اليمامة، فمن عن يسارك
الديب: ماء يسمى بالديب،^٥ وأنت جائز بالصحصحان،^٦ ومن عن يمينك ماء،^٧
يقال له الدَّحْرُضِي،^٨ وفيه يقول عنتره:

شَرِبْتُ بِمَاءِ الدَّحْرُضِيِّنِ فَأَصْبَحْتُ زَوْرَاءَ تَنْفُرٍ عَنِ حِيَاضِ الدِّيَلَمِ

١. أبرق: الجبل أو الحزم تكسوه رقعة من الرمال فيتكوّن من ذلك لونان يطلق عليه أبرق وجمعه أبرق، ويقصد بذلك ما لمع من أشعة الشمس. الصَّمان، مصدر سابق ١: ١٥٥.
٢. برقة الثور: قال ياقوت: برقة الثور: قال أبو زياد: برقة الثور جانب الصمان، معجم البلدان، مصدر سابق ١: ٣٩٢.
٣. تقع هضبة الصَّمان في الجزء الشرقي من الجزيرة العربية بين درجتي (٢٨٢٤)، ويبلغ طولها ٥٠٠ كم، ومتوسط عرضها ١٠٠ كم تقريباً، وينحدر سطح الصَّمان نحو الشرق والشمال قليلاً (بمعدل ١ / ٧ متر في الكيل الواحد)، الصَّمان، مصدر سابق ١: ١٥٣.
٤. وهو لطريق المعروف بدرب القوافل المسمى زري قديماً، ودرب مزاليح حديثاً. وهو كالتالي من اليمامة إلى الأحساء والعكس صحيح: يبدأ من الرياض ثم يمر بمورد (أبو جفان) في العرمة ثم يجتاز الدهناء ماراً بالمصليبخ ثم المسونية، ثم الثفنة والبيضة ثم الصلب ثم بالمخني ثم ربيداء ثم الشعب والفروق ثم النعلة والغوار حتى منهل ويسة إلى الأحساء، الصَّمان، مصدر سابق ١: ١٥١.
٥. الدبديبة: تقع شرقي الصمان وهي بين البصرة واليمامة.
٦. صحصح: جمعها صحصاح، وهي الأرض الواسعة الجرداء المسنوية، الصَّمان، م. س. ١٧٧.
٧. وكلامه هنا غير صحيح، فقد باعد بين وسيع و دحرض حيث وضع دحرض في الصحصحان قرب الصَّمان، وهذا لا يستقيم فليس قرب الصَّمان في طريق الأحساء أي آبار معتبرة حتى هو نفسه قال في موضع آخر: «وليس بالصمان ماء عدلاً ما كان مياه العرمة قربها»، راجع الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب، صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكواع الحوالي، مكتبة الإرشاد: صنعاء، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م: ٢٥٢.
٨. ماء الدحضرين موردين في العرمة أحدهما اسمه دحرض والآخر اسمه وسيع وجمعاً بصيغة دحرضين، وهو في غرب الأحساء ناحية منطقة الفروق وما حولها.



ثم تقطع بطن قو^١ ثم السمراء^٢ وهو أرض سهب^٣، ثم تأخذ في الدهناء^٤، وهي هناك مسيرة يوم، وتثني من طريق «زري»، تأخذ على الشجرة^٥، وهي الشجرة ذي الرمة^٦، التي مات تحتها^٧، وكتب فيها شعره، ثم تخرج من الجبال والشقاق إلى العثا^٨، وهي

١ . الصحيح (الدو): وتسمى الدبدبة تقع شرقي الصمان، وهي بلد لبني تميم، قال ذو الرمة:

حتى نساء تميم وهي نازحةً بباحه الدو فالصمان فالعقد

المصدر: المضري، غيلان بن عقبة بن مسعود العدوي، ديوان ذي الرمة، شرحه وضبط نصوصه الدكتور عمر فاروق الطباع، دار الأرقم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م: ١٥٣ .

٢ . لعله إشارة إلى حمراء كون تربة صحراء الدهناء حمراء، وقد عبر عنها هنا بسمراء.

٣ . أرض سهب: تعني الأرض مستوية.

٤ . صحراء الدهناء: هي صحراء رملية حمراء في الجزيرة العربية تمتد من النفود شمالاً إلى الربع الخالي، وهي عبارة عن شريط رملي ضيق يتراوح عرضه ما بين ٤٠ و ٨٠ كم، ويمتد على شكل قوس من الشمال إلى الجنوب لمسافة تزيد على ١٠٠٠ كم بمحاذاة جبل طويق. وتصل صحراء الدهناء بين صحراء النفود الكبير في شمال الجزيرة وصحراء الربع الخالي في جنوبها، كما تشكل عند الكثير من الجغرافيين الحد الفاصل بين إقليمي نجد والأحساء، وتشكل الدهناء من كثبان رملية عالية تمتد بشكل طولي وتسمى «عروفاً»، راجع معجم اليمامة، مصدر سابق: ٤٣٦ .

٥ . حيث كانت وصية الشاعر ذو الرمة أن يدفن بديار بني تميم، على كثبان حُزوى، وهي ديار محبوبته ميّة، ديوان ذي الرمة، مصدر سابق: ٥ .

٦ . ذو الرمة: هو غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي الربابي التميمي، كنيته أبو الحارث، وذو الرمة شاعر عربي من الرباب من تميم، من شعراء العصر الأموي، ومن فحول الطبقة الثانية في عصره (٧٧-١١٧هـ) ديوان ذي الرمة، مصدر سابق: ٥-١٦ .

٧ . دفن في رمال حزوى: وتقع رمال حزوى شمال شرق مدينة الرياض بـ: ٢٥٠ كيلاً، شمال مدينة رماح ويربط بين رماح والبلدان الناشئة بالصمان خط إسفلتي يمر ببلدة شوية وبلدة حزوى (العمانية) ورمال حزوى يحف بالبلدتين؛ ويقع القبر في أعلى قمة من رمال حزوى مطل على خبراء (خسيفة) التي غسلوه وصلوا عليه فيها، ثم حملوه إلى قبره الذي حفروه في الرمال وبطنوه بأغصان الأشجار والمدر الطين اليابس (اللبن) حسب وصيته.

٨ . عثا: هي الأرض الرملية، قال ذو الرمة:

تريك وذا غدائر واردةً يصبن عثا حجابات سود

ديوان ذي الرمة، مصدر سابق: ١٥٥ .



السلاسل وأنت في ذلك تأخذ طريقاً يقال لها الخلل^١؛ خلّ الرمل فأول ما تردده من العرمة من عن يسارك. قلت هبل، وهي تنكش وتعضب سريعاً^٢، ومن عن يمينك قلات يقال لها النظيم^٣؛ نظيم الجفنة، ومن عن يمين ذلك على ميسرة الشباك^٤، شباك العرمة والغرابات^٥.

ثم تقطع العرمة فترد وشيعاً^٦؛ وهو من مياه العرمة^٧، إلا أنه مفضي في ناحية

١. الخلل: هو الطريق النافذ بين الرمال المتركمة والجمع: أخلّ، وخلال. قال زهير بن أبي سلمى:

ظلت على نيسم (خلّ) جازع صعب الصعود صبب المطالع، الصّمان، مصدر سابق: ١٦٩.

٢. ينكش: يزف ويغيض، وتعضب: تنقطع.

٣. النظيم: ما انتظم من أي شيء مثل الخباري أو الأجواء كالجواء النظيم بالصمان، م. س.: ١٩٠.

٤. ينكش: يزف ويغيض، وتعضب: تنقطع.

٥. الغرابات: جمع غرابة: موضع في شعر ليبد وهي أمواه لخزاعة أسفل كلية، وقال الحفصسي:

الغرابات قرب العرمة من أرض اليمامة، وأنشد الأصمعي:

لمن الدار تعفَى رسمُها
بالغرابات فأعلى العرمة

معجم البلدان، مصدر سابق ٤: ١٨٩.

٦. المراد هنا ماء وسيع الذي بالعرمة المذكور سابقاً، وقد يطلع عليه (وشيع) بالشين بدل السين، قال

ياقوت: والوشيع: خشبة غليظة توضع على رأس البئر. في نوادر أبي زياد: وسيع، بالسين مهملة، هو

ماء لبنني الزبرقان قرب اليمامة. وجاء في معجم اليمامة: وما (وشيع) و(وسيع) إلا منهلاً واحداً في

جنوب غرب العرمة الجنوبية، ووادي وسيع ينحدر من ظهر العرمة الجنوبية متجهاً للجنوب الغربي

ويصب فوق الروضة (التوضيحية). معجم اليمامة ٢: ٤٤١. معجم البلدان، م. س.: ٥: ٣٧٨.

٧. ويعني أبو جفان: وهو منهل قديم من مناهل (العرمة) الجنوبية، يرده المسافرون على الإبل بين

(الرياض) و(الأحساء)، وهو إلى (الرياض) أقرب وآبار (أبو جفان) تقع على خط العرض

٥٠/٣٠/٢٤ وخط الطول ٠٢/٤٣/٤٧ وعدد آباره الظاهرة الآن أربع وعشرون بئراً أشهرها

تسمى (القموص). ويبعد (أبو جفان) عن (الرياض) مئة كيل جهة الشرق. ويبدو أن (أبو جفان)

يحمل هذا الاسم منذ القدم، فقد يبدأ المتقدمون بعض أسماء الأماكن بكلمة (أبو) أو (أم) مثل

قولهم (أم أو عال) (٢٢٧) وأن سبب سميته بهذا الاسم وجود قلات تنتظم أسفل الوادي قبل

انحداره مع منحدر جبال (العرمة)، وهذه القلات مدورة الشكل منها واحدة فوهتها مستديرة

كالجفنة (القصة) والعرب يسمون القلات المتقاربة المتتابعة في المجرى المائي النظيم.



القاع،^١ وفيه يقول الرّاجز:

كأنها إنّ وردت وشيعاً خيطان نبع كتمت صدوعا

ثم تسير في السّهباء،^٢ ثم تقطع جيلاً قريباً يقال له أنقد،^٣ ثم الروضة.^٤

ثم ترد الخضرمة؛^٥ جوّ الخضارم مدينة وقرى وسوق، فيها بنو الأخيضر بن يوسف، وهي دار بني عدّي بن حنيفة، ودار بني عامر بن حنيفة، ودار عجل بن لجيم، وديار هودّة بن علي السّحيمي الحنفي، وهي أول اليمامة من قصد البحرين.^٦

١. القاع: هو ما انبسط من الأرض الحرة السهلة الطين التي لا يخالطها رمل فيشرب ماءها، وهي مستوية ليس فيها تطامن ولا ارتفاع، والمقصود هنا في ناحية العرمة. معجم البلدان، م. س. ٢٩٨: ٤.

٢. معنى سهب: السّهْبُ: الفلاةُ جمعه سهب وقال الفضل بن العباس اللّهبي:

وَنَحْلُ مِنْ تِهَامَةَ كُلِّ سَهَبٍ نَقِي التُّرْبِ أَوْ دِيَّةً رَحَاباً

ويقول صاحب بن خميس في المعجم: السهباء بلاد حنيفة، وهي منطقة واسعة في الخرج وروضة من أكبر رياض (الياماة)، هي منخرق وادي حنيفة، مدفع سيوله يكبر سيوله أحياناً ويعظم، ثم ينتهي بهذا المنخرق فيتبدد ويضيع. والسهباء على مقربة من (الخضرمة) قسبة اليمامة، وقاعدتها الحضارية الأولى أيام بني حنيفة، وأيام بني الأخيضر، معجم اليمامة، مصدر سابق ٢: ٣٩.

٣. وتطلق عادة مع كلمة برقة فيقال (برقة أنقد)، قال ياقوت: قال الحفصي: أنقد جبل باليمامة. معجم البلدان ١: ٣٩١.

٤. الروضة: بلدة أكبر وأشهر بلدان سدير وأقدمها، أعلى بلدة في وادي (القصي)، ما عدا قرية صغيرة تدعى (المعشبة)، فالروضة أول بلدة تستقبل سيل هذا الوادي. معجم اليمامة، م. س. ١: ٤٨٥.

٥. قال أبو عبيد البكري في معجم ما استعجم: «خضرمة»: موضع مذكور في رسم اللهاية، ورسم الغورة. وقال الأصمعي: الخضرمات: ركايا باليمامة، وأنشد للعجاج:

إذ حسبوا أنّ الجهاد والظفر إضباع بين الخضرمات وهجر

وقال الصولي: خضرمة: قرية باليمامة، وتقع (الخضرمة) في جو أسفل وادي الخرج في الموضع الذي تقوم فيه بلدة (الياماة) في العهد الحاضر، أو قريب من ذلك الموضع. معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، مصدر سابق ٢: ٥٠١؛ معجم اليمامة، مصدر سابق ١: ٣٨٨.

٦. صفة جزيرة العرب، مصدر سابق: ١٣٨. ١٣٠



وفي هذا الموجز حول طريق الحاجّ أشار إليه عدّة نقاط مهمّة جديدة بالإشارة:

* إنّ المصطلحات المستخدمة قديماً تختلف عنها المستخدمة اليوم، لذا يصعب فهم الكثير من المسميات القديمة نتيجة لتغير اسمها مع مرور الزمن.

* نلاحظ الدقة لدى القدماء وأبناء الصحراء في تسمية أجزاء الصحراء وأبعادها يمنية ويسرى، بحيث يسير العارف بها ويعلم بكلّ جزء منها مما يجعله عارفاً بميزات كلّ جزء فيها ويفرقه عن غيره، وهو ما يطلق عليه (منازل)، وله عدد معين معروف بينهم، وهي بمثابة مسافات يعرفون من خلالها كم مضى من الطريق وكم بقي منه؟

* وجود عدد من الآبار ومنابع المياه طوال الطريق قام البداية والوالة ورجال الخير بحفرها ليتتفع بها رواد هذه الطرق يعرفون مواقعها وله مسميات خاصة بها تميزها عن غيرها، إضافة إلى مواقع زراعية وأماكن مرعى تساعد على تغذية الإبل والرواحل في طريق الحجّ ومسير القوافل.

* معظم الأراضي التي في طريق الحاج تسيطر عليها مجموعة من القبائل تعدّ هذه الصحاري مسكنها ومعروفة بها منذ مئات السنين بينها وبين القبائل المجاورة تحالفات ومعاهدات بعدم التعدي على المساحات التابعة لها.

* بعض المواقع ارتبطت بأحداث تاريخية سواء معارك أو قبور أو غيرها مما يجعلها معروفة بين أرباب البادية، كما يوجد أسواق ومراكز يجتمع فيها أهل البادية، وتاريخها ربما يعود إلى العصر الجاهلي، وقد ذكر بعضها، وهي مما تستفيد منه القوافل في طريقها بحيث تتزود بالمؤمن ولوازم السفر.

* ولعلّ المشكلة في الوصف الجغرافي لبعض المعالم، عدم تطابق معاني بعض المصطلحات المستخدمة في القرن الثالث الهجري مع المصطلحات الحديثة أو المتأخرة، نتيجة لاستخدام أسماء جديدة أصبحت غير مألوفة في القرون المتأخرة؛ لذا نجد اضطراب في شرح بعض المسميات مما أدخلنا في احتمالات قد يكون بعضها خاطئاً.



المرحلة الثانية: من اليمامة إلى ضريبة:

أختلف في سبب تسمية (ضريبة) إلى أقوال عديدة، منها:

نسبة إلى ضريبة بنت ربيعة بن نزال بن معد بن عدنان، وربما سميت ضريبة نسبة لبرها. وضريبة من المناطق القديمة، وهي من أشهر المناطق التي على طريق حجّاج البصرة والبحرين قديماً ففيها ملتقى طرق التجارة والحج.

ونبتت أهميتها لسببين:

* الأول: كونها أصبحت مركزاً للحمى الذي حماه عمر بن الخطاب لإبل الصدقة وأصبح يعرف باسمها، فيقال: حمى ضريبة.

* الثاني: كونها من أهم محطات طريق الحجاج البصري إلى مكة المكرمة.^١

وضريه من المناطق الغنية بالمياه والخيرات، وهي قرية عظيمة غنّاء يطؤها الطريق، فيها بنو عامر والنجار، وعامتها لآل جعفر بن سليمان.

وتعدّ صقعاً واسعاً بنجد ينسب إليه الحمى يليه أمراء المدينة وينزل به حجّ البصرة بين الجديلة وطخفة، بينما ذهب البعض بأنها قرية لبنى كلاب على طريق البصرة وهي إلى مكة أقرب.^٢

وهي المرحلة التي أشار إليها ابن رسته بأنه ملتقى حاجّ البصرة والبحرين، وتكمن أهمية هذه الإشارة - وإن كان أوجز في كلامه - إنّ طريق حاجّ البحرين في المنازل والمراحل بين مكة وضريبة هي نفس مراحل ومنازل طريق حاجّ البصرة، وهو بهذا أعطانا مفتاحاً مهماً لبقية الطريق لحجاجّ البحرين.

١. العبودي، محمد بن ناصر، معجم بلاد القصيم، [د.ن.]، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م،

١٤٠٦/٤.

٢. معجم البلدان، مصدر سابق ٣: ٤٥٧.



فطريق حاجّ البصرة كانت هناك عناية خاصّة به وإشارات كثيرة إليه في جميع مراحلها لأنه سار عليه العديد من الخلفاء خلال الدولة الأموية والعباسية وكبار الشخصيات العلميّة والتاريخية، لذا كان إكمال الحلقة سهل بهذه الإشارة الهامة.

يقول ابن رسته (ت نحو ٣٠٠هـ)^١، في بيان الطريق من البحرين إلى مكة في (الأعلاق النفيسة): «تخرج إلى اليمامة ومن اليمامة إلى الضريّة^٢، ومن الضريّة إلى مكة، والضريّة ملتقى حاجّ البصرة والبحرين، هناك يفترقون إذا انصرفوا من الحجّ، يأخذ حجّاج البصرة ذات الشمال، وحجّاج البحرين ذات اليمين»^٣.

ومن خلال هذا التعريف وما ذكره الجغرافيون عن ضريّة، وما ذكره ابن رسته بأنها ملتقى الحاجّ، ندرك أهمية هذه البلدة وذلك لعدة أمور:

* وجود عدّة قبائل في محيطها: وهذا يعني وجود سوق مفتوح ومكان للتموّل والتزوّد، وأخذ الحاجيات الضرورية لمواصلة السفر وإكمال الطريق.

* توفّر الماء: فقد ضمّت المنطقة بئر ماء حتى قيل إنه سميت باسمه، وهو من أهمّ مستهدفات المسافرين للتزوّد بالماء وسقي الرواحل.

* وفرة المزارع والغطاء النباتي فيها: تعد «ضريّة» من الأراضي الغنيّة بالمياه والأشجار والخيرات، حيث وصفها الرحالة «وهي قرية عظيمة غنّاء يطؤها الطريق»^٤.

١. أحمد بن عمر، أبو علي ابن رسته (ت نحو ٣٠٠هـ/ نحو ٩١٢م) هو جغرافي فارسي، من أهل إصفهان. حجّ سنة ٢٩٠هـ وصنف كتاب «الأعلاق النفيسة»، وصف بها الكثير من المدن والبلاد؛ الكتاب يقع في سبعة أجزاء، لكن لم يصلنا منه إلا الجزء الأخير.

٢. تقع منطقة ضريّة بمنطقة القصيم، وهي تبعد عن الرس ١٥٠ كم، وتبعد عن عفيف ٩٠ كم، وعن الدوادمي ١٩٠ كم.

٣. ابن رسته، أبو علي أحمد بن عمر، الأعلاق النفيسة، مطبعة برييل: مدينة ليدن، الطبعة الأولى: ١٨٩١م: ١٨٢.

٤. معجم البلدان، مصدر سابق ٣: ٤٥٧.



المرحلة الثالثة: من ضريبة إلى مكة:

بعد الإشارة المهمة التي قالها ابن رسته أصبح باقي الطريق لحاجّ البحرين في القرن الثالث الهجري واضحاً وجلياً، وأبرز من أشار لطريق حاجّ البصرة من ضريبة إلى مكة المكرمة والذي هو نفسه طريق حاجّ البحرين هو «ابن خرداذبه». وهذه المرحلة تتكوّن من عشر منازل، بعدها الوصول إلى مكة المكرمة التي هي الغاية والهدف ونهاية الطريق:

يقول ابن خرداذبه،^١ في (المسالك والممالك) عن طريق حاجّ البصرة:

«ثم إلى ضريبة»:

وقد سبق الحديث عنها والتعريف بها.

«ثم إلى جديلة»:

وجديلة: مكان في طريق حاجّ البصرة، وهي من مياه بني وبر بن الأضبط بن كلاب. وجديلة: منهل من مناهل حاجّ البصرة،^٢ وأبرقا حجر: جبلان على طريق حاجّ البصرة بين جديلة وفلجة.^٣

«ثم إلى فلجة»:

منطقة على طريق الحاجّ يوجد بها بئر ماء وهي لبني العنبر،^٤ وتعدّ «فلجة» منزل

١. أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله ابن خرداذبه (نحو ٢٠٥- نحو ٢٨٠هـ) مؤرخ وجغرافي اشتهر بكتابه الجغرافي كتاب المسالك والممالك، الذي وصف فيه المسافات بين البلدان وقد عمل في خدمة الخليفة العباسي المأمون.

٢. معجم البلدان، مصدر سابق ٢: ١١٥.

٣. م. ن. ٢: ٢٢٣.

٤. م. ن. ٤: ٤٢.



على طريق مكة من البصرة بعد أبرقي حجر وهو لبني البكاء، وموقعها بالتحديد في طريق البصرة بعد الزجاج، عرفت بمائها المالح.^١

* «ثم إلى الدثينة (الدثينة)»:

الدثينة والدثينة منزل لبني سليم، بعد فلجة من البصرة إلى مكة، ثم وجرة ثم نخلة ثم بستان ابن عامر ثم مكة.

كما أنَّ (الدثينة) ماء لبني سيار بن عمرو، كانت تسمى في الجاهلية (الدثينة) فتطيروا منها فسموها (الدثينة).^٢

* «ثم إلى قبا»:

قرية قباء أحد أحياء المدينة المنورة تقع جنوبي المدينة. يجري فيها وادي رانوءاء، كانت من قبل قرية مستقلة على طريق القوافل القادمة من مكة ثم امتد العمران إليها فاتصلت ببقية أنحاء المدينة، ويروى أنها سميت قباء ببئر كانت بها يقال لها قبار، فتطير الناس منها فسموها قباء. تتميز قباء بكثرة المياه الجوفية، وقربها، وخصوبة تربتها لذا تكثر فيها مزارع النخيل، والعنب، والبساتين.^٣

* «ثم إلى مران»:

على بعد أربع مراحل من مكة إلى البصرة، بينها وبين مكة ثمانية عشر ميلاً، وفيه قبر تميم ابن مر وقبر عمرو بن عبيد، وهي بين البصرة ومكة لبني هلال من بني عامر، وتعدّ قرية غناء كبيرة كثيرة العيون والآبار والنخيل والمزارع وهي على

١. معجم البلدان، مصدر سابق ٤: ٢٧٢.

٢. م. ن. ٢: ٤٤٠.

٣. م. ن. ٤: ٣٠٢.



طريق البصرة لبني هلال وجزء لبني ماعز وبها حصن ومنبر، ويسكنها أناس كثيرون.^١

* «ثم إلى وجرة»:

وَجْرَة: منطقة تاريخية، تعرف اليوم بـ: (قصر الخرابة)، بين مكة والبصرة، بينها وبين مكة نحو أربعين ميلاً، ليس فيها منزل، فهي مربى للوحوش، ووجرة (البركة)، والسبي (منطقة ركبة): مواضع قرب ذات عرق ببلاد سليم.

وهي على طرق الحاج من البصرة إلى مكة بإزاء «الغمر» المعروفة اليوم بـ: (بركة العقيق، البركة، بركة زبيدة) والتي تعدّ من منازل طريق الحاج الكوفي، منها يحرم أكثر الحاج وهي سرّة نجد ستون ميلاً، لا تخلو من شجر ومرعى ومياه، يكثر فيها الوحوش.

وتعدّ من منازل الطريق لأهل البصرة إلى مكة، بينها وبين مكة مرحلتان، ومنه إلى بستان ابن عامر ثم إلى مكة.^٢

* «ثم إلى أوطاس»:

وأوطاس: وتعرف اليوم بـ: (أم خرمان)، واد في ديار هوازن فيه كانت واقعة حنين للنبي ﷺ، مع بني هوازن. الغور من ذات عرق إلى أوطاس، وأوطاس على نفس الطريق، ونجد من حد أوطاس إلى القريتين.^٣

كما أنّ أوطاس اسم يطلق على الصحراء الواقعة شمال شرقي عشيرة، على صفة

١. معجم البلدان، مصدر سابق ٥: ٩٥.

٢. م. ن. ٥: ٣٦٢.

٣. م. ن. ١: ٢٨١.



العقيق (عقيق عشيرة) من الشرق إلى قرب بركة زبيدة، يقع بسيان بطرفها الجنوبي، بها قصور، وأبيات، وحوانيت، وبركة، وثم مسجد يقال له مسجد عائشة، بناه عبدالصمد بن علي.^١

* «ثم إلى ذات عرق»:

ذات عرق وتسمي اليوم بـ: (الضَّرْبِيَّة) مكان بالبادية قرب عقيق الطائف، سُمِّي بذلك لعرق فيه والعرق هو الجبل، ويقولون إنه منتهى جبال تهامة يفصل بين جبال تهامة ونجد، وهو ميقات أهل العراق، وأهل المشرق قاطبة، ويبعد عن مكة بمرحلتين ونصف، بما يعادل مسافة ٩٢ كم عن مكة شمالاً، أما عن «أوطاس» فهو على مسافة عشرة أميال. وهي وادٍ تحدُّه من الشرق والغرب سلسلة من الجبال الضخمة والذي تتميز الأحجار المكونة له بأنها ذات لونٍ أسود ممزوج باللون الأحمر، وهذه الجبال متصلة بجبال الحرّة الشهيرة التي تحد وادي العقيق الشهير من جهة الغرب.

وذات عرق من الغور، والغور من ذات عرق إلى أوطاس، وأوطاس على نفس الطريق، ونجد من أوطاس إلى القريتين.^٢

وتعد (الضَّرْبِيَّة) أحد روافد مرّ الظهران الكبير الدائمة الجريان، يسيل وادي الضريبة من جبلي ارثامة ومسولا، وأعلاه الشرافة، قراره أرض مرتفعة يسيل ماؤها الغربي الضَّرْبِيَّة والشرقي في سلحة فعقيق عُشير.

ويقع ميقات أهل العراق والقصيم (ذات عرق) في الضَّرْبِيَّة حيث يقطعها درب المُنْقِي، فيها مياه وفيرة، ولها روافد متعددة منها: نجل والرصن، والصَّبِير، والمحفار،

١. معجم معالم الحجاز، مصدر سابق ١: ١٤٥.

٢. معجم البلدان، مصدر سابق ٤: ١٠٨.



* «ثم إلى بستان ابن عامر»:

«بستان ابن عامر» عند مكة، ويقال له: بستان ابن معمر، وهو مجتمع النخلتين اليمانية والشامية. بينما يرى بعضهم العكس، بستان ابن عامر بنخلة، هو عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة. وغير صحيح: بستان ابن معمر؛ وإنه قول العامة. وورد أيضاً بستان ابن عامر لعمر بن عبد الله بن معمر بن عثمان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرة بن كعب بن لؤي، ولكن الناس غلطوا فيه، فقالوا: بستان ابن عامر، وبستان بني عامر، وإنما هو بستان ابن معمر، نسب إلى ابن عامر الحضرمي، وآخرون يقولون: نسب إلى ابن عامر بن كريز.^٢

بينما يذهب البعض إلى كونها بستانين مختلفين، فبستان ابن معمر غير بستان ابن عامر وليس أحدهما الآخر، فأما بستان ابن معمر فهو الذي يعرف ببطن نخلة، وابن معمر هو عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، وأما بستان ابن عامر فهو موضع آخر قريب من الجحفة، وابن عامر هذا هو عبد الله بن عامر بن كريز، استعمله عثمان على البصرة، وكان لا يعالج أرضاً إلا حفر فيها الماء.^٣

* «ثم إلى مكة»:^٤ وهي نهاية الرحلة إلى الديار المقدسة، حيث يتم القيام بالمناسك وأداء فريضة الحج.

١. معجم معالم الحجاز، مصدر سابق ٥: ١٠٣٥.

٢. المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، مصدر سابق ١٤: ٣١.

٣. معجم البلدان، مصدر سابق ١: ٤١٤.

٤. المسالك والممالك، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبه، مطبعة بريل: مدينة ليدن، الطبعة

الأولى ١٨٨١م: ١٤٦-١٤٧.



طريق آخر:

ذكر ابن خرداذبه طريقاً آخر من اليمامة إلى مكة لا يمر على ضرية، حيث قال:
«فمن عدل من النَّباج، فإلى النَّقْرة».

الطريق من اليمامة إلى مكة من اليمامة إلى:

* العَرَض (العارض)، أو هامة تدعو الصّدى بين المشقّر واليمامة: العَرَض: هو
الجلب الممتد عَرَضاً في وسط الجزيرة، ويعرف بهذا الاسم في الوقت الحاضر، وبجبل
(طُوبِق) لبطويقه جزءاً من بلاد المنطقة الوسطى في الجزيرة.^١

* «ثم إلى الحديقة»: قد يكون مراده منطقة زراعية له اسم خاص، وقد عرّفها
بالحديقه، مما فوّت علينا تحديد مكانها.

* «ثم إلى السّيح»: من قرى الزلفي: وتقع مدينة الزلفي في إقليم نجد في أقصى
شمال منطقة الرياض على الحدود القصيمية الشرقية، وتبعد عن مدينة الرياض مسافة
٢٦٠ كم تقريباً شمالاً، وهي مدينة عامرة كبيرة ذات أسواق تجارية ونخيل ومزارع
و ذات أحياء متباعدة تقريباً.^٢

* «ثم إلى الثّنية»: تقع الثّنية في جبل العارض الذي تخترقه فجاج واسعة، منها
ينفذ إلى الأودية التي في جوفه، ومن أشهر تلك الفجاج (الأحيسي)، وفي أعلى هذا
الفج عقبة، وتلك تسمى (ثنية الأحيسي)، ومنها ينفذ إلى (العَرَض) وهو وادي
حنيفة.^٣

١. الدرعية قاعدة الدولة السعودية الأولى، محمد الفهد العيسى، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى،
١٤١٥هـ / ١٩٩٥م: ١٣.

٢. معجم اليمامة، مصدر سابق: ٥٢٩.

٣. الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى، مصدر سابق: ٢٣.



* «ثم إلى سقيراء»: ويعني (سقيراء): تقع على بُعد حوالي ١٨٥ كم شمال غرب الرياض. وهي قاعدة الوشم وكانت سقيراء نقطة توقف رئيسة على طريق الرياض / الطائف للحجاج. وتعدّ أكبر مدن الوشم من حيث التجميع السكاني والوشم معدود من أرض اليمامة.

* «ثم إلى السّدّ»: ولعلّ مراده (روضة سدير): تقع هذه الروضة في إقليم سدير الواقع في الجهة الوسطى من الجزيرة العربية وهي تابعة لمدينة الرياض، وتبعد حوالي ١٦٠ كم.

* «ثم إلى صداة»: لم تتمكن من التعرّف على مقصوده، ربما تغير أسمها مع مرور الزمن.

* «ثم إلى شريفة»: المراد غير معروف ولم أجد من المناطق ما يسمى بهذا الاسم.

* «ثم إلى القريتين»: من طريق البصرة.

* «ثم إلى المنازل التي قد مرّ ذكرها إلى مكّة»^١.

الطريق الثاني، في: «مختصر الجغرافيا الكبير»

وهو طريق كان يسير عليه الحاج الأحسائي خلال القرن الحادي عشر، ولعلّ سار عليه قبل هذا الزمن بعدة قرون، ذكره أبو بكر الدمشقي^٢ في كتابه: «جزيرة العرب

١. المسالك والممالك، مصدر سابق: ١٤٧.

٢. أبو بكر بن بهرام الخنفي الدمشقي (ت ١١٠٢ هـ)، جغرافي عثماني. ولد في دمشق ونشأ فيها ثم رحل إلى إسطنبول وأكمل دراسته هناك، وأتقن كثيراً من العلوم والفنون وتميز في الرياضيات بشكل خاص، وترقى في الدرجات العلمية. واتصل بالوزراء وكان مقرباً من الصدر الأعظم الوزير أحمد باشا الكبري المعروف بالفاضل، ثم تولى القضاء في حلب، وكان مشهوراً بفضل علمه، ألف أبو بكر للسلطان محمد الرابع مصنفاً ضخماً باللغة التركية بعنوان: «جغرافياي كبير» ويقع في ستة أجزاء وله موجز يقع في جزئين، ويعتقد بعض الباحثين أن لهذا الكتاب عنواناً آخر باللغة العربية هو: «نصرة الإسلام والسرور في تحرير أطللس مينور».



في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير»، وعدّد فيه منازل الطريق التي يتوقف عندها الحاجّ. نذكرها مع بعض التعريف بها من خلال المصادر التي تتناول جغرافيا المنطقة. علماً أنّ هذا الطريق يؤخذ عليه عدّة ملاحظات، لعلّ من أهمها:

* إنّ المصنّف لم يعرف بالمناطق والنُّزل، ولم يذكر بعض معالمها، وإنما اكتفى بذكر أسمائها من خلال ما سمعه ممن سار على الطريق.

* إنّ المصنّف وقع في أخطاءٍ كثيرة في مسميات المنازل المذكورة، ولعلّ مرجع ذلك عدم معرفته الدقيقة بالمنطقة، واختلاف اللهجات مما يجعل تعبيره عنها بلهجته قد يغيّر المسمّى، كما أنّ الكتاب كتب في الأساس باللغة التركية فترجمة المسميات من العربية إلى التركية قد يؤدي إلى تحريف في اللفظة أو تصحيفها بسبب اختلاف النطق كما هو معروف، ثم ترجمتها إلى العربية مرّة أخرى، مما ساهم في حدوث خلطٍ آخر، جعل الأسماء غير دقيقة في الكتاب.

* وكون المصنّف ذكر طريق حاجّ الأحساء هو إشارة إلى أنّ الطريق كان معروفاً ومشهوراً في تلك الحقبة، وكان يسلكه الحجاج القادمون إلى الحجاز من جهة المشرق، ولهذا أشار إليه ضمن طرق الحاجّ المعروفة في عصره.

طريق الحاجّ الأحسائي:

ويعتبر ما ذكره الدمشقي أبو بكر بن بهرام الدمشقي (ت ١١٠٢هـ) من أقدم المصادر التي وصلتنا وذكر فيها منازل رحلة الحاجّ الأحسائي وطريق سيره من الأحساء إلى الديار المقدسة، وقد ذكر منازل الحاجّ من الأحساء إلى مكة المكرمة عبر المناطق التالية:

«من الأحساء، إلى جودة، ثم إلى ضان، ثم إلى الدهناء، وهناك دخل مي (رمل الدحي)، ثم منه إلى (جبل أبي عرفة)، ثم إلى ملهم، ثم إلى الجفر، ثم إلى الررض



(العِرض)، ثم إلى الدرعية، ثم إلى الحيسية، ثم إلى مرآة، ثم إلى الشعراء، ثم إلى الخناج، ومنها إلى المرقب، ثم إلى المنخنا (المنحنى)، ثم إلى العبله، ثم إلى ركبة، ثم إلى ذات عرق، ثم إلى مكة المكرمة^١.

فقد ذكر سبعة عشر منزلاً في الطريق إلى مكة المكرمة يعبر من خلالها الحاجّ الأحسائي، لتكون محطته بعدها مكة المكرمة.

وهو هنا كما ذكرنا سابقاً قد أوجز وذكر المناطق الرئيسية فقط التي يسلكها الحاجّ دون الإشارة إلى تفاصيل المكان والمسافة بين منزلٍ وآخر، لذا سنحاول التعريف بها:

* «من الأحساء إلى جودة»:

جُودة: ويسمّيها البعض (همراء جودة) منطقة غنية بالخيرات، تعدّ من أحسن مراتع البادية وأخصبها، فيها حقول زراعية، معظم عمل أهلها الزراعة والرعي، وأرضها رملية مستوية يسكنها بعض البدو يوجد بالقرب منها (جبل الجودي)، وهي تقع غربي مدينة الهفوف على بعد يصل إلى (١١٢) كم، باتجاه مدينة الرياض.

قال ياقوت الحموي: هي في بلاد بني تميم قال عبدة بن الطيب:

لولا يجودة والحي الذين بها أمسى المزالف لا تذكو بها نارٌ
وقال جرير:

فَأَنْتَ عَلَى مَجُودَةٍ مُسْتَدَلٍّ وَفِي الْحَيِّ الَّذِينَ عَلا لَهَا

يقول العبيد في «الموسوعة الجغرافية لشرقي البلاد العربية السعودية»: «لا يزال هذا الموضع معروفاً، ويقع في الشمال الغربي من المنطقة وإلى الغرب من عين دار. وفي

١. الدمشقي، أبي بكر بن بهرام، جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، تحقيق: مسعد سويلم الشامان، مركز حمد الجاسر، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٨ هـ، ٣٩٨-٤٠٠.



المصادر القديمة يسمى أحياناً: (بجودة) بالياء»^١.

* «ثم على ضان»: وهنا لعل المقصود (الصَّمان) بحسب المعلق على كتاب
الدمشقي،^٢ واعتماداً على الكثير من المصادر المشيرة لوقوعها على طريق الحاج
الأحسائي.

قال الزبيدي في تاج العروس: «الصَّمانُ: كلُّ أرض صلبة غليظة ذات حجارة إلى
جنب رمل، كالصَّمانَّة، سميت لصلابته وشدتها»^٣.

فمن أراد مكة عن طريق المنكدر توجه نحو القبلة وأخذ الصَّمان، والصَّمان على
ضفة فلج إلى الرمل، والدَّو من ناية، وسكنها بنو سعد وأخلاق تميم، يتراعون جميعاً،
وإذا أُجذبت قيس صارت إليه، وهو «طريق اليمامة»^٤.

وكانت الصَّمان في قديم الدهر لبني حنظلة والحزن لبني يربوع، والصَّمان متأخم
للدهناء»^٥.

تخرج من البصرة، فتسير إلى كاظمة ثلاثاً، وهي طريق المنكدر، لمن أراد مكة من
المنكدر. ثم تسير إلى الدَّو ثلاثاً، ثم تسير إلى الصَّمان ثلاثاً، ثم إلى الدهناء ثلاثاً،

١. العبيد، عبد الرحمن بن عبد الكريم، الموسوعة الجغرافية لشرقي البلاد العربية السعودية، نادي
المنطقة الشرقية الأدبي: الدمام، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣ م ١: ٢٦٤.

٢. جزيره العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق، الهامش: ٢٩٨.

٣. الزبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، الملقب بمرتضى (ت: ١٢٠٥هـ)، تاج العروس
من جواهر القاموس، دار الفكر: بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ/ ١٧: ٤١٧.

٤. كتاب المناسك وأماكن طرق الحاج ومعالم الجزيرة: لأبي إسحاق إبراهيم الحربي، تحقيق:
حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩ م: ٥٧٣.

٥. القطيعي، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل (ت: ٧٣٩هـ)، مرصد الاطلاع على أسماء
الأمكنة والبقاع، دار الجيل: بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ٢: ٨٥١، معجم البلدان، مصدر
سابق ٣: ٤٢٣.



والصَّمان: «جبل أحمر ينفاد ثلاث ليال، ليس له ارتفاع، وإنما سمِّي الصَّمان لصلابته»^١. كما تعدُّ هضبة مرتفعة شرقي الدهناء تمتدُّ شمالاً حتى تتصل بالبدببة والقرعة (القرعاء)، وتشتهر بدحولها التي تعتبر مخازن للمياه، وهي في الشمال أعرض منها في الوسط والجنوب، ويختلف عرضها من ٥٠-٩٠ ميلاً، ومتوسط ارتفاعها ١٢٥٠ قدماً، وطبيعة أرضها مختلفة فهي من الحجر الرملي، وفيها أحجار كلسية، وفيها سهول تنحدر إلى الشرق.

ومياه الصَّمان التي تشمل اللهابة واللصافة ووبرة، تسمى قديماً: وادي الشواجن^٢.

قال ابن المقرب العيوني:

فَمَا حَلَّ عَقَدَ السَّيْفِ حَتَّى أَنَاخَهَا ضُحَى بَعْدَارِ الْخَطِّ حَدْبَاءَ نَاجِلَا
أَلَمْ يَأْتِ مِنْ أَرْضِ (الشَّوَاغِنِ) يَحْتَطِي حَرَايِيَّ أَجْوَازِ الْفَلَا وَالْخَمَائِلَا

وقد ارتبطت صحراء الصَّمان منذ القدم إقليمياً بمنطقة الأحساء، وهي تخضع دائماً لحاكم منطقة الأحساء وذلك لقرب المنطقتين من بعضهما، وحاجة قبائل وحاكم الأحساء إلى مناطق خصبة لرعي الخيل والإبل والمواشي، وهذا ما تمتاز به صحراء الصَّمان، وقد قيل لابنة الخس: أي البلاد أمراً؟ فقال: «خياشيم الحزن وأجواء الصَّمان»^٣.

* «ثم إلى الدهناء، وهناك دخل مي»:

ويعني ثم إلى صحراء الدهناء: وحدوده الدهناء عبارة عن صحراء رملية متخذة شكل القوس الذي يمتد نحو ١٢٠٠ كم من جنوب شرق النفوذ إلى شمال الربع الخالي،

١. البكري، عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ)، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب: بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ، ٤: ١١٠٩.

٢. الموسوعة الجغرافية لشرقي البلاد العربية السعودية، مصدر سابق ٢: ٨٤.

٣. الصَّمان، مصدر سابق ١: ٢٧.



ويطلق مسمى الرميطة على نهايتها الجنوبية، وهو إسم محلي يعني قرب اندماج رمال الدهناء برمال الربع الخالي، وعرض الدهناء يختلف من مكان لآخر فمتوسط عرضها شمال وادي الباطن هو ٢٠م، وأمام وادي الباطن ترتبط الدهناء مع نفوذ المظهور ونفوذ الثويرات عبر عروق السيارات، والسبب في تراكم الرمال في هذه المنطقة أنها تقع إلى الشرق من مجرى وادي الرمة القديم، وإلى الشرق من خط طول ٤٥ شرقاً تنقسم الدهناء إلى قسمين، وتسمى المنطقة الفاصلة بالجندلية التي تعتبر أرض فياض وآبار.

وهي سبعة أجيل من الرمل في عرضها، بين كل جبلين شقيقة، وطولها من حزن ينسوعة إلى رمل يبرين، وهي من أكثر بلاد الله كلاً مع قلة أعذاء ومياه، وإذا أخصبت الدهناء ربعت العرب جمعاً لسعتها وكثرة شجرها، وهي عذاة مكرمة نزهة، من سكنها لا يعرف الحمى لطيب تربتها وهوائها، وهو منزل بطريق مكة من البصرة، صبحت به أقصاع الدهناء من جانبه الأيسر واتصلت أقماعها بعجمتها وتفرعت جبالها من عجمتها، وقد جعلوا رمل الدهناء بمنزلة بعير وجعلوا أقماعها التي شخصت من عجمتها نحو الينسوعة ثفنناً كثفن البعير، وهي خمسة أجيل على عدد الثفنيات: فالجبل الأعلى منها الأدنى إلى حفر بني سعد، واسمه خشاخش لكثرة ما يسمع من خشخشة أمواهم فيه، والجبل الثاني يسمى حمامان، والثالث جبل الرمث، والرابع معبر، والخامس جبل حزوى.^١

وعرفها البكري الأندلسي قائلاً: «الدهناء: رمال في طريق اليمامة إلى مكة، لا يعرف طولها، وأما عرضها فثلاث ليال، وهي على أربعة أميال من هجر، ويقال في المثل: أوسع من الدهناء. وقد ذكرت الدهناء في رسم عالج، وفي رسم كاظمة، وعلم الدهناء».^٢

١. معجم البلدان، مصدر سابق ٢: ٤٩٣.

٢. معجم ما استعجم، مصدر سابق ٢: ٥٥١.



حيث يوجد بها (دَحَل مَي)، ولعلّ في الأمر تصحيف من (رمل الدَّحِي)،^١ موضع يقع بالقرب من (الوشم)، الدليل سابقاً.^٢

والدَّحَل: تعني حفرة تكون في الأرض ضيقة الأعلى، واسعة الأسفل، تتجمّع فيها مياه الأمطار، وماؤها عذب.

قال صاحب معجم الياومة: «الدَّحِي: بفتح الدال المشددة، وكسر الحاء فياء (نفود الدحى) أو رمل الدحى، هو هذا الرمل المنقاد من فوهة (برك) غرباً إلى ما يقرب من وادي (العقيق) (عقيق تَمْرَة) أسفل (وادي الدواسر) وكان يسمك قديماً «الدُّبَيْل».^٣ * ثم منه إلى جبل أبي عرفة»: وقد ذُكر هذا الجبل في موضع آخر من كتاب الدمشقي فقال عنه:

«الدرعيّة وتقع على طريق الحاج الأحسائي وواديها متداخل ومتعرج جداً، وبلاد (العارض) تقع عليه وبالقرب منه جبل أبي عرفة».^٤

ومنه ندرك أنّ جبل أبي عرفة يقع بالقرب من الدرعيّة، إلا أنّ المصادر والمعاجم الجغرافية المختصة بالدرعيّة والعارض لا تذكر هذا الجبل، لذا لا يبعد أنه اسم آخر لأحد الجبال المعروفة في الدرعيّة وبلاد العارض.

ولعلّه يقصد أحد الجبال التالية القريبة من الرياض وما هو إلا اسم آخر لأحدهم وهي:

جبل طويق، جبل جبلة، جبل قطن، الجبل الأصفر، جبل ثهلان، جبل اذقان، جبل ذريع، جبل كميث، جبل شمالات، جبل التوباد، جبل زعابة، جبل النير، جبل

١. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق، الهامش: ٢٩٨.

٢. كتاب المناسك وأماكن طرق الحاج، مصدر سابق: ٦١٩.

٣. معجم الياومة، مصدر سابق ١: ٤١٦.

٤. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٢٨١.



البيضتين، وهي سلسلة جبال تحيط بالدرعية.

ويقصد بالعارض حالياً الرياض، والدرعية، وضرما، والعينة، والجبيلة، وسدوس،
والعمارية، ومنفوحة، والمصانع، وعرقه، والحائر.

تأتي أهميتها بالنسبة للحجاج الأحسائي العابر عليها في طريقة إلى بيت الله الحرام،
فهي غنية بالفواكه والخضار مما يجعلها مقصداً للحجاج، كما يشير إلى وفرة النخيل
فيها، مما يجعلها مستراحاً جميلاً ومقصداً للحجاج يلقي فيها عناء ومشقة الطريق، قبل
أن يعاود مسيرته من جديد.

* «ثم إلى ملهم»:

(ملهم) بفتح الميم وسكون اللام وفتح الهاء، تقع شمال مدينة الرياض بمسافة
تقدر بحوالي (٥٥ كم)، وهي من المناطق التاريخية العريقة التي تقع على طريق الحاج،
وهي شهيرة بمزارعها وخيراتها، ويعبر عنها الدمشقي بقوله: «... وملهم تبعد من
الأحساء بست مراحل، وهذه القرية متنزه جميل جداً، ينبت فيها قصب السكر والتمر
والعنب والخوخ»^١.

فإذا كانت (المرحلة) مسيرة يوم على الإبل، فهذا يعني يستغرق طريق (الأحساء
ملهم) ما مقداره ستة أيام سيراً على ظهور الإبل.

وقد جاء في لسان العرب: «ملهم قرية باليامة؛ قال ابن بري: هي لبني يشكر
وأخلاق من بكر وإيل»^٢.

جاء في كتاب معجم البلدان: قال أبو منصور: ملهم وقران قريتان من قرى اليامة
معروفتان، وقال السكوني: هما لبني نمير على ليلة من مرة، وقال غيره: ملهم قرية

١. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٢٨١.

٢. لسان العرب، ابن منظور ١٢: ٥٦٥.



باليمامة لبني يشكر وأخلاق،^١ وقال بن عبدالحق: «... ملهم بالفتح، ثم السكون، وفتح الهاء. قيل: ملهم وقرآن: قرنتان من قرى اليمامة معروفتان. قيل: هي لبني نمير، وقيل: ملهم لبني يشكر وأخلاق من بكر، وبها يوم للعرب».^٢ وأرجع الدكتور جواد علي اسم (ملهم) إلى يوم (ملهم) وهي حرب نسبت لهذا المكان بين تميم وحنيفة.^٣

* «ثم إلى الجفر»:

يحتمل المحقق لكتاب الدمشقي أن مراده (جفر البعر)،^٤ وجفر البعر: ماء يأخذ عليه طريق الحاج، من حَجْر اليمامة، بقرب راهص، وهي منطقة آبار جاهلية قديمة، تقع جنوباً من ماء (الأروسة)، وهي غنية بالمياه، وهي من مياه أبي بكر بن كلاب بين الحمى وبين مهب الجنوب على مسيرة يوم،^٥ وقد ذهب لذلك أيضاً صاحب (مرصد الاطلاع).^٦

ومما يؤكّد كلام الدمشقي من أن منطقة (جفر البعر) تقع على طريق الحاج الأحسائي، وتعدّ معبراً ومستراحاً للحجاج حيث يستقون منها الماء ويروون إبلهم، ما ذكره الأصفهاني قائلاً: «ثم الجفر؛ جفر البعر، يأخذ عليه طريق الحاج من طريق ضجر».^٧

١. معجم البلدان، مصدر سابق ٥: ١٩٥.

٢. مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مصدر سابق ٣: ١٣١٠.

٣. علي، الدكتور جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ١٣: ٤٠.

٤. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٣٩٩.

٥. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية عالية نجد، مصدر سابق: ٥٣٥.

٦. مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، مصدر سابق ١: ٣٣٨.

٧. م. ن. ١٤٨



ويحتمل أن المراد بـ: (جفر البعر) المكان المعروف اليوم بـ: (دمنان)، فقد ورد في المعجم الجغرافي لعالية نجد: «ويبدو لي أن هذا الماء هو الذي ذكره أصحاب المعاجم الجغرافية باسم (جفر البعر)، لأن كلمة دمنان بمعني ذو الدّمن، والدمن هو البعر». وقد استند بقوله هذا على قول ياقوت الحموي في تحديد المكان بقوله:

«جفر البعر، عن الأصمعي جفر البعر ماء يأخذ عليه طريق الحاجّ من حجر اليمامة، يقرب راهص. وعن أبي زياد الكلابي جفر البعر من مياه أبي بكر بن كلاب بين الحمى وبين مهب الجنوب على مسيرة يوم، وقال غيره: جفر البعر بين مكة واليمامة على الجادة، وهو ماء لبني ربيعة بن عبد الله بن كلابج^١.

* «ثم إلى الربض»:

يميل محقق الكتاب إلى وجود اشتباه لدى المؤلف فيقول: «لعلّه بطن العرّض»، في الطريق من حَجْر إلى مكة، وذكر في كتاب: بلاد العرب للحسن بن عبد الله الأصفهاني: ٣٦٢ «فإذا نصلت من العرّض وصلت موضع يقال له الراحة... ثم تصير إلى ثنية الأحيسي»^٢.

والعارض: هو الجبل الممتد عَرَضاً في وسط الجزيرة، ويعرف بهذا الاسم في الوقت الحاضر، وبجبل (طَوِيق) لتطويقه جزءاً من بلاد المنطقة الوسطي في الجزيرة^٣.

وطرف العارض في بلاد بني تميم في موضع يسمى القرنين فتمّ انقطع طرف العارض الذي من قبل مهبّ الشمال ثم يعود العارض حتى ينقطع في رمل الجزء،

١. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية عالية نجد، مصدر سابق ٢: ٥٣٤.

٢. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٣٩٩.

٣. العيسى، محمد الفهد، الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى، مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة

الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م: ١٣.



وبين طرفي العارض مسيرة شهر طولاً ثم انقطع^١.
والعارض كما يقول الدمشقي في طيات كتابه:

«نجد العارض: هي مناطق واسعة، يقطعها جبل، يسمونه (جبل العارض)، والآن يسمى: (جبل العمارية)، له مدخلان: أحدهما من (العيننة)، والآخر من (الدرعية)، ويقولون: إن هناك ثلاثة آلاف قرية، وأهلها لا يخضعون لشريف، وبداية هذا الجبل تمتد من مسافة ثلاثة مراحل من (الحجاز)، ويمتد إلى الجهات الشمالية حتى (نجد العارض)»^٢.

ثم يقول: «في وسط (العارض)، وعند هذا الجبل وإد يسمونه: (وادي بني حنيفة)، وفيه المياه وافرة وكثير الأشجار والنخيل، وهو متنزهات مبهجة، وعلى أطراف الوادي تصطف القرى، وفي أعلاه قصبه الدرعية»^٣.

* ثم إلى الدرعية:

الدرعية: مدينة تقع على ضفتي وادي (العرض) الذي يخترق سلسلة جبال (العارض) في منطقة يطلق عليها الجغرافيون المتقدمون (العروض)^٤.
وبلدة الدرعية منسوبة إلى الدروع، والدورع قبيلة استوطنت وادي حنيفة وحكمت حجر والجزعة، ودعا أحد حكامها (ابن درع) ابن عمه مانع المريدي للقدوم من عروض نجد إلى مراع وادي حنيفة، وسكن القادمون ما بين غصيبة والمليبيد، وبتاريخ قدومهم يؤرخ لتأسيس الدرعية عام ٨٥٠هـ.^٥

١. معجم البلدان، مصدر سابق ٤: ٦٦.

٢. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٢٧٩.

٣. م. ن. ٣٨٠.

٤. الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى، مصدر سابق: ١١.

٥. معجم الياقوت، مصدر سابق ١: ٤١٦.



وتقع الدرعية على بعد حوالي (٣٠٠ كم) عن الأحساء، ويجدها شمالاً محافظة حريملاء بمسافة (٧٥ كم)، وجنوباً محافظة ضرما بمسافة (٧٠ كم)، وتتوزع مساكنها على ضفاف وادي حنيفة، وروافده ما بين غصيبة في الشمال والمليبيد في الجنوب، ويلفها سورها القديم بتحصيناته وأبراجه الطينية.

بيّن أبو بكر بن بهرام الدمشقي أهمية الدرعية و موقعيتها من طريق الحاج الأحسائي بقوله: «... والدرعية تقع على طريق حجّج الأحساء، وواديها متداخل ومتعرج جداً وبلاد العارض تقع عليه، وبالقرب منه جبل أبي عرفة»^١.

* ثم إلى الحيسية:

الحيسية: عبارة عن شعيب وعر نسيباً يبعد عن الرياض (٥٠ كم)، أقرب منطقة إليه (العينية)، وفيه أشجار طلع كثيرة والمكان قريب من الرياض وجميل وقت الأمطار.

وتحديد موقع هذا الشعيب كما يذهب العيسى في قوله: «إنَّ جبل العارض يخترقه فجاج واسعة، منها ينفذ إلى الأودية التي في جوفه، ومن أشهر تلك الفجاج (الأحيسى) بفتح الهمزة والحاء وسكون والياء، والسين المفتوحة بعدها ألف مقصورة بصورة (ي)، وفي أعلى هذا الفج عقبة، وتلك تسمى: (ثنية الأحيسى)، ومنها ينفذ إلى (العرض) وادي حنيفة»^٢.

والأحيسى يعرف اليوم بـ: (الحيسية) وهو ما فوق (العينية) من وادي حنيفة، من أعلاه، مُهدت وأصبحت تمر منها السيارات، فما سال من هذه الثنية مشرقاً يصبُّ في وادي حنيفة، وما سال منها مغرباً تمده روافد أخرى، ويتكون منه وإذ يذهب مغرباً حتى يخترق خط الحجاز مما يلي منطقة (سَمْحَان) أعلى (صَرَمَى) وتتكون منه ومن

١. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٣٨١.

٢. الدرعية عاصمة الدولة السعودية الأولى، مصدر سابق: ٢٣.

الأودية الأخرى التي تصب فيه سيول رياض ضرمى^١.

* «ثم إلى مرأة»:

تكتب قديماً (مرأة)، أما في المصادر الحديثة (مرات): وهي تقع في الجهة الشمالية الغربية لمدينة الرياض، في الجهة الجنوبية لمنطقة الوشم في إقليم اليمامة وعلى ارتفاع ٦٠٠ متر على سطح البحر، وتبعد عن مدينة الرياض (١٣٤ كم) تقريباً من (طريق القدية) وعلى بُعد (١٦٧ كم) تقريباً من (طريق ديراب)، كما تبعد عن مدينة شقراء بمسافة تقدر بنحو من ٣٥ كيلاً، وهي على طريق الحجاز القديم.

ذكرها الدمشقي ووصفها بقوله: «تبعد عن (الدرعيّة) بمرحلتين، بها مياه ونخيل»^٢.

واعتبرها ابن خميس في قوله عن «مرأة»: بلدة أثرية اشتهرت بأنها بلدة امرئ القيس، وهي بلا شك بلدة امرئ القيس ولكن ليس ابن حجر الكندي الشاعر الجاهلي المعروف، بل امرئ القيس التميمي، وهي قرية عرف أهلها بالطيب والكرم^٣.
ومن كان يسكنها هشام المرئي، فوقع خلاف بينه وبين ذوالمرّة فهجاه:

فَلَمَّا دَخَلْنَا جَوْفَ مَرَّةٍ غُلِّقْتُ دَسَاكِرُ لَمْ تُرْفَعْ لَخَيْرِ ظِلَالِهَا
وَقَدْسُمِّيتَ بِاسْمِ امْرِئِ الْقَيْسِ قَرْيَةً كِرَامٌ صَوَادِيهَا لِئَامٌ رِجَالُهَا^٤

وتنطق كما يرى الأزهري، مرأة: بالفتح، بلفظ المرأة من النساء: قرية بني امرئ

١. معجم اليمامة، مصدر سابق ١: ٦٤.

٢. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٢٨٢.

٣. بن خميس، عبد الله بن محمد، المجاز بين اليمامة والحجاز، منشورات دار اليمامة، الرياض، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م: ٥٠.

٤. معجم ما استعجم، البكري الأندلسي، مصدر سابق ٤: ١٢٠٤.



القيس بن زيد مائة بن تميم باليامة سميت بشطر اسم امرئ القيس، بينها وبين ذات غسل مرحلة على طريق النجاج. ^١ وهي تقع بالقرب من (جبل كميث) وهو علامة بلدة (مرأة)، يقول عنه المثل الشعبي: (اضمن لي كميثاً أضمن لك مرأة)، وهي تقع في الناحية الجنوبية من جبل كميث. ^٢

* ثم إلى الشَّعْرَاءَ:

الشَّعْرَاءَ: بلدة تقع في جانب جبل (ثهلان) من الشرق، غرب مدينة الدوادمي، على بُعد ٣٥ كم، وهي معروفة بهذا الاسم قديماً وحديثاً. ^٣
وكانت بلاد الشعراء وما حولها مرتعاً طيباً للبوادي، وفير المراعي كثير المياه، فأصبحت بحكم هذا الموقع وتأثيره سوقاً تجارياً للبادية، وتوسّعت تجارتها، وكذلك فإنها تقع في طريق القوافل بين بلاد (العارض) و(الوشم) و(سدير)، وبلاد الحجاز وعليها يمر طريق حاج هذه البلاد. ^٤

* ثم إلى الحنابج:

الحنابج: تقع على طريق عفيف البجدية، ويبعد مفرقها عن عفيف (٣٠ أو ٣٥ كم تقريباً)، ومن المفرق إلى نفس الديرة (٢٠ إلى ٢٥ كم تقريباً).

يقول المؤرّخ حمد الجاسر: «وهي ماءٌ قديم، أحساء كثيرة في واد داخل جبل النّير، والنّير كما يقول الهجري جبال كثيرة سود قنان وقران وغيرهما، بعضها إلى بعض وسعتها قريب من مسيرة يوم للراكب. ومن النّير تخرج سيول (التسرير) وسيول

١. معجم البلدان، مصدر سابق ٩٦:٥.

٢. المجاز بين اليامة والحجاز، مصدر سابق: ٤٩.

٣. المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية عالية نجد، مصدر سابق: ٧٦١.

٤. م. ن.: ٧٦٤.



(نَضَاد) و(ذِي غُثْث) في وادٍ يقال له ذو بحار.^١ ومن أسماء عيون النّير ومياهه: الحنجج، والحنجج، والحنبيج، ثلاثة منابع للماء يقال لها الحنابج،^٢ وكما يقول الهمداني: فإنّ من مياه النّير الحنابج».^٣

* «ومنها إلى المرقب»:

المرقب: وهي قرية باليامة، أو (الرقبية) المذكورة في نزهة المشتاق، أو هي (المرقبة) اسم جبل لهذيل.^٤

* «ثم إلى المنحنى»:

هو اسم يطلق على وادي أشيقر أحد الأودية التي تسيل شمالي منطقة شقراء، وقد ذكرها ناهض ابن ثومة في شعره فقال:^٥

فما العهد من أسماء إلا محلة كما خطّ في ظهر الأديم الرواقش
 (برمحين) أو (بالمنحنى) دبّ فوقها سفاالريح أو جزعٌ من السيل خادش

* «ثم إلى العبلة»:

يميل المحقّق والمعلّق على كتاب الدمشقي إلى أنّ مراده هو منطقة (العبلاء)،^٦

١. الجاسر، حمد، ترتيب: التعليقات والنوادر عن أبي علي هارون بن زكريا الهجري، دراسة ومختارات، القسم الثالث: المواضع، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م: ١٤٢٨.
٢. معجم البلدان، ياقوت الحموي ٢: ٣٠٩.
٣. صفة جزيرة العرب، مصدر سابق: ٢٦٠.
٤. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٣٩٩.
٥. المجاز بين اليامة والحجاز، مصدر سابق: ٦٠.
٦. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٣٩٩.



المنطقة المعروفة منذ العصر الجاهلي بالطائف.

والعبلاء: اسم علم لصخرة بيضاء إلى جانب عكاظ،^١ وهي قرية من قرى الطائف.

يقول أبو بكر بن بهرام في كتابه «جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير»: وكذلك قرية تسمى (العبلاء) وفيها الطائف تسكن قبائل بني صخر، وبني سعد، وقبائل هذيل، وكانت قبيلة ثقيف تسكن هذه البلدة».^٢

أما العبيلاء: فهي قرية ومزرعة لعدوان في أسفل وادي لينة، يشرف عليها من الشرق جبل مروان، مرورة بيضاء، وقريب منها شمالاً شرقياً (العبل) وهو ما كان يعرف بالعبلاء.

وكانت العبيلاء مقرّ عثمان المضايقي وزير الشريف غالب أمير مكة وصهره، اتخذها للدعوة ضد غالب، وحشد الجيوش لقتاله مالياً بذلك عدوّه ابن سعود.^٣ فالخلاصة أنّ العبيلاء منطقة أو قرية على مقربةٍ من الطائف، تمتاز بكثرة المزارع والنخيل، ما جعلها مقصداً للأعيان والسائرين على درب الحاج، لأجل الاستراحة فيها والتزوّد منها، ولهذا فقد كان حاجّ الأحساء يأخذ مؤنّته منها وهو في طريق رحلته إلى الديار المقدسة.

* ثم إلى ركة:

وهي بلد متصلة بعكاظ، وبها عين تسمى عين (خليص)،^٤ وهي قرية من

١. المجاز بين اليمامة والحجاز، مصدر سابق: ٢٤٠.

٢. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٢٢٦-٢٢٧.

٣. معجم معالم الحجاز، مصدر سابق: ٦: ١١٠٩.

٤. المجاز بين اليمامة والحجاز، مصدر سابق: ٢٤٠.



(العبلاء) بالطائف، ويبدو أنها كانت ذات مكانة اقتصادية جيدة، حيث كان يجبي منها الخراج إلى والي اليمامة،^١ في العصور المتقدمة. وركبة: من المناطق السهلية التي تعدّ من معابر الحاجّ، وهم على مشارف منطقة الحجاز حيث الديار المقدسة، قال كثير:^٢

أناديكما حجّ الحجيحُ وكبرتُ بفيفا غزال رفقةً وأهلّت
وما كبرت من فوق (ركبة) رفقةً ومن ذي غزال أشعرت واستهلّت

وعرّفها عاتق البلادي في معجمه قائلاً: «رُكبة: بضمّ أوله وسكون ثانيه وباء موحدة، بلفظ الركبة التي في الرجل من البعير وغيره، وقال ابن بكير: هي بين مكة والطائف، وقال القعبي: هو وادٍ من أودية الطائف، واعتبرها البعض جبل بالحجاز، ويراه الزمخشري مفازة على بعد يومين من مكة يسكنها اليوم عدوان.

سكنها بني ضمرة، وكانوا يجلسون إليها في الصيف ويغورون إلى تهامة في الشتاء، بذات نكف، بينما يراها البعض بأنها على طريق الناس بين مكة والطائف.^٣

* ثم إلى ذات عرق:

ذات عرق ميقات أهل العراق ومن جاء عن طريقهم، ويبعد عن مكة مسافة ٩٢ كم شمالاً، وهو من مواقيت الحج.

وهي مكان بالبادية قرب عقيق الطائف، سمي بذلك لعرق فيه، والعرق هو الجبل، ويقولون إنه منتهى جبال تهامة يفصل بين جبال تهامة ونجد، وهو ميقات أهل العراق ومن وراءهم من أهل المشرق كأهل خراسان وغيرهم. وهي مندثرة اليوم، ويحرم الحجاج الذين يأتون في السابق على الإبل من «الضريبة» التي يقال لها

١. م. ن.: ١٥.

٢. م. ن.: ٢١٣.

٣. معجم معالم الحجاز، مصدر سابق ٤: ٧٠٥.



اليوم «الخرىبات».

وهي منطقة تقع في نهاية نجد باتجاه الحجاز، قال ابن الأعرابي: «نجد ما بين العُدَيْبِ إلى ذاتِ عِرْقٍ»،^١ وبداية تهامة من ذاتِ عِرْقٍ إلى مرحلتين من وراء مكة.^٢ وقد ذكرها الدمشقي في كتابه فقال: «ذاتِ عِرْقٍ؛ قرية بها عدَّةُ آبار، وماؤها قريب، تبعد عن (الشعراء) بأربعة منازل، وعن (مكة) بمنزِلين، وأرضها رملية، سهلة، إذا حُفِرَ فيها يخرج منها الماء».^٣

ويعتبرها أبو بكر بن بهرام الدمشقي أنها آخر محطة يقف عندها الحاجُّ الأحسائي قبل الدخول إلى مكة المكرمة، ف: «هي ميقات حجاج نجد»،^٤ ومن سلك طريقهم إلى البلد الحرام.

وقد جعلها رسول الله ﷺ ميقات أهل المشرق، فمن جابر الأنصاري عن رسول الله ﷺ أنه قال: «وُقِّتَ لأهل المشرق ذاتِ عِرْقٍ»،^٥ وفي حديث آخر بلفظٍ مغاير عن جابر أن النبي ﷺ قال: «وُقِّتَ لأهل العراق ذاتِ عِرْقٍ»،^٦ كما يروى الحديث ذاته عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ.

ومنها يدخل الحاجُّ إلى مكة المكرمة مُحْرماً وقد بلغ مراده ليبدأ بعدها بأداء مناسك الحجِّ.

ونلاحظ على ما ذكره الدمشقي الخطأ في ذكر الأسماء، إضافةً إلى إطلاق مسميات

١. المجاز بين اليمامة والحجاز، مصدر سابق: ٢١٦.

٢. م. ن.

٣. جزيرة العرب في كتاب مختصر الجغرافيا الكبير، مصدر سابق: ٢٣١.

٤. م. ن.: ٤٠٣.

٥. كتاب المناسك وأماكن طرق الحاج، مصدر سابق: ٣٤٧.

٦. م. ن.: ٣٤٨.



لم تكن مألوفة تاريخياً على تلك الأماكن.

وقد حاولنا خلال ما تمّ بسطه وعرضه آنفاً من معالم جغرافية لطريق الحاجّ الأحسائي أن نعرّفه غالباً من وجهة نظر الدمشقي، والذي يظهر أنه ممن سار على الطريق ووصفه وفقاً لمشاهداته العينية، وذلك في القرن الحادي عشر الهجري، وهذا يعطي صورة مختلفة عما كتبه الجغرافيان قبله كياقوت الحموي والهمداني لتقدّمهم عليه بقرونٍ عديدة، مما يمتثل على إثر ذلك تغيير المعالم ومشخصّاتها نتيجة الفارق الزمني الكبير.

هذا ناهيك عن النظرة الشخصية للمؤرّخ الدمشقي، والتي تعدّ عنصراً مهماً للتعرف على بعض المعالم من خلال تجربته الخاصّة في السفر والترحال بعيداً عن النقل والأقوال المتضاربة كما لاحظنا في التعريفات المختلفة...

وللبحث صلة تأتي في العدد القادم إن شاء الله تعالى

مكة في رحلة الشعر والشعراء

حسن محمد

ملخص البحث:

هذه الرحلة مع مكة المكرمة في الشعر والشعراء، تُعدُّ رحلةً واسعةً طويلةً، تطلَّعت فيها قلوبُ الشعراء، قديماً وحديثاً، إلى بقعة هيا كرم البقاع وأجلِّها، وهامت فيها و حولها أرواحهم وعواطفهم، فنطقت قرائحهم الشعرية حباً لها وإجلالاً، وشوقاً وحنيناً، وفخراً ومدحاً ووصفاً لها ولعالمها، وقد تجسَّد منهم هذا عبر القرون والأجيال؛ ممن وفقَّ لحبِّها و ممن ينتظره ويأمله، فلعلَّ كثيراً منهم رحلت آماهم إليها بقلوبهم قبل أجسادهم ... ومقالتنا هذه اكتفت بنماذج من ذلك.

الكلمات المفتاحية:

مكة المكرمة، الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، أبوطالب عليه السلام، بلال بن رباح الحبشي رضوان الله عليه، السيد الشريف الرضي رحمته الله، مضاض



بن عمرو، عمرو بن الحارث بن مضاض، مشهد الحجيج، مزاحم العقيلي، أبو العلاء المعري، شهاب الدين السهروردي، علي بن أفلح، عبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي اليماني، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، أبو اليمن ابن عساكر الدمشقي، أحمد شوقي، محمد إقبال اللاهوري.

لقد حظيت مكة المكرمة، أم القرى بمنزلة كبيرة جداً في القلوب الصالحة والأرواح الطيبة، وفي دراسات المؤرخين وبحوث العلماء والفقهاء، وألهمت الكتاب والأدباء والشعراء أسمى المعاني الروحية التي غدت تحفر في وجدانياتهم ومشاعرهم ومواهبهم مادة رائعة وخصبةً لخيالهم وقرائحهم، وتهزُّ أوتار مشاعرهم وأحاسيسهم، فراحوا بألوان من جمال المفردات ومعانيها، يتغنّون بكلّ هذه المعالم وقدسيتها، عبر بعض المواضيع والأغراض الشعرية، فأفاضت أشعارهم حباً وإجلالاً، ووصفاً ومدحاً وفخراً، وشوقاً وحنيناً إليها... وهو ما نجده فيما كتبه ودوّنوه عن تسابق الشعراء في ذلك، سواء أكانوا من أهل مكة وما حولها، أم من بلدان نائية عن مكة، أو بعيدةً شيئاً ما عنها أو قريبة منها.

وصحيح أنّ منزل الإنسان ومكانه وبيئته يمثل كلّ منها وجوده، ويحكي انتماءه وهويته، أو يؤثّر في بناء عواطفه ومشاعره، لكنّ كثيراً من الشعراء تربطهم بمكة علاقة أخرى غير البيئية، وهي علاقة العقيدة ورباط الدين، وهي علاقة أوسع، ولعلّها أكثر تأثيراً، وهو ما نجده حاضراً في قصائدهم عن مكة كالشاعر والمفكر محمد إقبال اللاهوري، فكان لأشعارهم لون خاص وثمر طيب وحكاية أخرى، وليس هذا بغريب، فأُمّ القرى، والبيت العتيق، والكعبة المباركة، والمسجد الحرام بمعالمه من الحجر الأسود والمقام والحطيم وحجر إسماعيل، وزمزم والصفاء والمروة، وعاء قدمته السماء، وخصّته بمناقب وخصائص قلّ أو انعدم نظيرها في غيره، حتى



نالت مكة المكرمة الشرف والرفعة والسمو على جميع بقاع الأرض وآفاقها ومعالمها، وهكذا وديانها وجبالها وأزقتها، وحتى طيورها وحيوانها ونباتها، وكذا دورها وبيوتها ونواديبها وأسواقها الأدبية والشعرية، كان لها جميعاً نصيب وافر من خطبهم وأشعارهم، الممزوجة بذكرياتهم ونظراتهم عن هذه البقعة الربانية المختارة، وركزتها الكعبة المباركة ...

فمكة المكرمة، خصّها الله تعالى بـ:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾^١

ولعلَّ ﴿أَوَّلَ﴾ تدلّ على الأولوية المطلقة؛ فهو الأول تأسيساً، وهو الأول قرباً إلى الله سبحانه وتعالى، وهو الأول بركةً وهدىً وحرمةً، وهو الأول أمناً، وهو الأول فضائل ومناقب، وهو الأول في قبول عبادة الله ونيل رضاه، وهو الأول فيما يترتب من الأجر والثواب، والعفو والمغفرة، وهو الأول في مضاعفة الحسنات وإلغاء السيئات لمن قصده وزاره وأعلن استقامته وتوبته بصدق وإخلاص ...!

فاكتسبت أفضليتها على باقي البقاع من كونها موضع اختيار السماء؛ لاحتضان ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ...﴾، وأحسن ﴿قِبْلَةً﴾ لإرضاء حبيبها رسول الله ﷺ وتكريمه حينما رأته يقلّب وجهه المبارك في أطراف السماء هنا وهناك، لعلّه كان منه انتظاراً وترقباً لوعد السماء، أو رجاءً لاستجابتها، ورغبةً في تحقيق ما يتمنّاه ... كما في الآية:

﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ

الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^٢

وحينها راح يتوجه إليها المسلمون كافةً في فرض ومستحب ودعاء ... وبهذا وغيره

١. سورة آل عمران: ٩٦ .

٢. سورة البقرة: ١٤٤ .



الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال، وبكعبتها المباركة، وبمعالم مسجدها الحرام وآياته، وطهارته وأشرفيته على البقاع، وبمواقعها الروحية والجغرافية الأخرى، جذبت مكة المكرمة إليها أفئدة من الناس، جاؤوها من كل فجٍّ؛ إما على أرجلهم، وإما ركباناً، والحين إليها يرافقتهم، والشوق يحدوهم، وأمل العودة إليها لا يفارقهم ...

استجابةً لدعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾^١.

وتلبيةً لأذانه المبارك:

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَا تُؤَكِّرْهُ لَعَلَّهُمْ يَسْكُرُونَ﴾^٢.

وامثالاً لأمره تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^٣.

فتمسكاً بذلك وبغيره من خصائص هذه البقعة الطيبة، وما حدث فيها ووقع عليها، ووفاءً لها ولأهلها ولربوعها التي انبثقت منها رسالة التوحيد، فأشرق نور

١. سورة إبراهيم: ٣٦.

٢. سورة الحج: ٢٧-٢٩.

٣. سورة آل عمران: ٩٧.



الإسلام، وشرائع السماء، وانطلقت من حرّائها أولى آيات التنزيل العزيز، وتواصلت فوق بقاعها تترى على رسول الله محمد ﷺ ..

حتى غدت مكة أحبّ البلاد إلى الله تعالى وأكرمها، وأفضل البقاع وأجلها على وجه الأرض، ولقد سُمعَ النَّبِيُّ ﷺ وهو واقفٌ بالحزورة في سوقِ مَكَّة يقول:
«والله إنَّك لخيرُ أرضِ الله، وأحبُّ أرضِ الله إليّ، ولولا أنَّ أهلكِ أخرجوني منك ما خَرَجْتُ!»!

وفي خبر آخر يقول عبد الله بن عدي بن حمراء:

رأيتُ رسولَ الله ﷺ واقفاً على الحزورة، والحزورة: مرتفعٌ يُقابلُ المسعى من جهة المشرق، كان سوقاً من أسواقِ مَكَّة.

فقال النَّبِيُّ ﷺ مُحاطباً مَكَّة: «والله، إنَّك خيرُ أرضِ الله»، أي: أفضلها وأعظمها.

«وأحبُّ أرضِ الله إلى الله، ولولا أني أخرجتُ منك»، أي: بأمرٍ من الله، وذلك بعدما زاد أذى قريشٍ له ولمن أسلم معه. «ما خرجتُ»، أي: لبقيتُ بمكَّة.

وكان النَّبِيُّ ﷺ خرج مهاجراً من مَكَّة إلى المدينة. وفي الحديث: أفضليةُ مَكَّة المكرَّمة على غيرها من سائرِ البلدان وفيه: من تعظيمِ الأدبِ في مفارقةِ بيتِ الله عزَّ وجلَّ.

هذا وإكراماً لهذا العبد الصالح، والمؤمن المعذب، الصحابي الجليل، بلال بن رباح الحبشي، نبدأ به، فهم يذكرون أنه لما هاجر من مكة إلى المدينة المنورة، ظلَّ يتغنَّى بييتين من الشعر يرددتهما حيناً إلى مكة وشوقاً إلى ديارها، وإلى مائها ونباتها، مكة التي عرفته بعد إسلامه على ترابها، رجلاً معدباً على رمالها، راحت تصهره والحجر الساخن عليه، وهكذا اشتدَّ تعذبه على أيدي جلاوزة قريش وبعض زعمائها، فلم يذق في نواحيها إلا البطش والإهانة والإذلال من قبل كبرائها. وقد علا ساء مكة أنينه، وهو يردد نشيده الخالد: أحد أحد أحد! ومع هذا بقي مشتاقاً إليها، يحنُّ إلى رباعها ومائها ونباتها ...



ثوى بِمَكَّةَ بِضِعِّ عَشْرَةِ حِجَّةٍ
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ
فَلَمَّا أَتَانَا وَاطْمَأْنَنْتَ بِهِ النَّوَى
وَأَصْبَحَ لَا يَخْشَى عِدَاوَةَ ظَالِمٍ قَرِيبٍ
بَدَلْنَا لَهُ الْأَمْوَالَ مِنْ جُلٍّ مَالِنَا
نُحَارِبُ مَنْ عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا رَبَّ غَيْرُهُ
يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى خَلِيلًا مُؤَاتِيَا
فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا
فَأَصْبَحَ مَسْرُورًا بِطَيِّبَةِ رَاضِيَا
وَ لَا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ بَاغِيَا
وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَعَى وَالتَّاسِيَا
بِجَمْعًا وَإِنْ كَانَ الْحَيْبُ الْمُصَافِيَا
وَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَصْبَحَ هَادِيَا

وإلا فإنهم ذكروا أن الشاعر الجاهلي القديم مضاض بن عمرو أقدم من تشوق إلى مكة المكرمة وحن...، حين راح يندب حظّه وحظّ قومه الذين أخرجوا من مكة... أما عن وقت إنشاده قصيدته الطويلة التي تحكي شوقه العظيم لمكة، لما وصل إليها، متعباً إبلاً له، فوقف على جبل أبي قبيس وأنشدها... أما ابن إسحاق فيقول:.. فخرج عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي بغزالي الكعبة وبحجر الركن، فدفعها في زمزم، وانطلق هو ومن معه من جرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً، فقال عمرو بن الحارث بن مضاض في ذلك، وليس بمضاض الأكبر:

و قائله و الدمع سكب مبادر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا
فقلت لها والقلب منى كأنها
بلى نحن كئنا أهلها، فأزلنا
و كئنا ولاة البيت من بعد نابت
ونحن ولينا البيت من بعد نابت
وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
أنيس ولم يسمر بمكة سامر
يلجلجه بين الجناحين طائر
صروف الليالي، والحدود العوائر
نطوف بذاك البيت، والخير ظاهر
بعزّ، فما يحظى لدينا المكائر



ملكنا فعزّزنا فأعظم بملكنا
إلى أن يقول:

و صرنا أحاديث وكنا بغبطة
فسحّت دموع العين تبكى لبلدة
بها حرم أمن، و فيها المشاعر
وتبكي لبيتٍ ليس يؤذى حمامه
بذلك عصّتنا السنون الغواير
ويظلّ به أمناً، و فيه العصافر
و فيه وحوش - لا ترام - أنيسة
إذا خرجت منه، فليست تغادر...

قال ابن هشام: هذا ما صحّ له منها. وحدثني بعض أهل العلم بالشعر أن هذه الأبيات أوّل شعر قيل في العرب، وأنها وجدت مكتوبة في حجر باليمن، ولم يسمّ لي قائلها. ١

هذا وأنّ هناك الكثير، وأخصّ بالذكر أولئك الذين وهبهم السماء ملكة الشعر وحسنَ القرينة الشعرية، فقد تعلّقت نفوسهم ببقاع مكة وبمعالمها، وغدت تهفو أفئدتهم اشتياقاً إلى رؤية البيت وكعبته المباركة، حتى أنّهم راحوا يهيمون حينئذٍ إليها، يشفيهم القرب منها، ويزيدهم شوقاً إليها، ولا يسليهم البعد عنها، لهذا تراهم وقد بذلوا الغالي والنفيس، وتكبدوا فراق الأحبة والأهل، وتجنّسوا عناء السفر الشاق الطويل، حتى يصلوا إلى هذه الديار، فتصّحح حناجرهم تكبيراً وتهليلاً واستغفاراً، وتذرف عيونهم دموعاً ملؤها الحنين والشوق والفرحة برؤية الكعبة المباركة ومعالم البيت الحرام حتى كأنّ نفوسهم تردّد قول الشاعر:

١. فتح الباري، شرح صحيح البخاري: ٥٣٣٠؛ وصحيح البخاري: ١٨٨٩؛ صحيح ابن حبان: ٥٦٠٠؛ وموقع الموسوعة الحديثية - الدرر السنوية -، بتصرف؛ المستدرک على الصحيحين، رقم ٤٣١٤؛ ديوان حسّان بن ثابت؛ السيرة النبوية، لابن هشام: ٧٥؛ البداية والنهاية، لابن كثير: ٢: ٢٣٥؛ الروض الأنف في شرح السيرة النبوية، عبد الرحمن السهيلي: ٢: ١١-١٢؛ شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الفاسي: ١: ١٧٨.



أطوف به والنفس بعد مشوقة
بقلبي من شوق ومن هيمان
فو الله ما أزداد إلا صباية
ويا منيتي من دون كلّ أمان
أبت غلبات الشوق إلا تقرباً
وما كان صدي عنك صدّ ملالة
دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا
وقد زعموا أنّ المحبّ إذا نأى
ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا
بل إنّه يبلى التصبر والهوى
وهذا محبّب قاده الشوق والهوى
أتاك على بعد المزار ولو ونت

إليه، وهل بعد الطواف تداني؟!
وألثم منه الركن أطلب برد ما
ولا القلب إلا كثرة الخفقان
فيا جنة المأوى ويا غاية المنى
إليك فما لي بالبعد يدان
ولي شاهد من مقلتي ولساني
فلبى البكا والصبر عنك عصاني
سيبلى هواه بعد طول زمان
دواء الهوى في الناس كلّ أوان
على حاله لم يبله الملوان
بغير زمام قائد وعنان
مطيته جاءت به القدمان

انظر هذا فيما ذكر في بدائع الفوائد لابن القيم:

فلقد ذكر هذه الأبيات بعد أن بيّن محاسن البيت، وعظم شأنه بما يدعو الناس إلى
قصده وحبّه، وإن لم يطلب ذلك منهم، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي
بِبَكَّةٍ مُّبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ
آمِنًا...﴾^١.

فوصفه بخمس صفات:

أحدها: أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض.

الثاني: أنه مبارك، والبركة كثرة الخير ودوامه، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا



أكثر خيراً ولا أدوم ولا أنفع للخلائق.

الثالث: أنه هدى، وصفه بالمصدر نفسه مبالغةً حتى كأنه هو نفس الهدى.

الرابع: ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية.

الخامس: الأمن لداخله.

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حبه، وإن شطت بالزائرين الديار، وتناءت بهم الأقطار.

ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات. وهذا يدل على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم، والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله:

﴿... وَظَهَرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ...﴾^١

لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً.

وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه، وسلبت نفوسهم حباً وشوقاً إلى رؤيته، فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه، ولا يقضون منه وطراً أبداً؛ كلما ازدادوا له زيادةً، ازدادوا له حباً، وإليه اشتياقاً، فلا الوصال يشفيهم، ولا البعاد يسليهم كما قيل:

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه، وهل بعد الطواف تداني؟!...^٢

ولابن القيم أيضاً، وهو شمس الدين ابن قيم الجوزية المتوفى سنة ٧٥١ هـ جزية قصيدته الميمية (الرحلة إلى بلاد الأشواق) التي لعلها توفرت على أكثر من مئتين وعشرين بيتاً، نقتبس منها مقطعاً تحت عنوان: مشهد الحجيج.

١. سورة الحج: ٢٦.

٢. انظر بدائع الفوائد، لابن القيم الجوزية، المؤلف: محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبو عبد الله، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا - عادل عبد الحميد العدوي - أشرف أحمد.



يتضمن سبعةً وأربعين بيتاً، مما يذكره فيها اشتياق الحجيج لبيت استمدَّ عظمته وجلاله وجماله وقدسيته من انتسابه إلى الله تعالى حين أضافه إليه، فهو بيت مبارك ببركة السماء! يقول فيه:

أَمَّا وَالَّذِي حَجَّ الْمُحِبُّونَ بَيْتَهُ
وَقَدْ كَشَفُوا تِلْكَ الرُّؤُوسَ تَوَاضِعًا
يُهْلُونَ بِالْبِيدَاءِ لَبِيكَ رَبَّنَا
دَعَاهُمْ فَلَبَّوهُ رِضًا وَمَحَبَّةً
تَرَاهُمْ عَلَى الْأَنْضَاءِ شُعْتًا رُوَّسُهُمْ
وَقَدْ فَارَقُوا الْأُوطَانَ وَالْأَهْلَ رَغْبَةً
يَسِيرُونَ مِنْ أَفْطَارِهَا وَفَجَاجِهَا
وَلَمَّا رَأَتْ أَبْصَارُهُمْ بَيْتَهُ الَّذِي
كَأَنَّهُمْ لَمْ يَنْصَبْ أَقْطَبَهُ
فَلِلَّهِ كَمٍ مِنْ عَبْرَةٍ مُهْرَاقَةٍ
وَقَدْ شَرِقتْ عَيْنُ الْمُحِبِّ بَدَمِهَا
إِذَا عَايَنَتْهُ الْعَيْنُ زَالَ ظِلَامُهَا
وَلَا يَعْرِفُ الطَّرْفُ الْمَعَايِنُ حُسْنَهُ
وَلَا عَجِبُ مِنْ ذَا فَحِينَ أَضَافَهُ
كَسَاهُ مِنَ الْإِجْلَالِ أَعْظَمَ حُلَّةٍ
فَمِنْ أَجْلِ ذَا كُلِّ الْقُلُوبِ مُجِبُّهُ
وَرَأَحُوا إِلَى التَّعْرِيفِ يَرْجُونَ رَحْمَةً
فَلِلَّهِ ذَاكَ الْمَوْقِفُ الْأَعْظَمُ الَّذِي
وَلَبُّوا لَهُ عِنْدَ الْمَهَلِّ وَأَحْرَمُوا
لِعِزَّةٍ مَنْ تَعْنُو الْوُجُوهُ وَتُسَلِّمُ
لَكَ الْمُلُوكَ وَالْحَمْدُ الَّذِي أَنْتَ تَعْلَمُ
فَلَمَّا دَعَوَهُ كَانَ أَقْرَبَ مِنْهُمْ
وَعُجْرًا وَهُمْ فِيهَا أَسْرٌ وَأَنْعَمُ
وَلَمْ يُنْبِهِهُمْ لَذَاتِهِمْ وَالتَّعْنَمُ
رِجَالًا وَرُكْبَانًا وَاللَّهُ أَسْلَمُوا
قُلُوبُ الْوَرَى شَوْقًا إِلَيْهِ تَضَرَّمُ
لَأَنَّ شَقَاهُمْ قَدْ تَرَحَّلَ عَنْهُمْ
وَأُخْرَى عَلَى آثَارِهَا لَا تَقْدَمُ
فَيَنْظُرُ مِنْ بَيْنِ الدُّمُوعِ وَيُسْحِمُ
وَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكَيْبِ التَّأَلُّمُ
إِلَى أَنْ يَعُودَ الطَّرْفُ وَالشَّوْقُ أَعْظَمُ
إِلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَنُ؛ فَهُوَ الْمُعْظَمُ
عَلَيْهَا طِرَازٌ بِالْمَلَاخَةِ مَعْلَمُ
وَتَخَضَعُ إِجْلَالًا لَهُ وَتُعْظَمُ
وَمَغْفِرَةٌ يَمُنُّ بِجُودٍ وَيُكْرِمُ
كَمَوْقِفِ يَوْمِ الْعَرْضِ بَلْ ذَاكَ أَعْظَمُ



وَيَذُنُوبَهُ الْجَبَّارُ جَلَّ جَلَالُهُ
يَقُولُ عِبَادِي قَدْ أَتَوْنِي مَحَبَّةً
فَأَشْهَدُكُمْ أَنِّي غَفَرْتُ ذُنُوبَهُمْ
فُبَشْرَاكُمْ يَا أَهْلَ ذَا الْمَوْفِقِ الَّذِي
فَكَمْ مِنْ عَتِيقٍ فِيهِ كَمَّلَ عِتْقَهُ
وَمَا رُؤْيَى الشَّيْطَانُ أَغِيظَ فِي الْوَرَى
وَذَاكَ لِأَمْرٍ قَدْ رَأَاهُ فَعَاظَهُ
وَمَا عَايَنْتُ عَيْنَاهُ مِنْ رَحْمَةٍ أَنْتَ
بَنَى مَا بَنَى حَتَّى إِذَا ظَنَّ أَنَّهُ
آتَى اللَّهَ بُنْيَانًا لَهُ مِنْ أَسَاسِهِ
وَكَمْ قَدْرٌ مَا يَعْلُو الْبِنَاءَ وَيُنْتَهِي
وَرَأَحُوا إِلَى جَمْعٍ فَبَاتُوا بِمَشْعَرِ الْ
إِلَى الْجَمْرَةِ الْكُبْرَى يُرِيدُونَ رَمِيهَا
مَنَازِلَهُمْ لِلنَّخْرِ يَبْغُونَ فَضْلَهُ
فَلَوْ كَانَ يُرْضِي اللَّهَ نَحَرُ نَفْسِهِمْ
كَمَا بَدَلُوا عِنْدَ الْجِهَادِ نَحُورَهُمْ
وَلَكِنَّهُمْ دَانُوا بِوَضْعِ رُؤُوسِهِمْ
وَلَمَّا تَقَضَّوْا ذَلِكَ التَّفَتَّ الَّذِي
دَعَاهُمْ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ زِيَارَةً
فَلِلَّهِ مَا أَبْهَى زِيَارَتَهُمْ لَهُ

يُيَاهِي بِهِمْ أَمْلَاكُهُ فَهُوَ أَكْرَمُ
وَإِنِّي بِهِمْ بَرٌّ أَجُودُ وَأَرْحَمُ
وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا أَمَلَوْهُ وَأَنْعَمُ
بِهِ يَغْفِرُ اللَّهُ الذُّنُوبَ وَيَرْحَمُ
وَأَخْرَ يَسْتَسْعَى وَرُبُّكَ أَرْحَمُ
وَأَحْقَرُ مِنْهُ عِنْدَهَا وَهُوَ الْأَمُّ
فَأَقْبَلَ يَحْتُو التُّرْبَ غَيْظًا وَيَلْطِمُ
وَمَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ تُقْسَمُ
تَمَكَّنَ مِنْ بُنْيَانِهِ فَهُوَ مُحْكَمُ
فَخَرَّ عَلَيْهِ سَاقِطًا يَتَهَدَّمُ
إِذَا كَانَ يَبْنِيهِ وَذُو الْعَرْشِ يَهْدِمُ
حَرَامٍ وَصَلَّوْا الْفَجْرَ ثُمَّ تَقَدَّمُوا
لِوَقْتِ صَلَاةِ الْعِيدِ ثُمَّ تَيَمَّمُوا
وَإِحْيَاءِ نُسُكٍ مِنْ أَبِيهِمْ يُعْظَمُ
لِدَانُوا بِهِ طَوْعًا وَلِلْأَمْرِ سَلَّمُوا
لِأَعْدَائِهِ حَتَّى جَرَى مِنْهُمْ الدَّمُ
وَ ذَلِكَ ذُلٌّ لِلْعِيدِ وَمَيْسَمُ
عَلَيْهِمْ وَأَوْفَوْا نَذْرَهُمْ ثُمَّ تَمَّمُوا
فِيَا مَرْحَبًا بِالزَّائِرِينَ وَأَكْرَمُ
وَقَدْ حُصِّلَتْ تِلْكَ الْجَوَائِزُ تُقْسَمُ



وَلِلَّهِ أَفْضَالٌ هُنَاكَ وَنِعْمَةٌ
وَعَادُوا إِلَى تِلْكَ الْمَنَازِلِ مِنْ مَنَى
أَقَامُوا بِهَا يَوْمًا وَيَوْمًا وَثَالِثًا
وَرَا حُوا إِلَى رَمِيِّ الْجَمَارِ عَشِيَّةً
فَلَوْ أَبْصَرْتَ عَيْنَاكَ مَوْقِفَهُمْ بِهَا
يَنَادُونَهُ يَا رَبَّ يَا رَبَّ إِنَّا
وَهَا نَحْنُ نَرْجُو مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
وَلَمَّا تَقَضَّوْا مِنْ مَنَى كُلَّ حَاجَةٍ
إِلَى الْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ عَشِيَّةً
وقصيدة أخرى طالما راح يتغنّى بها المنشدون:

أَنْخِ رِكَابَكَ يَا مَنْ شِئْتَ مَغْفِرَةً
وَتَابِعِ السَّيْرَ فِي ذَلِّ وَفِي وَجَلٍ
وَطْفِ بَيْتِ اللَّهِ وَاسْأَلْهُ مَكْرَمَةً
وَأَسْعِ مَا بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ مَرْتَمَلًا
وَزَمْزُمٌ لَا تَنْسُ تَضَلُّعَ مِنْهَا مَرْتَوِيًّا
بِأَبِي قَيْسٍ وَأَقْصِدْ ذَلِكَ الْحَرَمَ
وَنَاجِ رَّبِّ الْبَيْتِ فِي حَجْرٍ وَمَلْتَزِمَ
يَرْقِيكَ مَنزِلَةَ ذُو الْجُودِ وَالْكَرَمِ
وَكَبِيرِ الْمَوْلَى يَا سَاعِ فِي الْحَرَمِ
بِنِيَّةٍ سَبَقَتْ تَشْفِي كُلَّ ذِي سَقَمٍ!

هذا ومن الملاحظ أنّ مكة المباركة، وجدناها قد احتلت مكانةً ساميةً حين أخذت من الشعراء صوراً وألواناً وأغراضاً شعريةً مما تجود به قرائنهم، ففي الفخر نجد عمّ رسول الله ﷺ أبا طالب رضوان الله تعالى عليه، يقول قصيدته اللامية الطويلة مفتخراً ومتعوّداً فيها بالبيت الحرام وبمكانه مما يُحيكه بعض الخصوم من قومه كيداً وتأمراً واعتداءً... وهذا جزءٌ منها:

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وَدَّ فِيهِمْ
وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعَرَى وَالْوَسَائِلِ



وقد صارحونا بالعدواة والأذى
وقد حالفوا قوماً علينا أظنّةً
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي
قياماً معاً مستقبليّن رتاجه
وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم
أعوذ بربّ الناس من كلّ طاعن
ومن كاشح يسعى لنا بمعيبة
وثور ومن أرسى ثبيراً مكانه
وبالبيت حقّ البيت من بطن مكة
وبالحجر المسود إذا يمسحونه
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة
وأشواط بين المروتين إلى الصفا
ومن حجّ بيت الله من كلّ راكب
إلى أن يقول:

وقد طاوعوا أمر العدو المزابل
يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل
وأبيض غضب من تراث المقاول
وأمسكت من أثوابه بالوصائل
لدى حيث يقضي حلفه كلّ نافل
بمفضى السيول من إساف ونائل
علينا بسوء أو ملح بباطل
ومن ملحق في الدين ما لم نحاول
وراق ليرقى في حراء ونازل
و بالله إنّ الله ليس بغافل
إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
على قدميه حافياً غير ناعل
وما فيها من صورة وتمائل
ومن كلّ ذي نذر ومن كلّ راجل

وكان لنا حوض السقاية فيهم
شباب من المطيين وهاشم

وهذا الأعشى بن ميمون بن قيس، وهو شاعر جاهلي، يفاخر بهذه المواقع أيضاً،
ويهجو عمير بن عبد الله بن المنذر، أو يعاتب رجلاً؛ مع أنه ذو شرف يقول له:

فما أنت من أهل الحجون ولا الصفا
ولا لك حقّ الشرب من ماء زمزم



ولا جعل الرحمن بيتك في العلاء بأجباد غربي الصفا والمحرم^١

وقد يقترن ذكر مكة ومدحها هي ومعالمها بممدوح، والمدح واحد من الصور الشعرية، كما نطق الفرزدق مدحاً للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام، وكانت مناسبتها:

لما حجَّ هشام بن عبد الملك في أيام أبيه، طاف بالبيت وجهد أن يصل إلى الحجر الأسود؛ ليستلمه، فلم يقدر على ذلك بسبب كثرة الزحام، فنصب لنفسه كرسيّاً وجلس عليه، ينظر إلى الناس مع جماعة من أعيان الشام، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام فطاف بالبيت. فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتى استلمه، فقال رجل من أهل الشام لهشام:

من هذا الذي هابه الناس هذه الهيبة؟

فقال هشام: لا أعرفه.

وكان الفرزدق حاضراً، فقال: أنا أعرفه، ثم اندفع، فأنشد هذه القصيدة:

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَأْتُهُ وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرَمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الطَّاهِرُ الْعَلَمُ
هَذَا ابْنُ فَاطِمَةٍ إِنْ كُنْتَ جَاهِلَهُ بِجَدِّهِ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ قَدْ خُتِمُوا
وَلَيْسَ قَوْلُكَ مَن هَذَا بِضَائِرِهِ الْعَرَبُ تَعْرِفُ مَن أَنْكَرَتْ وَالْعَجَمُ
كِلْتَا يَدَيْهِ غِيَاثٌ عَمَّ نَفْعُهُمَا يُسْتَوَكْفَانِ وَلَا يَعْرُوهُمَا عَدَمُ
سَهْلُ الْخَلِيقَةِ لَا تُخْشَى بَوَادِرُهُ يَزِينُهُ إِثْنَانِ حُسْنُ الْخَلْقِ وَالشِّيمُ

١. السيرة النبوية، ابن هشام الحميري ١: ١٧٦؛ بحار الأنوار، العلامة المجلسي ١٩: ٢؛ ثمار القلوب،

للنعالبي ١: ١٣؛ ديوان الأعشى: ٢١٤؛ المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده (ت ٤٥٨ هجرية)،

تحقيق عبد الحميد هندواي ٣: ٨٥ عن ديوان الأعشى: ١٧٣؛ تاج العروس، الزبيدي ١٨: ١٣٢. ١٧٣



حَمَّالٌ أَثْقَالِ أَقْوَامٍ إِذَا افْتَدَحُوا
مَا قَالَ لَا قَطُّ إِلَّا فِي تَشَهُدِهِ
عَمَّ الرِّيَّةَ بِالْإِحْسَانِ فَاِنْقَشَعَتْ
إِذَا رَأَتْهُ قُرَيْشٌ قَالَ قَائِلُهَا
يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ
بِكَفِّهِ حَيْرَانَ رِيحُهُ عَبِقُ
يَكَادُ يُمَسِّكُهُ عِرْفَانٌ رَاحَتِهِ
اللَّهُ شَرَّفَهُ قَدَمًا وَ عَظَّمَهُ
التي أغضبت هشام بن عبد الملك (ت ١٢٥ هجرية)، فأمر بحسبه بين مكة
والمدينة.^١

وجيزة نافعة:

مع السيد الشريف الرضي رحمته الله، المولود في بغداد (٣٥٩ هـ)، والمتوفى فيها (٤٠٦ هـ)،
وحجازياته؛ وهي قصائد عاطفية نظّمها وهو في الحجاز. والمعروفة بأئها «المقطعات
الشعرية التي لها وجه اتصال بالحجاز مباشرة أو بالتأدية إليه».

ويبدو أن خير تعريف لها، كما ذهبوا إليه، هو ما ذكره الدكتور مصطفى كامل
الشيبي:

«الحجازيات، مصطلح واضح الدلالة على مضمونه، يجري في الشهرة على نسق
مع هاشميات الكميت وخمريات أبي نواس وزهديات أبي العتاهية، ويعني المقطعات
الشعرية التي لها وجه اتصال بالحجاز، مباشرة أو بالتأدية إليه، من نظم الشريف

١٧٤ . ١ ديوان الفرزدق، شرحه وضبطه وقدم له علي فاعور: ٥١١ .



الرضي وهي بالمفهوم الحديث (ألبوم) صور تذكارية على هيئة أشعار تجمع ذكريات زيارته الكثيرة لأرض الحجاز أيام إمارته الطويلة للحج وما قبلها حين كان يرافق أباه، أباً أحمد الموسوي، الأمير الذي سبقه وأورثه الإمارة».

وقد بلغت أربعين قصيدةً، تتوقّر على حكاياته مع الحجاز، يذكر أمكنة فيه ويصفها بقعةً بقعةً، هضبةً هضبةً، حجارةً حجارةً، فلا الخيف ينسأه ولا العقيق، ولا المحصّب والصفاء واللوى، ولا رامه وكتبان ويللمم... بل حتى أنّه لم يترك ذكر طبائها ولا وصف غزلانها في أشعاره المذكورة...، كان حريصاً أن يمرّ بأرض الحجاز وبيئته مروراً ليس عابراً كما يفعل الآخرون، بل مروراً كأنه يجعل حجارتها تنطق بوجده، وتثير عنده ذكرياتها، فتراه يطوف حولها بقلبه، ويناجيها بعواطفه، ويتغزل بها في شعره، ويخلدها اسماً ووصفاً في أبياته الرائعة.

إنها بيئة الحجاز، ما أجّلها مهبط الوحي والتنزيل، ومهوى أفئدة المؤمنين، ومنازل الدعاة من الأنبياء والصالحين والشهداء، حبيبة قلوب المتقين العارفين والحجاج والمعتمرين...، كلُّ هذه المفردات الجميلة والمعاني الطيبة الجليلة القدر؛ قد احتلّت مكانها في فكر وعقيدة ووجدان السيد الشريف الرضي، وبالتالي تركت آثارها فيه، فلم تفارقه في نظمه لحجازياته التي صارت مدار بحث المؤرخ والأديب والشاعر...!

فتعالوا معنا لنعيش مع سيدنا الجليل في بعض أشعاره:

فالأخشبان جبلان يُعدّان من المعالم الجغرافية والتاريخية والأثرية، يضافان - كما يقول ياقوت الحموي - تارةً إلى مكة وتارةً إلى منى، وهما واحد أحدهما: أبو قبيس، والآخر قعقعان... على أنّ غير ياقوت من الجغرافيين، مع قولهم إنّ أحد الجبلين هو أبو قبيس، اختلفوا في تعيين الجبل الآخر.

كان لهما مع غيرهما كمنى والمشعر والخيف والجبار وزمزم والمقام... ذكر في



حجازياته، وهو في هذه الأبيات يُبين مدى اشتياقه إلى هذه الأماكن ومحبوبته لها.
حيث يقول:

أُحِبُّكَ مَا أَقَامَ مِنِّي وَجَمَعُ وَمَا أُرْسَى بِمَكَّةَ أَحْشَبَاهَا
وَمَا رَفَعَ الْحَجِيجُ إِلَى الْمُصَلَّى يُجْرُونَ الْمَطِيَّ عَلَى وَجَاهَا
وَمَا نَحَرُوا بِخَيْفِ مِنِّي وَكَبَّوْا عَلَى الْأَذْقَانِ مُشْعَرَةً ذُرَاهَا
نَظَرْتُكَ نَظْرَةً بِالْخَيْفِ كَانَتْ جَلَاءَ الْعَيْنِ مِنِّي بَلْ قَذَاهَا
وَلَمْ يَكْ غَيْرُ مَوْقِفِنَا فَطَارَتْ بِكُلِّ قَبِيلَةٍ مِنَّا نَوَاهَا
فَوَاهَا كَيْفَ تَجْمَعُنَا اللَّيَالِي وَآهًا مِنْ تَفَرُّقِنَا وَآهَا
فَأُقْسِمُ بِالْوُقُوفِ عَلَى الْأَلِ وَمَنْ شَهِدَ الْجِمَارَ وَمَنْ رَمَاهَا
وَأَرْكَانِ الْعَتِيقِ وَبَانِيهَا وَزَمَزَمَ وَالْمَقَامِ وَمَنْ سَقَاهَا
لَأَنْتِ النَّفْسُ خَالِصَةٌ فَإِنْ لَمْ تَكُونِيهَا فَأَنْتِ إِذَا مُنَاهَا
نَظَرْتُ بِبَطْنِ مَكَّةَ أُمَّ خَشْفٍ تَبَغَّمُ وَهِيَ نَاشِدَةٌ طَلَاهَا
وَأَعْجَبَنِي مَلَامِحُ مِنْكَ فِيهَا فَقُلْتُ أَحَا الْقَرِينَةَ أَمْ تُرَاهَا
فَلَوْلَا أَنَّنِي رَجُلٌ حَرَامٌ ضَمَمْتُ قُرُونَهَا وَلَثَمْتُ فَاهَا

ولم يكن السيد الشريف الرضي أول من ذكر الأخشيين، فقد ذكر من قبل مزاحم العقيلي، وهو شاعر غزلي بدوي (ت ١٢٠ هـ جرية):

خليلي هل لي من حيلة تعلمانها يقرب من ليلي إلينا احتيالها
فإنَّ بأعلى الأخشيين أراكة عدتني عنها الحرب دان ظلالتها
ممنعة في بعض أفنائها العلا يروح إلينا كلَّ وقت خيالها
إلَّا أن ياقوت الحموي يرى في هذا الشعر ما يدل على أن الأخشيين الواردين فيه



هما غير اللذين في مكة، وأنها مكان واحد؛ لأن الأراكة لا تكون في مكانين.^١
وأيضاً تعالوا معنا نضع إلى السيد الشريف الرضي وهو يذكر طباء الحجاز وبعض
بقاعه في أبيات يعدونها من أجمل حجازياته، وهذه بعض أبياتها:

وظيبة من طباء الأنس عاطلة تستوقف العين بين الخمص والهضم
لوأنها بفناء البيت سانحةً كصدتها وابتدعت الصيد في الحرم
أحبك ما أقام منى وجمع وما أرسى بمكة أخشباها
لأنت النفس خالصة فإن لم تكونيها فأنت إذن مناها
نظرتك نظرة بالخياف كانت جلاء العين بل كانت قذاها
ولم يك غير موقفنا وطارت بكل قبيلة منا نواها

يا ظيئة البان ترعى في حمائله ليهنك اليوم أن القلب مرعاك
الماء عندك مبذول لشاربه وليس يرويك إلا مدمعي الباكي
هبت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها برياك
عندي رسائل شوق لست أذكرها لولا الرقيب لقد بلغتها فاك
سقى مني وليالي الخيف ما شربت من الغمام وحياتها وحياك
إذ يلتقي كل ذي دين وماطله منّا ويجمع المشكو والشاكي ...
وكذا نراه يخاطب غزالاً، ويحمله أشواقه:

ألا يا غزال الرمل من بطن وجرة ألواجد الظمان منك شروع
ألا هل إلى ظل الأثيل تخلص وهل لثنيات الغوير طلوع

١. معجم البلدان، ياقوت الحموي ١: ١٢٢؛ معالم مكة التاريخية والأثرية، عاتق بن غيث البلادي؛

ديوان الشريف الرضي؛ والشريف الرضي، حياته وشعره، نور الدين حسن جعفر: ١٧.



وهل بليت خيمٌ على أيمنِ الحمى وزالت لنا بالأبرقين رُبوع
ولم أنسَ يومَ الجِزَعِ حُسناً فَلَسْتُه بعيني على أنّ الزيالَ سرِيعٌ
ولا يكتفي بذلك، بل راح وهو بعيد عن تلك البقاع والآثار، يناشد كلَّ مسافرٍ إلى
تلك الديار الحبيبة على قلبه، ويحملهم شوقه وحنينه إليها:

أقول لركب رائحين لعلكم تحلّون من بعدي العقيقَ اليانبا
خذوا نظرةً مني فلاقوا بها الحمى ونجداً وكثبان اللوى والمطاليا
ومروا على ابيات حيِّ برامةٍ فقولوا لديغ بيتغي اليوم راقيا
عدمتُ دوائي بالعراق فربما وجدتم بنجدٍ لي طبيباً مُداويا
وقولوا لجيرانٍ على الخيف من منى اكم من استبدلتم بجواريا
وقال أيضاً:

أيها الرائحُ المغدُّ تحمّل حاجةً للمُعذّبِ المُشتاقِ
أقر عني السلامَ أهلَ المصلّى وبلاغَ السلامِ بعدَ التلاقي
وإذا ما مررت بالخيف فاشهد أنّ قلبي إليه بالأشواقِ
ضاع قلبي فأنشدهُ لي بين جمعٍ ومنى عندَ بعضِ تلكِ الحداقِ
وابكِ عني فطالما كنتُ من قبلِ أعيُرِ الدُموعِ للعُشاقِ. ١
ولأبي العلاء المعري أربعة أبيات يقول فيها:

سَبِّحْ وَصَلِّ وَطَفْ بِمَكَّةَ زَائِراً سَبِّعِينَ لَا سَبْعاً فَلَسْتَ بِنَاسِكِ

١. حجازيات الشريف الرضي، مصطفى كامل الشيبني: ٢٥؛ كتاب الشريف الرضي، دراسات في ذكره الألفية؛ شعراؤنا القدامى، شراره عبداللطيف: الشريف الرضي، دراسة ومختارات، الشركة العالمية للكتاب، ط١، ١٩٩٢ م.



جَهْلَ الدِّينَانَةَ مَنْ إِذَا عَرَضَتْ لَهُ أَطَاعَهُ لَمْ يُلَفَّ بِالمُتَمَسِّكِ^١.

وهذا يحیی بن حبش... شهاب الدين السهروردي، الفيلسوف المقتول، والمولود عام (٥٤٩هـ) المختلف في سبب وكيفية قتله، ولم أجد فيما تيسّر لي تاريخ قتله. يكتب عشرة أبيات شعر حزينة، كما في الديوان المنسوب إليه، يذكر فيها شوقه ومتعته الروحية في البقاع المقدسة:

قف بنا يا سعدُ نزل هاهنا	فأثيلات النَّقا ميعادنا
وابتغ لي عبرةً أبكي بها	فدموعي نفذت بالمتحنى
هذه الخيف وهاتيك منى	فترفّق أيّما الحادي بنا
واحبس التدليج عنا ساعةً	نندب الحيّ ونبكي الوطننا
أهل مكة هكذا مكّتمكم	كلّ من حجّ إليها فُتنا
قتلت سُمركم سادتنا	لستُ أعني بكم سُمر القنا
كلُّ من أمل شيئاً ناله	يوم عيدٍ في منى إلا أنا
قلتُ يا صياد قلبي حلّه	حرم الصّيد على من في منى
قال من تعني وقد أبرز لي	من خبا البرقع وجهاً حسنا
قلتُ إياك فأوما خجلاً	قال والصيد من قلت أنا

فيما جاء بعضها عن ابن رجب (ت ٧٩٥هـ جريّة)، في المجلس الثاني في ذكر الحجّ وفضله والحث عليه، دون أن يذكر اسم الشاعر، فيقول:

كان عمر بن عبد العزيز إذا رأى من يسافر إلى المدينة النبوية يقول له:

أقرئ [إقرأ] رسول الله ﷺ مني السلام.

وروي أنه كان يبرد عليه البريد من الشام:



هذه الخيف وهاتيك منى فترفق أيها الحادي بنا
واحبس الركب علينا ساعة نندب الربع ونبكي الدمنا
فلذا الموقف أعدنا البكا ولذا اليوم الدموع تقنتى
أتراكم في النقا والمنحنا أهل سلع تذكرونا ذكرنا
انقطعنا ووصلتم فاعلموا واشكروا المنعم يا أهل منى
قد خسرنا وربحتم فصلوا بفضول الربح من قد غبنا
سار قلبي خلف أحمالكم غير أن العذر عاق البدنا
ما قطعتم وادياً إلا وقد جئته أسعى بأقدام المنى
آه وأشواقي إلى ذاك الحمى شوق محروم وقد ذاق العنا
سلموا عني على أربابه أخبروهم أنني خلف الضنا
أنا مذ غبتم على تذكاركم أتري عندكم ما عندنا
بيننا يوم أثيلات النقا كان عن غير تراض بيننا
زمننا كان وكنا جيرة فأعاد الله ذاك الزمننا

من شاهد تلك الديار وعاین تلك الآثار، ثم انقطع عنها لم يمت إلا بالأسف
عليها والحنين إليها:

ما أذكر عيشنا الذي قد سلفا وإلا وجف القلب وكم قد وجفا
وهاً لزماننا الذي كان صفا وأسفا وهل يرد فائتاً وأسفا.^١
ولا بد من الإشارة أن بعض الشعراء - كما يبدو لي - راح يذكر هذين البيتين أو
الثلاثة مطلعاً لقصيدته كما في البداية والنهاية لابن كثير (ت ٧٧٤ هجرية)، ١٦: ٣٢٥

١٨٠ . ١ . انظر في هذا ديوان السهروودي المقتول؛ لطائف المعارف، لابن رجب: ٢٤١ .



والهامش ذكر خمسة أبيات عن المنتظم في تاريخ الأمم والملوك، لأبي الفرج ابن الجوزي المتوفي (٥٩٧ هجرية) ١٧: ٣٤٠.

في ترجمة علي بن أفلح... وقد أورد ابن الجوزي أشياء حسنة من نظمه ونثره،...
ومن ذلك قوله:

هذه الخيف وهاتيك منى فترقق أيها الحادي بنا
واحبس الركب علينا ساعةً نندب الربع ونبكي الدّما
فلذا الموقف أعددنا البكا ولذا الدّمن دموعي تُقتنى...

ولعبد الرحيم بن أحمد بن علي البرعي اليماني (ت ٨٠٣ هجرية)، وهو شاعر، متصوف، قصيدة في ديوانه من تسعة عشر بيتاً راح يصف فيها ما يعانيه من ولّه وشوق ملكة وما حولها من البقاع، يُقال إنّه أنشدها، وكان على مقربة من المدينة المنورة، وما أن أتمّ بيتها الأخير حتى توفي؛ لتفاقم مرضه عليه، وهذه قصيدته من ديوانه:

يا راحلين إلى منى بقيادي هيجتُموا يومَ الرحيل فؤادي
سرتم وسار دليكم يا وحشتي والعيس أطربني وصوت الحادي
وحرمتُموا جفني المنام لبعدكم يا ساكنين المنحنى والوادي
فإذا وصلتُم سالمين فبلغوا منّي السلام أهيلَ ذاك الوادي
وتذكروا عند الطواف متياً صبّاً فني بالشوق والإبعادِ
لي من ربا أطلال مكة مرغّبُ فعسى الإلهُ يجودُ لي بمرادي
ويلوحُ لي ما بين زمزم والصفاء عند المقام سمعت صوت منادي
ويقول لي يا نائماً جدّ السرى عرفاتُ تجلو كلّ قلبٍ صادي
تالله ما أحلى المبيت على منى في يوم عيد أشرف الأعيادِ
الناسُ قد حجّوا وقد بلغوا المنى وأنا حججتُ فما بلغتُ مرادي



حَجَّوْا وَقَدْ غَفَرَ الْإِلَهُ ذُنُوبَهُمْ ذَبَحُوا ضَحَايَاهُمْ وَسَالَ دِمَاؤُهَا
حَلَقُوا رُؤُوسَهُمْ وَقَصَّوْا ظُفْرَهُمْ لِبَسُوآثِيَابِ الْبَيْضِ مَنْشُورِ الرِّضَا
يَا رَبِّ أَنْتَ وَصَلْتَهُمْ وَقَطَعْتَنِي يَا رَبِّ يَا زَوَّارَ قَبْرِ مُحَمَّدٍ
لِتُبَلِّغُوا الْمُخْتَارَ أَلْفَ تَحِيَّةٍ قُولُوا لَهُ عَبْدُ الرَّحِيمِ مَتِيْمٌ
صَلَّى عَلَيْكَ اللَّهُ يَا عَلَمَ الْهُدَى مَا سَارَ رَكْبٌ أَوْ تَرَنَّمَ حَادٍ

أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي الزمخشري، لقب بجار الله لمجاورته بمكة زمناً، ولما كان في طريقه إليها نظّم قصيدته الرائية:

سِيرِي تَمَاضِرَ حَيْثُ شِئْتُ وَحَدَّثِي إِنِّي إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ سَائِرِ
حَتَّى أُنِيخَ وَبَيْنَ أَطْمَارِي فَتِي لِلْكَعْبَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ مَجَاوِرِ
وَاللَّهُ أَكْبَرُ رَحْمَةٍ، وَاللَّهُ أَكْ ثَرِ نِعْمَةٍ، وَهُوَ الْكَرِيمُ الْقَادِرِ
يَا مَنْ يَسَافِرُ فِي الْبِلَادِ مَنْقِباً إِنِّي إِلَى الْبَلَدِ الْحَرَامِ مَسَافِرِ
إِنْ هَاجَرَ الْإِنْسَانَ عَنْ أَوْطَانِهِ فَاللَّهُ أَوْلَى مِنْ إِلَيْهِ يَهَاجِرِ
سَأْرُوحَ بَيْنَ وَفُودِ مَكَّةَ وَافِداً حَتَّى إِذَا صَدَرُوا فَمَا أَنَا صَادِرِ
حَسْبِي جِوَارُ اللَّهِ حَسْبِي وَحَدِهِ عَنْ كُلِّ مَفْخَرَةٍ يَعِدُّ الْفَاخِرِ

ولما عاد منها إلى بلده اشتد شوقه وحنينه إليها فأنشد:

بِكَاءٍ عَلَى أَيَّامِ مَكَّةَ إِنَّ بِي إِلَيْهَا حَنِينٌ النَّيْبِ فَاقْدَةُ الْبَكْرِ



تذكَّرتُ أيامًا بها فكأنني
أبيتُ على الصخر المبارك باكيًا
و حينَ تخطينا المناقبَ وارتمتُ
و قلتُ ألا أينَ الحطيمُ وزمزمُ
صفرتُ وراءَ الغورِ صفرةً مفلسٍ
و قلتُ لقلبي قد ملكتك مرَّةً
وتوفي ليلة عرفة سنة (٥٣٨ هجرية).

قد اختلفت زرقُ الأسنَّةِ في صدري
كما أنتِ الخنساءُ تبكي على صخر
بنا العيسُ تهوي في مسالكها القفرِ
و ماليَّ محجوزًا عن الركنِ والحجرِ
رأى يدهُ صفرًا من البيضِ والصفرِ
فما أنتِ إلاَّ طائرُ طارٍ في وكرِ

أبو اليمن ابن عساكر الدمشقي، جاور بمكة نحو أربعين سنة. وتوفي في جمادى الأولى سنة ست وثمانين وستمائة بالمدينة النبوية، له قصيدة فيها شكوى وموعظة ونصيحة...، عنوانها هو بيتها الأول نفسه:

يا من تبوأ من مشاعر مكة
وأبسط له كفَّ السؤال فإنه
واخضع له واضرع إليه وناده
وارفع إلى مولاك شكواك التي
وانظر لأمرك حيث أمرك منظر
إلى أن يقول:

متبوأ بين الصفا والمروة
جمّ النوال ببسط ظلّ النعمة
متنصلاً مما جنيت بذلة
طالت بها نجواك أبعد شقة
لابدّ من بعد الكرى من يقظة

فأوى إلى حرم ولاذ بمأمن
ألقي العصافيهَا وأوضع كي بها
واغسل ذنوبك بالدموع لعلّه

مستوثقاً منها بأوثق عروة
تضع الخطأ والحبوب عنه بتوبة
أن يجتبيك من لدنه برحمة...

الشاعر أحمد شوقي (ت ١٩٣٢ م) في رائعته، التي يبدأها بجبل عرفات .. ويُعدُّ

الوقوف عنده أهم مناسك الحجّ؛ (الحجّ عرفة):



إلى عرفات الله يا خير زائر
ويوم تولى وجهة البيت ناضراً
وفي الكعبة الغراء رُكنٌ مُرَحَّبٌ
وما سَكَبَ الميزابُ ماءً وَإِنَّا
وَرَمَزُمُ تَجْرِي بَيْنَ عَيْنَيْكَ أَعْيُنًا
وَيَرْمُونَ إبليسَ الرَّجِيمَ فَيَصْطَلِي
لَكَ الدِّينُ يَا رَبَّ الْحَجِيجِ جَمَعْتَهُمْ
أَرَى النَّاسَ أَصْنَافًا وَمَنْ كُلُّ بُقْعَةٍ
تَسَاوَوْا فَلَا الْأَنْسَابُ فِيهَا تَفَاوُتُ
عنت لك في التراب المقدس جبهة
منورة كالبدر شاء كالسها
ويارب هل تغني عن العبد حجة
وأنت ولي العفو فامح بناصع
وله أيضاً:

يا كعبة العلم في الإسلام من قدم
إن كان قومك قد جاروا عليك وقد
الله أرسل طيراً بين أرجلها
للدين والبيت رب لا يقاومه

الشاعر محمد إقبال (ت ١٩٣٨ م) وبعض شواهد الشعرية:

يقول الدكتور فهمي النجار: ... يرتبط إقبال بالعالم العربي المسلم برباط العقيدة



التي هي العروة الوثقى، ويعبر عن هذه الصلة المتينة في صورة جميلة، فيقول في قصيدته «شكوى»:

أنا أعجميُّ الدنُّ لكن خمرتي صنع الحجاز وكرمها الفينان
إن كان لي نغم الهنود ولحنهم لكنَّ هذا الصوت من عدنان...
وله:

صوت قيثارتي التي سمعوها أعجميُّ لكنَّ لحنِي حجازي...
ويتغنَّى إقبال بأرض الحجاز، منبت الوحي، وأرض البطولات، فيقول في قصيدة «شكوى» مبيناً أنها وطن كلِّ مسلم على أرض المعمورة، وإليها يحنُّ قلب كلِّ مؤمن:

أشواقنا نحو الحجاز تطلَّعت كحنين مغترب إلى الأوطان
إنَّ الطيور وإن قصصت جناحيها تسمو بفطرتها إلى الطيران...
وله أيضاً:

أنا أعجمي الحبِّ إلا أنني أطلقتُ في الحرم الشريف لساني
داري وقلبتي وفخاري

لقد عاش محمد إقبال شاعر الإسلام - مدة حياته - في حبِّ النبي ﷺ والشوق إلى مدينته، وتغنَّى بها شعره الخالد...

ويقول عنه أيضاً: ويبقى محمد إقبال يشتاقي إلى أرض الحجاز حتى الدقائق الأخيرة من حياته، فينشد:

نغمات مزين لي هل تعود ونسيم من الحجاز سعيد
أذنت عيشتي بوشك رحيلٍ هل لعلم الأسرار قلب جديد...

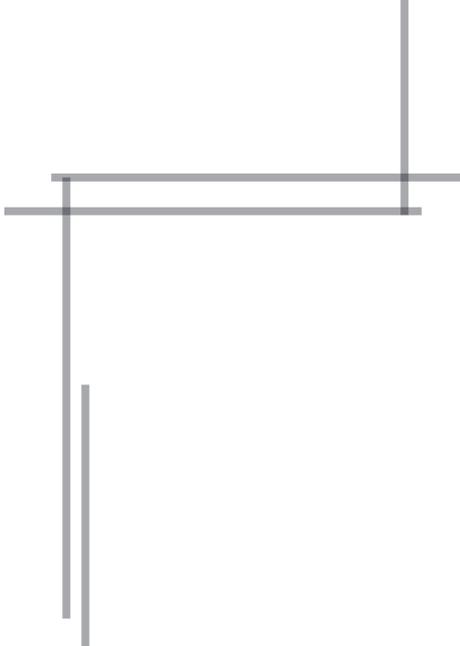
نظم شعر إقبال بالعربية كلِّ من د. عبد الوهاب عزام، وكذا الصاوي الشعلان...



أما أبو الحسن ندوي فقد ترجمه نشرًا...^١

نكتفي بهذه الشواهد الشعرية من بعضهم، وإلا هناك الكثيرون من الشعراء تجلّت قرائحهم؛ لتحكي وجدانياتهم في لوحات شعرية فنيّة مؤثرة شوقاً إلى مكة المكرمة وما فيها، وحيناً ومدحاً وثناءً ووصفاً لها... وإذا ما تتبعها القارئ يجد وكأنّهم يتنافسون في قصائدهم عنها، وفي حنينهم وشوقهم ووصفهم لها!

١٨٦ . ١ من كتاب الشاعر والمفكر الإسلامي محمد إقبال، د. فهمي النجار: ١٤٤ وهامشها، بتصرف .



ملخصات البحوث
بالانجليزية

Abstracts



Mekka in terms of Poets and Poetry

By: H. Mohammad.

Abstract

Talking about the role of Mekka in poetry and poets includes a long-term history that enlightens the hearts of all poets. They have been actually attracted to a shrine which is the noblest of all around which their hearts were surrounding it. Mekka had a great role in motivating the feelings of poets to compose delighted, classy and eloquent poems describing the majesty of Mekkah. Many of these poets have visited the Mekkah by their souls before looking at it by their eyes.

Abstract:



Hajj through Al-Ahsa

(3)

By: Mohammad Ali. Alherz.

Abstract

I always had the idea of addressing the issue of Al-Ahsa pilgrimage from a historical point of view; describing a rich connection between Ahsa and Hijaz which is one the most significant routes to perform Hajj. There are also many hardships and obstacles for Al-Ahsa pilgrims which share the common ground alongside other Hajj pilgrims who journey from other regions toward Mecca. It is an important research as many experts of the history of Hajj and its routes are negligent about such hardships and there are few writings with regards to such routes. Therefore, many authors just talk about well-known routes like Syrian, Iraqi, Egyptian, Yemeni, Jordanian and other ones without analyzing this threshold since it is a rugged way that is unclear spot.



(Aqil Ibn-Abi Talib)

(1)

By: Mohammad. Soleyman.

Abstract

The noble figures of two Holy Shrines Aqil Ibn-Abi Talib was a wise, brave, eloquent gentleman who was always following up the truth either for or against him. his wisdom would proceed his action, his mindfulness before his words and his delicacy before his ideas. when he was giving a lecture, all the addresses would remain seated listening to his words. if someone was criticizing or blaming him for what he said or did or scoffing at him because of his family tidings, he would try to logically talk to him and change his idea to know the truth.

Abstract:



"And Show Us our rituals"

(1)

By: Mohsen. Alassadi.

Abstract

we try to explain some of the Quranic verses in which the concept of "Nusk" which means ritual and its derivations have been indicated. hereby, we also want to shed light on the relevance exist between this concept of Hajj and Umrah in respect to ritual, conceptual, historical and principal aspects. then we are going to discuss the rituals included in Hajj if we do not say the Hajj is just ritualistic.



the qualifications of walking between Safa and Marwah hills

By: Mohammad. Alqayeni.

Abstract

Abstract:

in this article we are about to discuss about the conditions of Sa'i (walking between) Safa and Marwah in that how much the term is comprehensive and inclusive. we should be able to define the paradigm of this term precisely. we concluded that it is not obligatory to fully walk the whole distance and in the case of doubt about the applying the due distance, one should refer to the principle of "Bara'ah" which means relief from obligations not the principle of "precaution".

In His name
Miqat¹ Ul-Hajj
Month of Rajjab, 1444
Year: 30, No: 58
Type: semi-annual
Scientific journal of cultural, historical,
political, and social affairs in Hajj
ISSN: 2538-1733

1. A sacred boundary near Mecca which is almost the beginning of rituals.